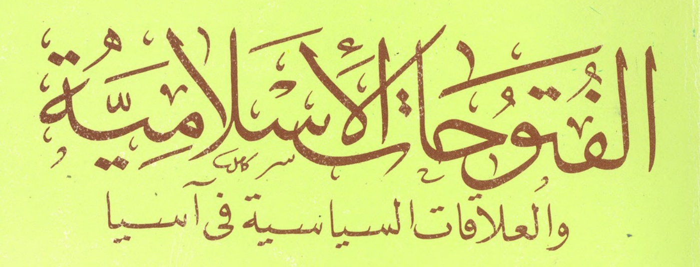
كتب تاريخية



الفتوحات الإسلامية

والعلاقات السياسية في آسيا

دكتور
محمد نصر مهنا
أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية
جامعة أسيوط

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزى وشركاه



دكتور
محمد نصر مهنا
أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية
جامعة أسيوط

١٩٩٠

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

إهــــداء

الى رابطة العــالم الاسلامى فى مكة المــكرمة

والى كل من شرفه الله تعالى بالانتماء الى العرب

تمهيد

انعكس تأثير الاسـلام فى عقلية العـرب على مظهرين ، الأول : ان التعاليم الاسلامية جاءت مخالفة لعقائد العرب ، وأما المظهر الثانى فهو أن الإسلام قد مكن العرب من فتح بلاد فارس وبلاد الروم ، ومن الثابت أنهما أمتان عظيمتان حملتا مدنية راقية فى هذه الفترة . وقد قضت تعـاليم الاسـلام بأنه إذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم أولا ، الدعـوة الى الدخول فى الاسلام ، فان أسلموا كانوا وسائر المسلمين سواء ، وان لم يسلموا فان عليهم أن يسـلموا بلادهم للمسـلمين يحكمونها ، ويبقوا على دينهم - ان شاءوا - ويدفعوا الجزية - ضريبة على الرأس يدفعهـا الرجال غير العرب - وليس النساء - ، فاذا قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانوا فى ذمة المسلمين يدافعون عنهم ويتعهدونهم بالحماية .

ومظاهر الحضارة الاسلامية التى تركها العرب كانت بنـاءة بدليل أن الفتوحات الاسلامية قد خلفت تأثيرا عظيما ، حيث ارتقى العـرب بهـذه الشعوب . مثال ذلك عندما غزا محمد بن القـاسم الثقفى شـبه القـارة الهندية سنة ٩٣هـ فقد استأثر باهتمام وتقـدير شعوبها ولدى مغـادرته هناك ودعته شعوبها بالدموع والعواطف الجياشة وهو دليـل على اندماج العـرب المسلمين بهذه الشعوب رغم أنهـا غريبة عنها فى اللغة والتراث التاريخى والعادات فان العرب كانوا أهل عقيدة وحضارة عريقة معا ، مما جعل الشعوب الأخرى تندمج فى الحضارة الاسلامية ومن الثابت أن انتشار العقيدة الاسلامية فى السند والبنجاب ووسط آسـيا وتغلغلها حتى الوقت الحاضر هو خير دليل - كما لمست بنفسى خلال فترة عملى بالباكستان - على قوة الحضارة الاسلامية التى تم من خلالها بناء هذه البلاد .

فى حين أنه فى الوقت الـذى ابتليت فيه هـذه الشعوب بالاستعمار الأوروبى بشتى أنواعه ، فقد فقدت حضارتها ، وتم استنزاف ثرواتها الى الدول الأوروبية ، ووصل الاستعمار الأوروبى الى مرحلة شرسة فى التمييز بين الأوروبى وغـيره من الشـعوب المستعمَرة - بفتح الميم - وحقـوق الانسان .. فما هو تفسير هذه الظاهرة ؟

الواقع ان الحضارة الاسلامية هى حضارة صادقة فى حين كانت الحضارة الأوروبية مجرد شعارات للرجل الأبيض فحسب ، وتاريخ العرب - وسيطه وحديثه - خير دليل على ذلك ، ومن هنا تأتى أهمية هذه الدراسة التى نجيب من خلال ثناياها على التساؤلات الآتية :

- كيف اعتنقت هذه الشعوب الآسيوية الاسلام ودخلته قانعة راضية ؟

- هل صحيح أن العرب كانوا يمارسون حكما استبداديا - وخاصة فى العصر الأموى والعباسى - تجاه هذه الشعوب ؟ وكيف يمكن مقارنة ذلك ببناء الحضارة ماديا ومعنويا للشعوب التى اختلطت بالعرب فأحبتهم وأحبوها واستفادت منهم وأفادوها ؟

- لماذا ينزلق البعض الى آراء المستشرقين ؟ وأليس المستشرقون - أو جزءا كبيرا منهم على الأقل - قد أساءوا الى الاسلام أكثر مما أفادوه ؟

- لماذا لا يعيد العرب كتابة تاريخهم دون الانسياق وراء الاستشرقين أو من يرددون آراءهم ويتأثرون بها ؟

- من واقع دراستنا لحركة التاريخ الاسلامى فكيف يمكن تحليل ما ردده البعض أن العرب ليسوا أهل حضارة ؟! أليست شواهد الحضارة الاسلامية فى آسيا تنفى ذلك ؟

والكتاب الذى بين أيدينا يوضح الحقائق الآتية :

أولا :

ان انتشار الاسلام فى العصور الوسطى يرجع الى اتفاق الحركة الاسلامية سلوكيا مع مبادىء وقيم ومعتقدات الاسلام ، لقد كانت الحركة الاسلامية فى ذلك الوقت حركة فعالة ، ذات هدف ، تحررية ، متسامحة ، رحيمة ويقظة وخاشعة لله سبحانه وتعالى ٠

وقد استتبع اعتبار الحركة الاسلامية كنظام سلوكى منذ انتشار الاسلام فى القرون المبكرة - أن تميزت على جميع النظم السلوكية بمعيار محدد فرض نفسه كشىء مقدس فى الوحى الذى نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان الوحى فى نفس الوقت مصدر جميع المعرفة فى القرآن

الكريم .. (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) ، وكان أسلوب تطبيقه فى سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان النموذج هو حضارة المدينة التى أسسها النبى صلى الله عليه وسلم ، وناضلت الحضارة الاسلامية عبر عصورها المختلفة - الوسيطة والحديثة والمعاصرة - فى بيئة دولية وفرضت نفسها بأفضل ما تستطيع لتصبح الحركة الاسلامية عالمية النطاق وحقيقة فعالة متفوقة فى الكيف والكم بمقارنتها بحصيلة عمل القوى المعادية لها ، وتمثلت هذه الحقيقة الفعالة فى تقديم الدين الاسلامى كنموذج لحل جميع مشاكل البشر .

لقد عاش الانسان على الأرض ملايين السنين ، غير أن أحداث التاريخ المسجلة لا تتعدى ثلاثة آلاف عام ، وحتى المئات الأولى منها تعد غامضة من وجهة نظر المؤرخين ، وايحاء القرآن الكريم واتمام رسالة الاسلام من خلال النبى محمد صلى الله عليه وسلم قد مضى عليه أكثر من أربعة عشر قرنا ، وقد تغلب المسلمون من صحراء شبه الجزيرة العربية فى الطور الأول من تاريخهم على المدنيات المتطورة فى بلاد فارس وروما ، ثم انتشروا بعد ذلك وأقاموا حضارة مزدهرة بسماتها الاسلامية المتميزة شملت الجزء الأعظم من العالم المعروف فى ذلك الوقت وظلت حضارة الاسلام سائدة حوالى ألف عام .

ثانيا :

امتدت دولة الاسلام قوية مرهوبة الجانب حتى نهاية حكم الأمويين وبداية حكم العباسيين - لتشمل مساحات هائلة من الأرض وأعدادا ضخمة من البشر - ربما لم تتوفر لدولة قبلها أو حتى بعدها - ، وقامت الدولة الاسلامية بفتوحات رائعة ونشرت الاسلام والهداية والتعمير ، وشملت فى هذه الفترة اقليمى جرجان وطنجارستان فى بلاد ما وراء النهر ، وقاربت حدود الصين ، ووصلت مدن هامة من نواحى بلاد ما وراء النهر فى حوزة المسلمين الأوائل مثل خوارزم وسمرقند وبلخ ومرد ، وفى جنوب شرقى آسيا بلغت حدود دولة المسلمين فى بلاد كشمير وبلاد السند ووصلت الى ما يلى المغرب جنوبا من الصحراء فى افريقيا ، أما من جهة الشمال الشرقى فقد بلغت الدولة الاسلامية جبال القوقاز وأرمينية وتاخمت فى الشمال حدود الدولة البيزنطية ، وأصبح خط حدود الدولة الاسلامية مع بيزنطة يمتد من قليقلة فى الشرق ويحاذى الأطراف الجنوبية لآسيا الصغرى ضمن الأراضى الاسلامية حتى طرطوس فى الغرب جنوب بلاد غالة ودخلت

الأندلس ضمن الأراضي الاســـلامية التى اشتملت أيضـا على كل أراضى الشمال الافريقى من مصر الى بلاد السوس فى المغرب الأقصى ٠

ثالثا :

احتك العرب عند امتـداد دولتهم الـكبرى بثقـافات متنوعة ونجحوا فى التعامل معها ، ومن الثابت أن الغالبية العظمى من هذه الشعوب التى اعتنقت الاسلام بعـد الفتح الاسلامى لبلادها قد شكلت جزءا من التيـار الاسلامى ، وامتزج العـــرب مع الأجناس الأخرى ، كما امتزجت العـادات الفارسية والرومانية بالعادات العربية ، وتأثرت الحياة والنظم السياسية والاجتماعية بهذا الامتزاج ، وكان العرب هم العنصر القوى الفاتح فقاموا بتعـديل هـــذه النظم بما يتواءم وعقليتهم ، ولكنهم تأثروا أيضـا بالنظم الاجتماعية والحضـارات الأقدم ، والواقع ان الامتزاج كان قويا ، فالموالى — كما سيتضح من الدراسة — كان لهم أثر فى مرافق الحياة ، وأصبحت الدولة الاسلامية — بعـد فتوحات أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم — مجالا فسيحا لأنواع أخرى من الحروب مثل حرب اللغة العـربية واللغـات الأخرى ، والاسلام والديانات الأخرى ، والنظم الاجتماعية العربية البسيطة والنظم الفارسية والرومية ، والحياة العقلية هى الأخـرى كان شأنها شأن هذه النظم ، وامتزج العقل العربى بالعقل الأجنبى ، وكما تضاربت النظم السياسية الفارسية والرومية مع النظم الاسلامية ، اختفت أيضـا القوانين الفارســية والـرومية ، كلهـا كانت فى حروب مستمرة ، وكانت الدولة الاسلامية هى مسرح العمليات وموطن القتال ٠

رابعا :

من الثابت أن العرب انتصروا فى نشر الدين الاسلامى لهذه الأقطار ، وظل الانتصار حليفهم حتى اليوم باعتناق الأقاليم المفتوحة للدين الاسلامى ، كما انتصرت لغة العرب وسادت الممالك المفتوحة ، وانهزمت أمامها اللغات الأصلية للأقاليم المفتوحة ، وصارت اللغة العربية هى لغة السياسة والعلم معا حيث عنى المسلمون بالتفكير المنظم من تشريع وتفسير وحديث وتاريخ وسير ، ولما فتح المسلمون هذه الأقاليم كان العنصر العربى هو العنصر الحاكم فتعلم وقرأ وكتب ، واضطر الداخلون فى الاسلام من غير العرب الى تعـلم العربية ورفع الاسلام المستوى العقلى للعرب من خلال نشر تاريخ وأحوال الأمم الأخرى ، وفيما يتعلق بالحياة العقلية فقد تأثرت هى الأخرى بالاسلام

ودعوته الى الايمان بالله وصفاته من وحدانية وعلم وقدرة والدعوة الى ما فى العالم من ظواهر ، وانتشر علماء المسلمين فى الدولة الاسـلامية فى عصر النبوة والخلفاء الراشدين ، بل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك فى مدن جزيرة العرب ، فأرسل الى اليمن والى البحرين والى مكة بعد فتحها ، وكذلك فعل عمر بن الخطاب عندما توسعت فتوحاته عندما كتب الى أهـل الكوفة قائلا : « انى بعثت اليكم بعبدالله بن مسعود معلما ووزيرا . وآثرتكم به على نفسى ، فخذوا عنه » ، وأنشأ هؤلاء الصحابة والعلماء حركة علمية نشيطة ، واشترك العرب والعجم معـا فى تلقى العـلم عنهم حتى اذا كان عصر التابعين وتابعيهم كان بعض حملة العـلم عربا وأكثرهم من أبنـاء الموالى — أبناء البلاد المفتوحة — . واشتهر كـثير من علماء مكة ، والكوفة والشام ومصر .

خامسا :

انتشرت الحركة التاريخية — وليس المقصود بها تأليف كتب التاريخ — وانما ما انتشر فى الدولة الاسلامية من أخبار الأمم الماضية والأحداث فى فترة النبوة والخلافة الراشدة ، وكانت حركة نشيطة . فالرسول صلى الله عليه وسلم قد كتب الى أمرائه وقادة سراياه من الصحابة وبلغ عدد كتابه ما يزيد على الثلاثين — حسب تقدير المصادر العربية — ومن أبرزهم الصديق والفاروق وعثمان بن عفان رضى الله عنهم ، كما كتب له على بن أبى طالب وخالد بن سعيد ، وشرحبيل بن حسنة ، ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم .

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم جيرانه ، وتحفظ المصادر مراسلاته مع أهل نجـران ، وكان معظمها بخط على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، كذلك كتب الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى الملوك والحكام والأمراء يدعوهم الى الاسلام وأرسـل اليهم شعراءه ومبعوثيه برسـائل مكتوبة ، فأرسل عمر بن أمية الضمرى الى نجاشى الحبشة ، وعبد الله بن حذافة الى كسرى فارس ، ودحية الكلبى الى هرقل امبراطور الروم ، كما أرسل حاطب ابن أبى بلتعة الى المقوقس حاكم مصر من قبل البيزنطيين ، وسليط بن عمر الى هوذة بن على ملك اليمامة ، والعلاء بن الحضرى الى منذر بن ساوى ملك البحرين .

كما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم العهود ، ومنها عهـده الى أهل اليمن الذى وجهه مع عمرو بن حزم ، وصلح الحديبية الذى أملاه على

على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، كما كتب لتميم الدارى وأخوته بالشام . وتذكر المصادر التاريخية أن الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت كانا يكتبان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أموال الصدقات ، وأن حذيفة بن اليمان كان يكتب له خرص النخيل ، وان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير كانا يكتبان له المدانيات والمعاملات .

وفى عصر الخلفاء الراشدين كتب عثمان بن عفان وزير بن ثابت لأبى‌بكر الصديق ، وكتب للفاروق رضى الله عنه زيد بن ثابت وعبدالله ابن خلف ، كما كتب مروان بن الحكم لعثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكتب لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه عبدالله بن رافع ، وسعيد بن نجران الهمذانى كما كتب للحسين بن على كاتب أبيه .

وقد نبعت هذه الحركة من شعور الخلفاء بالحاجة الى تعرف أخبار الملوك فى الأمم الأخرى وسياستهم بعد اتساع الدولة الاسلامية وفتوحاتها ، ويروى المسعودى أن معاوية بن أبى سفيان كان يستمر الى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وبالتالى فقد ازدادت أهمية الكتابة بازدياد فتوحات الدولة الأموية ، وتعددت مراسلاتها ، وظهرت وظيفة الكتابة بشكل أوضح ، وكان ديوان الخليفة يتولى التوقيع على القصص ويصدر الأحكام ، وكان الكاتب ينفذ ما يصدره الخليفة اليه .

تعاونت هذه الحركات واعتمد أصحاب المذاهب الدينية فى تعاليمهم فيما بعد على الفلسفة ، وتعاليم الكتب ، واستعان المفسرون والمحدثون والفقهاء بالشعر والأدب لتفهم معانى القرآن الكريم والحديث ، واستمد المؤرخون أهم معلوماتهم من القرآن الكريم والحديث ، وفى عصر التابعين ومن بعدهم قويت الحركة العلمية بسبب الفتوحات الاسلامية المتعاقبة ودخول الأمم المتحضرة فى الاسلام والحاجة الى تشريع واسع يساير الأحداث ، فكثر التدوين وتطورت الكتابة بشكل واسع فى العصر العباسى وكان ديوان الرسائل يضاف الى الوزارة أحيانا ، فكان الوزير هو الذى يتولى أحوال الديوان ـ الذى أطلق عليه ديوان الانشاء ـ ويصرف أموره بنفسه ، وأحيانا كانت ادارته توكل الى كاتب يختص به ويعتمد على ما يرد اليه من ديوان الوزارة ، وظلت الكتابة فى بغداد تستأثر باهتمام الخلفاء العباسيين الى أن بطل رسمها بسقوط العاصمة العباسية أمام جيوش المغول عام ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م .

ومن خلال الاعتبارات الأساسية السابقة سارت حركة التاريخ الاسلامى فى فتوحاتها ونشر الاسلام ثم تأثيره المتعاظم فى قارة آسيا ، والسؤال الذى يفرض نفسه الآن ؟

ماذا عن قوة التاريخ الاسلامى الحديث ؟

الواقع ان جهود المؤرخين والباحثين المسلمين المحدثين تجاه التاريخ الاسلامى الحديث قد اطردت منذ أول هذا القرن الذى أوشك على الانصرام• ولأن اتصال هذه الجهود قد استوثقت واشتدت على صعيد المنهج المتكامل فى العلوم الاجتماعية الذى ذاع صيته فى الفترة الأخيرة حيث اجتهد الباحثون فى التخصصات المتعددة فى العلوم الانسانية Multdiscipline فى تفسير ظاهرة هذه الاشراقة الاسلامية التى امتدت لتشمل ، ليس العالم الاسلامى فقط ، وانما قوة الاسلام المتدفقة قد أثرت فى القوى العظمى والسياسات العالمية حيث تعمق الباحثون الغربيون - هم الآخرون - فى مناهج بحث الدراسات الاسلامية ودراسة حركة التاريخ الاسلامى دراسة صحيحة مستقيمة المنهج •

على هذا النحو من الاستعداد أقبلت - خلال السنوات الماضية خلال فترة ابتعاثى الى بريطانيا ثم عملى بالمملكة العربية السعودية وجمهورية باكستان ، أقبلت على دراسة تاريخ العلاقات السياسية بين المسلمين حيث اشتركت فى المساهمة فى العديد من المؤتمرات وحلقات البحث فى الجامعات البريطانية والسعودية والباكستانية ولدى الأوساط العلمية للمجاهدين الأفغان فى باكستان فى محاولة للكتابة فى العلاقات السياسية الاسلامية منذ العصور الوسطى بروح جديدة ، وجادة ومخلصة رغم صعوبة الخوض فى هذه التجربة ومشقاتها وعقباتها حيث سبقنى كثير من علماء الأمة الاسلامية ومؤرخيها المخلصين • ولعل فى مواجهة هذه الصعوبات ومحاولة تذليلها والقدرة على اجتيازها لذة دفعتنى الى العمل وحثتنى على المضى فيه من خلال تشجيع زملاء لى فى أقسام التاريخ والعلوم السياسية بالجامعات العربية والأوروبية وكان تشجيعهم لى حافزا من مفهوم مفاده أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة ، وانما حقائقه لها معناها ، وقيمها خاصة اذا كان الانسان لا يبغى الا الحق بهدف الوصول الى الحقيقة التاريخية واضحة جلية والتى كانت دائما هدفا للباحثين والمؤرخين فى عصور التاريخ المختلفة •

كانت القاعدة التى اعتمدت عليها فى منهجية هذا الكتاب هو أن يلم دارسو العلوم السياسية والعلاقات الدولية بتطور تاريخ العلاقات السياسية الاسلامية والى أى مدى انعكست أحوال المسلمين الداخلية على العلاقات الخارجية ، وهذا بالطبع الى جانب ما وجدته من استعداد طلاب أقسام التاريخ فى الجامعات العربية وتفتح نفوسهم لهذا النوع من الدراسة ، ومع ذلك فقد تم عرض المادة العلمية بأسلوب يكون فى متناول القارىء العربى من خلال تحليل وتطور العلاقات السياسية الاسلامية ومحاولة ارجاعها الى عناصرها المكونة لها رغم تداخل وامتزاج هذه العناصر ببعضها البعض حيث قوة الاسلام المؤثرة فى العناصر المختلفة التى اعتنقت هذا الدين الحنيف ، وما صاحب وأعقب ذلك من ظهور الفرق الاسلامية وتأثيرها - ان سلبا أو ايجابا - على علاقات المسلمين بكافة عناصرهم المتشعبة والمتشابكة .

ولا يزال هذا النوع من الدراسة فى حاجة الى العناية والتحليل الدقيق من جانب الباحثين المحدثين ، وان الأمانة العلمية تقتضى القول أن مؤرخى المسلمين الأول قد نهضوا بهذا العبء الضخم وقاموا به على أحسن ما يكون ، بالمثل فعل أساتذتنا وزملاؤنا المحدثون والمعاصرون . جزاهم الله جميعا خير الجزاء لجهودهم الرائدة فى اعادة كتابة التاريخ الاسلامى وتخليصه وتنقيته من الشوائب التى علق بها .

وأيا كان الأمر فاننى أقدم الى أبنائنا الطلاب هذا الكتاب الذى لا يقصد الا العلم وحيث يصبح حاضرنا غدا تاريخا لأبنائنا وبما يستلزمه ذلك من تلقينهم أن لا يقعوا ضحايا الحاقدين على الاسلام ويفسر هذا الصعوبات والجهود المبذولة لخدمة أهداف الدراسة ، لكن سعة هذه الدراسة قد فرضت - على حد القول المأثور - أن أسرع الخطا وفى القلب حسرة ، وفى النفس حرقة واشتياق لمزيد من التعمق ومزيد أطول من المعايشة لقضايا العلاقات السياسية الاسلامية المعاصرة .

* * *

وقد تم تقسيم هذه الدراسة الى ثلاثة أبواب . تناول الباب الأول عصر النبوة والخلافة الراشدة وكيف شكلت الفتوحات الاسلامية نصرا مؤزرا للاسلام ، وعالج الباب الثانى الفتوحات الاسلامية فى عصر الدولة الأموية وما نتج عنها - بصفة خاصة - من فتح بلاد السند والبنجاب ودور الفاتح العربى محمد بن القاسم الثقفى ، وتناول الباب الثالث عصر

الدولة العباسية بما شمله من أسس هـــذه الدولة وكيف انعكست الفتن الداخية على أوضاعها الخارجية وصولا الى عصرى الانحلال الأول والثـــانى ثم سقوط الدولة وظهور دويلات جديدة والغزو الصليبى ٠

وفى الختام تجب الاشارة الى ما يمكن أن تؤول اليه هذه الدراسة من تأصيل مستلزمات تطور العلاقات السياسية الاسلامية وصــولا الى عصرنا الحاضر لمواصلة الجهود الرائدة من علماء المسلمين لتحقيق عناصر الالتـــزام بالاسلام المتكامل فى العلاقات السياسية الدولية المعــاصرة ، وتأسيسا على ذلــك يدعو الباحث الى وقفة للتــأمل المنشود ، لحظة عمل اسلامية للمرحلة القادمة آملا أن يسد الكتاب نقصا فى المكتبة العربية ويفيــد قطاع المثقفين من طلاب ودارسين وباحثين مستشهدا بالحديث النبــوى الشريف : « من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد » ٠

دكتور محمد نصر مهنا

الباب الأول
عصر النبوة والخلافة الراشدة

الفصل الأول : عصر النبوة : من العهد المكي الى العهد المدني

الفصل الثاني : عصر أبي بكر الصديق ١٠ ـ ١٣هـ

الفصل الثالث : عصر عمر بن الخطاب ١٣ ـ ٢٣هـ

الفصل الرابع : عصر عثمان بن عفان ٢٣ ـ ٣٥هـ

الفصل الخامس : عصر علي بن أبي طالب ٣٥ ـ ٤٠هـ



الفصل الأول

عصـــــر النــــبوة

- من العهد المكى الى العهد النبوى
- أسس الدولة الاسلامية
- الردة وحروبها

ـ من العهد المكي الى العهد المدني :

جاءت الرسالة المحمدية تعميما لأهل الكون كله تحت راية واحـــدة هى راية الدين الاسلامى الحنيف ، الذى هو استكمال للنبوات السماوية ، وتقويم لما تم تحريفه من ديانات السماء التى أوحاها الله سبحانه وتعالى الى رسله ، قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والـذى أوحينا اليـك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب » ٠

ان المبادىء التى جاء بها الرسـول صلى الله عليـه وسلم هى ايجـاد مجتمع فاضل ، منظم ، ليس فيه بدع يقوم على الدين الاسلامى الذى حددت أركانه الخمسة فى شهـادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسـول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام ، وهناك قاعدة أساسية يقوم عليها بنيانه فى قوله تعالى : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قل آمنـا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحـد منهم ونحن له مسلمون » ٠

ان الاعتقـاد بوجود الله سبحانه وتعـالى ، وحـده ، لا شريك لـه ، ولا صاحبة ، ولا ولـد ، يحيى ويميت ، قادر ، قوى ، حكيم فى أفعـاله ، عادل فى قضائه ٠٠ هذ االاعتقاد هو أحد المبادىء الاسلامية العـامة الى جانب وجوب تحكيم العقل ودراسة الكون والتفكر فى آثاره سبحانه وتعالى للوصول الى الايمان الصحيح واذا تعارض العقل والنقل[1] أخذ بما يدل عليه العقل ، وأن لا سلطان على مسلم الا سلطان الله والعقل الصحيح والعلم الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسلم عبد الله فقط ، حر من كل عبودية سوى العبودية لله سبحانه وتعالى ، وان العمل واجب لكل قادر عليه ، وان عبادات الاسلام كلها تتفق مع ما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى

---

(١) عبد العزيز جاويش ، الاسلام دين الفطرة ، ص ٥٣ ٠ وراجع الشيخ محمد عبده ، رسالة التوحيد ص ١٧٤ ـ ١٩٤ ٠

وسمو وجوده عن الأشباه والنظائر ، ويجب على المسلم تدارس القرآن الكريم وطلب العلم من دينى ودنيوى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعمل الخير والاحسان ، فالمسلم محاسب على أعماله كلها ان خيرا أو شرا ، وأنه مبعوث بعد موته لهذا الحساب ، وأن القرآن الكريم هو كتاب الاسلام فيه قواعده ، وتعاليمه وهى قواعد تتعلق بالعبادات والمعاملات والتشريع والأخلاق والواجبات ، انها قواعد كلية وأصول أولية ، ويجب على المسلم اتباع ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ، وكل ما أقرته الفطرة السليمة والعقل الصحيح والقلب السليم هو من الاسلام ، الذى يحث على القصد والاعتدال ، وما أجمع الناس على استحسانه وتعارفوا عليه هو حسن عند الشرع ، وأنه لا اكراه فى الدين فقد قال سبحانه وتعالى : « لست عليهم بمسيطر » ، وان الجهاد واجب على المسلم وكذلك الاعداد لكل ما يحتاج اليه من عدد وعدة ٠٠ « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ٠

لقد بدأ جهاد النبى صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله منذ تبليغه بالرسالة ودعا الناس الى دين الله ، دين الاسلام ، ولم يزد معارضة المشركين له الا تمسكا بدينه ، وصمودا ، وأخذ ينشر هذا الدين الالهى بين أقرب الناس[٢] اليه ٠ وكانت الدعوة فى بداية أمرها سرية ، ثم تطورت بعد ثلاثة أعوام من بدء الوحى حيث نزلت الآية الكريمة : « فاصدع بما تؤمر ، واعرض عن المشركين » سورة الحجر آية ٩٤ ، ثم اتخذت مظهر الجهرية ، وبدأ صلى الله عليه وسلم بعشيرته ، غير أن قريشا أخذت ترسل اليه - صلى الله عليه وسلم - لاقناعه بالرجوع عن هذه الدعوة ، بل ان تعنت قريش ازداد للرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان موقفها من أتباعه وأصحابه أشد عنفا ، ومر المسلمون بفترة قاسية من المعاناة الشديدة وتعذيب هائل ، لكنهم تحملوا العذاب فى سبيل الله ، بل وازداد عددهم وزادوا تمسكا بدينهم ٠

---

(٢) كانت السيدة خديجة رضى الله عنها أول من آمن بالله ، ومن الرجال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم من الصبيان على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وزيد بن حارثة ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وابن عبيدة عامر بن الجراح ، كما أسلم الأرقم بن أبى الأرقم الذى اتخذت داره مركزا لنشر الدعوة الاسلامية ، راجع : أحمد بن بليك المحسنى (ت ٧٥٣) ، الجوهر الثمين فى سيرة الأمين ، معهد المخطوطات ، القاهرة ص ٨ - ١١ ٠

وكان خروج الرســول الكريم الى الطائف ليجد مخرجا وأنصارا من قبيلة ثقيف ــ أهم قبائل العرب فى قريش ــ لكنه صلى الله عليه وســلم تعـرض لسب السفهاء وقذفه بالحجارة حتى لجأ الى حديقة ، وجلس صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة واتجه الى الله سبحانه وتعالى ــ بعد أن اشتد به الكرب والبلاء ــ داعيا : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، أنت أرحم الـراحمين ، أنت رب المستضعفين ، أنت ربى ، الى من تكلنى ؟ الى بغيض يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيـا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى (الرضا) حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك(٣) » ٠

عاد الرسول صلى الله عليه وسلم الى مكة وقلبه مفعم بالخوف ، لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يطمئنه بمشاهدة آياته ، فكان الاسراء الى بيت المقدس ثم العروج الى السماوات العلا ، ولقى من لقى من الآنبياء ، وأعطت حادثة الاسراء والمعراج للرسول قوة ، واستمر فى الدعوة الى الاســلام ، وأخذ يكرر لقاءاته مع القبائل العربية فى مواسم الحج ويتلو عليهم القرآن الكريم ، وفى أحد المواسم ، لقى الرسول صلى الله عليــه وسلم أفرادا من الخزرج فدعاهم الى الاسلام ، فاستجابوا ، وعادوا الى المدينة ، وأخــذوا يدعون الى الاسلام حتى انتشر فيها ، ولم تبق دار من دور الأنصار الا وفيها ذكر النبى عليه الصلاة والسلام ، وفى العام التالى سنة (هـ   م) قدم رجال من الخزرج وبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم عنـد العقبة ، وتعرف هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى ، وبعث معهم الرسول عليه الصلاة والسلام مصعب بن عمير ليعلم القـرآن الكريم لمسلمى الخزرج ، ولما ازداد عددهم اشتد أذى قريش لهم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة الى المدينة ، ولم يبق فى مكة من المسلمين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أبوبكر وعلى بن أبى طالب ، وكان الرسول ينتظر أن يؤذن له بالهجرة الى يثرب ٠

---

(٣) ابن اسحق : أبو عبد الله محمد بن يسار المطلبى ت ١٥١ هـ ، سيرة النبى ــ هذبها ابن هشام بن أيوب الحميرى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الاتحـــاد العربى للطباعة ٠

وكان اليهود يعيشـــون بجوار المسـلمين فى يثرب وهم يهـــود بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع ، وكان هؤلاء اليهود أعداء للأوس والخزرج (الانصار) قبل دخولهم الاسلام[٤] ، وعندما وصل الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة ، وانتشر الإسلام ، ازدادت عداوة اليهود للمسلمين ، وكان من سياسته صلى الله عليه وسلم أن يبدأ هؤلاء اليهود بالمحبة والمودة ، ويبسط لهم يد الأخوة ، وكتب صلى الله عليه وسلم صحيفة أوضح فيهـا واجبات كل من المسلمين واليهود وحقوقهم ، وجاء في هذه الصحيفة : « وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، الا من ظلم ، وأثم بينهم فانه لا يوتغ (لا يهلك) الا نفسه وأهل بيته ، وان على اليهود نفقتهم ، وعلى المسـلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة ، والبـر دون الاثم ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فسـاده ، فان مرده الى الله والى محمـد رســول الله وان بينهم النصر على من دهم يثرب ، وان من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، الا من ظلم وأثم وان الله جار لمن بر واتقى[٥] » .

ويستفاد من هذه هـذه الوثيقة أن الرســول صلى الله عليـه وسلم قد عامل اليهود معاملة حسنة ، وحاول اقامة المودة بينهم وبين المسلمين .

---

(٤) راجع : الدكتور احمد فاعور ، الدكتور شحاته الناطور ، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية العرو المنولى ، مطبعة الخالدى ، عمان ١٩٨٢ ص ٣٤ ـ ٤٧ .

(٥) ابن اسحق : أبو عبد الله محمد بن يسار المطلبى المتوفى سنة ١٥٢ هـ ، ســيرة النبى ، هذبها ابن هشام بن أيوب الحميرى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميـد ، دار الاتحاد العربى للطباعة ـ الجزء الثانى ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

- أسس الدولة الاسلامية :

وضع الرسول صلى الله عليه وسلم أسس الدولة الاسلامية عندما هاجر الى المدينة ، وأخذ يعمل جاهدا على نشر الاسلام ، فقد أمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بقتال المشركين ، وقد أذن الله لرسوله وللمؤمنين بأن يقاتلوا فى سبيل الله ، « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، بيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز(٦) ... » .

لقد أذن الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم بمقاتلة الكفار للدفاع عن النفس ، وحماية الدين الاسلامى ، ونشره فى الجزيرة العربية والبلاد المجاورة ، ومن أجل ذلك قام الرسول والمسلمون بغزوات عديدة لمواجهة قريش والقبائل العربية فى شبه جزيرة العرب وأشهر هذه الغزوات(٧) : غزوة بدر الكبرى (سنة ٢ هـ/٦٢٤ م) ، وغزوة أحد (سنة ٢ هـ/ ٦٢٥ م) ، وغزوة بنى النضير وغزوة الأحزاب (الخندق) (سنة ٥ هـ/ ٦٢٧ م) التى أعقبها صلح الحديبية سنة ٦ هـ/٦٢٨ م حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم سياسيا ، بعيد النظر فى عقد هذا الصلح مع قريش اذ أنه أمن جانبهم عشر سنوات أخذ فى أثنائها ينشر الدعوة الاسلامية فى بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية ، وكان صلى الله عليه وسلم مدركا تماما لمغزى هذا الصلح حيث اتجه لنشر الاسلام بين القبائل الأخرى تاركا قريش جانبا بعد ما أشعرها بقوة المسلمين ومقدرتهم العسكرية .

ولم تبدأ علاقات المسلمين السياسية مع الروم والفرس ومن تحتهم من الحبشة والغساسنة وأهل البحرين وعمان واليمن والبحرين ونجران وحضرموت وغيرها الا بعد صلح الحديبية حيث أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم وفودا الى ملوك العرب والعجم لدعوتهم الى الاسلام ، فبعث

---

(٦) سورة الحج (الآيات ٣٩ - ٤١) .

(٧) لمزيد من التفصيل ، راجع . الدكتور احمد قاعور . الدكتور شحاته الناطور ، مرجع سابق ، ص ٤٧ - ٦٣ .

سليط بن عمرو بن عبــد شمس بن ود الى هوذه بن على صاحب اليمامة ، وبعث العــلاء بن الحضرمى الى المنــذر بن ساوى صــاحب البحـرين ، وعمرو بن العاص الى جيفر بن جلندى صاحب عثمان ، وبعث حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس صاحب الاسكندرية ، وبعث دحية بن خليفة الكلبى الى قيصر ملك الــروم هرقل ، فوصل الى بصرى ، وبعثه صـــاحب بصرى الى هرقل ، فقرأ الكتاب وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رســول الله الى هرقل عظيم الروم ، السلام على من اتبع الهــدى ، أما بعد أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » ، فطلب هرقل من فى مملكته من قوم النبى عليه الصلاة والسلام ، فأحضروا من غزة ، وكان فيهم أبو سفيان فسأله ، فأجابه ، فعرف صحة أمره ، وعرض على الروم أتباعه ، ولكنه عندما رأى معارضتهم ، لاطفهم بالقول(٨) ٠

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب الأســدى الى الحرث بن شمر الغسانى صاحب دمشق وكتب معه : « السلام على من اتبع الهدى ، وآمن به ، أدعوك الى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى لك ملكك » ، فلما قرأ صــاحب دمشق الكتاب ، قال : « من ينزع ملكى ، أنا سائر اليه » ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « باد ملكه » ٠

وكتب رســـول الله صلى الله عليــه وسلم الى كسرى وبعث بالكتاب عبــد الله بن حذافة السهمى وفيه : « بسم الله الرحمن الــرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ، ورسوله ، أما بعد فانى رسول الله الى الناس كافة لينــذر من كان حيا ، أسلم تســلم ، فان أبيت فعليك اثم المجوس » ، ويذكر الطبرى أن كسرى مزق كتــاب النبى صلى الله عليـــه وسلم استكبارا فمزق الله ملكه وأدبر وهلك ، وقد ضمن أحد المؤرخين المسلمين وثائق النبى ومعــاهدات الدعوة الاسلامية وتجديد المعاهدات القديمة وذكر عهود تولية العمــال وواجباتهم ، الحيدر آبادى ، الوثائق السياسية صص٨ ــ ٩ نقلا عن مخطوط السيرة النبوية لمحمد بن جدير الطبرى) (الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢

---

(٨) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، جـ ٢ ص ٦٤٩ ٠

(٩) كما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشى وكتب اليــه كتابا كان من نتيجته اسلامه ، راجع ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ص ٣٦ ــ ٣٧ ٠

ص ٦٥٤) ، وهكذا أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم ينشر الاسلام فى بقية أجزاء الجزيرة العربية .

وقد توالت غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم فى الفترة (٦ - ٩هـ) (٦٢٨ - ٦٣١م) فكانت غزوة خيبر ، وغزوة مؤتة . وتم فتح مكة سنة ٧هـ - ٦٣٠م والذى جاء أكبر انتصار فى انتشار الاسلام حيث جذب استيلاء الرسول على الكعبة كثيرا من القبائل العربية للاسلام ، وأخضع الرسول صلى الله عليه وسلم ما تبقى من بدو نجران وعمان وغيرهما ، ثم جاءت غزوة تبوك (٩هـ - ٦٣١م) حيث اجتمعت على حدود فلسطين قبائل عديدة من الروم لقتال المسلمين ، فخرج اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه ، ولما وصل الى تبوك أقام بها أياما ، فصالحه أهلها ، وجاءت الوفود من أيله وغيرها ، وصالحوه على دفع الجزية ، كما بعث خالد بن الوليد الى دومة الجندل ففتحها ، وعاد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك الى المدينة ، وقد وفدت الى المدينة وفود كثيرة ، وعاد الرسول صلى اللهعليه وسلم بعد ذلك الى المدينة ، وكانت غزوة تبوك هى آخر الغزوات النبوية ، وقد وفدت الى المدينة وفود كثيرة من أنحاء الجزيرة العربية ، فسمى هذا العام بعام الوفود ، ونزلت الآية الكريمة : « اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا » (سورة النصر) .

لقد وحد الاسلام بين القبائل العربية ، وجعلها أمة واحدة ، متجانسة ، قوية ، انطلقت تنشر الاسلام فى كل مكان ، حتى امتدت الدولة الاسلامية الى جميع البلاد المجاورة فى آسيا وافريقيا ، واضعا قواعد للروابط البشرية فلم يحدث اكراه على دخول الاسلام ، وانما ترك للناس حرية العقيدة والمذاهب وخاصة النصارى واليهود والذين عرفوا بأهل الذمة حيث أوضح الاسلام معاملتهم وما عليهم من حقوق وواجبات وهو ما يستدل عليه من الوثيقة المدنية التى أذاعها الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة فور استقراره فيها والتى تعتبر بمثابة القانون الأساسى للدولة الاسلامية الجديدة ، وقد نصت هذه الوثيقة التى تعتبر من أقدم الوثائق السياسية العريقة ان لم تكن أقدمها ، نصت على أن لا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، وان من تبع الاسلام من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرينعليهم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، للمسلمين دينهم ، وان

ليهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى الأوس وبنى ثعلبهم ·· لهم جميعـا ما ليهـود بنى عوف الا من ظلم وأثم فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته ··· وان يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثـل ما لأهل هذه الصحيفة مع أبر المحض من أهل هـذه الصحيفة · وان البر دون الاثم ، لا يكسب كاسب الا على نفسه ·

ويستدل من هذه الوثيقة بساطتها وقصر جملها ، ولم تنص كسائر الوثائق النبوية أو أكثرها على اسم كاتبها أو شهودها ، كما أنها لم تنص على تاريخ كتابتها · وتذكر المصادر(١٠) أن الامام أبا داود يرجع أن هذه الصحيفة قد كتبت بعد وقعة بدر الكبرى حيث قوة النبى صلى الله عليـه وسلم ومواقفه من اليهود الأقوياء ، وان الرسول أراد أن يحول دونهم ودون نشاطهم ضده أو معاونتهم عدوه عليه ، وقد اعتبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم داخلون فيما دخل فيه أحلافهم من الأوس والخزرج ، فاليهود والمحالفون للأوس ومواليهم ، واليهود المحالفون لبنى عوف هم داخلون معهم ، وكذلك اليهود المحالفون لبنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعده وبنى جشم وبنى الأوس وبنى ثعلبة وكذلك بنو الشطيبة ، وكذلك اليهود خارج المدينة ، فانهم داخلون معهم ، وان كل هؤلاء اليهود ممن اتبع الاســلام دخل فى حلفهم ، لهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم(١١) ، وانهم ينفقون مع المؤمنين فيما يجب على المؤمن انفاقه ، ما داموا محاربين(١٢) · وان على اليهود نفقتهم ، وعلى المسـلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب أهل الصحيفة وان بينهم النصر والبر دون الاثم(١٣) ·

---

(١٠) الدكتور محمد سعد طلس ، تاريخ العرب جـ ١ ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ص ٧٧ — ٨٥ ·

(١١) المـادة (٥١) وراجع نصوص الوثيقة المدنة فى : المرجع السابق ص ٧٧ ــ ٨٥ ·

(١٢) المـادة (٢٤) فى المرجع نفسه ص ٨٤ ·

(١٣) المـادة (٣٨) فى المرجع نفسه ص ٨٤ ·

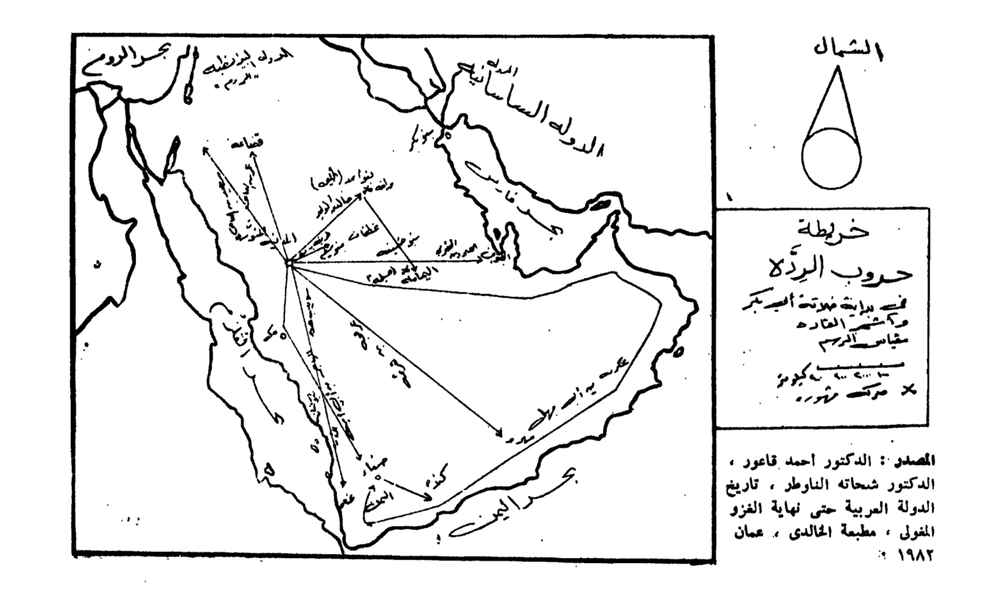
ـ الردة وحروبها :

منى الاسلام بفتنة عظمى بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكادت المصيبة تفتك بالاسلام لولا دور أبوبكر الصديق فى زعامة المسلمين وتمكنه من اخماد فتنة الردة ، فقد كثر المرتدون عن الاسلام عندما بلغ الاعراب نبأ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتحركت النزعات الفـردية والعصبيات الاقليمية التى كانت سمات بارزة وطابع العرب ، كما أن القبـائل التى أعلنت اسلامها من قبل فى اليمن ، واليمامة ، وعمان قد تهاونت فى مسالة دفع الزكاة ، واعتبرتها أتاوة كانت تدفع للرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما انتقل الى جوار ربه صاروا فى حل من دفعها الى خليفته ، غير أن هناك من يخالف هذا الرأى[١٤] حيث انقسم المرتدون عن الاسلام الى قسمين ، قسما خرج عن الاسلام وهم بنو طى ، وغطفان ، وأسد جماعة المتنبى طلحة ابن خويلد الأسدى ، وحنيفة جماعة مسيلمة الكذاب ، وأهل اليمن الذين تزعمهم الأسود العنسى ، أما القسم الثـانى من المرتدين فقـد ظلوا على اسلامهم ولكنهم لم يدفعوا الزكاة ، وقد اختلف بعض الصحابة مع أبى بكر فى وجوب قتال القسم الثـانى كالقسم الأول ، فقال أبوبكر الصـديق : « والله لأقاتلن هؤلاء كما أقاتلن أولئك ، لأن تعطيل الزكاة كتعطيل الصلاة وسائر شعائر الاسلام » ، قال عمر : وكيف تقاتلهم وقد قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرت أن أقاتل النـاس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا فى مالهم وأنفسهم . فقال أبوبكر : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعونى عناقا أو عقال بعير كانوا ليؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم على مثلها ، وقال عمر : فوالله ما هو الا أن رأيت أن قد شرح الله صدرى لما قال أبوبكر فعلمت أنه الحق ، ثم ان أبابكر شمر لقتال هؤلاء المرتدين والقضاء على هذه السلطة .

بل ان أبابكر الصديق قد واجه مشكلة من ادعى النبوة ، حيث بدأت هذه الظاهرة فى أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قويت بعـد وفاته ، وكان من أشد أولئك المتنبئين خطرا مسيلمة بن حبيب بن حنيفة

---

(١٤) قارن : دكتور أحمد قاعور ، دكتور شحاده الناطور ، مرجع سابق ص ٧٢ ، دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، الجزء الثالث ، ص ٢٠ ، دكتور ابراهيم بيضون ، تكون الاتجاهات السياسية فى الاسلام الأول ، دار اقرأ ، بيروت ١٩٨٥ ص ٣٥ ــ ٨٢ .



المصدر : الدكتور احمد قاعور ، الدكتور شحاته الناوطر ، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولى ، مطبعة الخالدى ، عمان ١٩٨٢ ؛

الذى أسلم ثم ارتد وادعى النبوة ، وكتب الى النبى صلى الله عليه وسلم يقول أنه قد أوحى اليه ، وأن جبريل نزل عليهم بخبره بأن الله قد قاسمه النبوة مع محمد ، وشاطره الملك والسيادة فى جزيرة العرب ، وقد أطلق عليه الرسول صلى الله عليه وسلم اسم مسيلمة الكذاب وكتب اليه كتابا نصه : « من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فان الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ، غير أن مسيلمة استمر فى ضلاله .

ومن الذين ادعوا النبوة أيضا خبر الأسود العنسى الملقب بذى الحمار ، الذى أسلم ثم ارتد عن الاسلام فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم ادعى النبوة واستهوى بضلالاته نفرا من عوام العرب فتملك أكثر جنوبى بلاد العرب ، وبلغت أخباره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب الى من بقى على الاسلام من أهل اليمن يأمرهم بمحاربته .

كما ادعى النبوة أيضا خبر طليحة بن خويلد الأسدى وتبعه بعض العرب واليهود فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم الذى بعث اليه بضرار ابن الأزور لمقاتلته والقضاء على فتنته .

وقد استجاب المسلمون الى رأى أبى‌بكر الصديق بشأن مقاتلة هؤلاء المرتدين ، وتكون أحد عشر جيشا قاد كل منها أبرز أبطال المسلمين مثل خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل ، وشرحبيل بن حسنة وغيرهم(١٥) .

أما المعركة الحاسمة التى أعادت الاستقرار فى شبه الجزيرة فكانت معركة « عقرباء » فى طرف اليمامة ضد مسيلمة الكذاب ، حيث كان خالد ابن الوليد قائد هذه المعركة وخاض أعنف قتال أنهى به على أسطورة مسيلمة وتراجعت القبائل المرتدة واستسلمت ، وقد أظهرت هذه المعركة المهارة العسكرية لخالد بن الوليد والذى كان ثمة مهمة أخرى لا تزال بانتظاره ، وهى القضاء على حركة البحرين(١٦) وانقاذ أحد القادة المسلمين

---

(١٥) القلقشندى ، نهاية الأرب فى معرفة انسا بالعرب ، تحقيق ابراهيم الابسارى ص ٦٨ ـ ٧٠ ، ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

(١٦) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الثالث ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

الذى حوصر فى حاضرتها هجر ، فلم يكد خالد يصــل الى البحرين حتى سقطت بالقليل من الجهد وكانت هذه المعركة آخر مهمات خالد بن الوليد فى شبه الجزيرة ، فى وقت كادت ثورة القبائل أن تنتهى ، فتوجه خــــالد صوب العراق ليعلن بدء الأعمال العسكرية الموسعة وراء الحــدود استجابة لأوامر أبى بكر الصــــديق الذى نجح فى قمع حركة القبــائل وهو ما كان بمثابة انتصار مؤزر للعقيدة الاسلامية التى شكلت أحد أهم الحوافز لاندفاع المسلمين بكل ثقة وراء حدود شبه الجزيرة ٠

الفصل الثاني

عصر أبوبكر الصديق

١٠ - ١٣هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤م

- فتح العراق وفارس
- الدروس المستفادة
- فتوح الشام

عصر ابوبكر الصديق (١٠ - ١٣هـ) (٦٣٢ - ٦٣٤م)

فتح العراق وفارس :

عزم أبوبكر الصديق على تكملة ما بدأه النبى الكريم صلى الله عليه وسلم بشأن نشر الاسلام وذلك بعد أن تم له القضاء على فتنة الردة . وكانت مملكتا الفرس والروم أعظم الممالك المجاورة للعرب فى آسيا ، وقد سبقت الاشارة أن كسرى امبراطور الفرس عندما تلقى كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم قام بتمزيقه استكبارا ، وبعث الى عامله باليمن كى يرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين قويين يأتيان به ، فتوجها اليه ، ولما دخلا المدينة ، وكلمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعاهما الى الاسلام ، وأوضح لهما العاقبة الوخيمة لظلم كسرى وطغيانه فى الأرض وقد أسلم الرجلان من صدق[1] قول الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أسلم حاكم اليمن ، وكانت اليمن أول بلاد خاضعة للفرس دخلت تحت لواء الاسلام ، ثم تبعتها بلاد البحرين وبلاد عمان ، وكانت هذه البلاد تحت حكم الفرس .

وقد كلف أبوبكر الصديق خالد بن الوليد ليضع نواة الحجر الأساسى للبناء الاسلامى فى بلاد العراق وديار فارس ويرفع راية الاسلام فى هذه الديار العريقة فى الحضارة والعلم والتى أمعنت فى الوثنية والجهالة فى نفس الوقت ، وكتب أبوبكر الصديق الى خالد بن الوليد فى شهر المحرم من السنة الثانية عشرة للهجرة أن يستعد وجيشه للتوجه من اليمامة الى بلاد العراق ، وقد نفذ خالد بن الوليد أوامر الخليفة أبىبكر الصديق ودخل بلاد العرق من أسفلها ، وفى نفس الوقت كتب الصديق الى عياض بن غنم أن يسير الى العراق فيدخلها من أعلاها ، وأيهما يسبق الى الحيرة فهو أمير على صاحبه ، وكانت الحيرة عاصمة عرب الجزيرة ، لكنها كان يسودها النفوذ

---

(١) حيث ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى قد انتقم من كسرى وسلط عليه ابنه شيرويه فقتله ، فلما تولى شيرويه حكم الفرس بعث الى عامله باليمن أن لا يتعرض بأذى للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أسلم باذان فأبقاه الرسول صلى الله عليه وسلم فى امارته .

الأعجمى ، وكان هدف خالد بن الوليد أن يقضى على هذا النفوذ ، كما كتب الصديق الى حرملة والمثنى بن حارثة ومن معهما الانضمام تحت قيادة خالد ابن الوليد ، وكان عدد الجند ثمانية عشر ألفا ، وتمت المواجهة مع الفرس فى عدة معارك .

كانت معركة ذات السلاسل أهم المعارك(٢) التى خاضها خـالد بن الوليد ، وسميت كذلك لأن الفرس ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا من المعركة ، وكان النصر حيف المسلمين لاستبسالهم وثباتهم حيث استولوا على ميناء « الأبله » الذى يقع على الخليج العربى ، وتسلم المسلمون زمـام الأمور فى هذه النواحى ، ويذكر ابن الأثير فى الكامل فى التـاريخ أن الفلاحين المجوس قد عوملوا كالنصارى حيث فرضت عليهم الجزية .

ثم توجه خالد بن الوليد الى الشام تنفيذا لتعليمات الصديق بعد أن ترك نصف جيشه بقيادة المثنى وأخـذ النصف الآخر لمسـاعدة جيوش المسـلمين فى اليرموك على نحـو ما سيتم تفصيله فى موضع لاحـق من الدراسة .

أما الموقعة الثانية فكانت موقعة الجسر التى وقعت فى عهـد الخليفة عمر بن الخطاب الذى أرسل أبا عبيد بن عمر الثقفى ، وكان مع أبى عبيـد (سليط بن قيس الأنصارى) وكتب أمير المؤمنين عمر الى المثنى بن حارثة أن يكون فى طاعة أبى عبيد ، وكان قائد جيش الفرس رستم وهو من أعظم قادة الفرس ، ووقعت هذه المعركة فى السنة الثالثة عشرة للهجرة ، وسميت

---

(٢) راجع تفصيل هده المعارك فى الطبرى حىث أجمل هـذه المعارك فى معركة ذات السلاسل ، ومعركة المذار (الثنى) ، ومعركة الولجة ، وفتح ألىس وأميشيا وفتح الحيرة ، والقصور وفتح السواد وفتح الانبار ثم وقعة عين التمر ومعارك دومة الجندل والحصيد وخنافس والمصيخ والثنى والفراض وسائر الجزيرة وهى تخوم الشـام والعراق ، ولما أتم الله لخالد فوزه جعل على الجيش عاصم بن عمرو ، ومضى للحج حيث أتمه ورجع مسرعا الى الحيرة فتلقى كتابا من الصديق يأمره بالتوجه الى الشام ، وقد أوردنا فى المتن تبسيطا لهذه المعارك عـلى نحو يخدم أهداف هذه الدراسة .

(٣) وقد قتل فى هـذه المعركة كل من أبى عبيد بن عمر الثقفى . وسليط بن قيس الأنصارى ، راجع فى تفصيل ذلك : البلاذرى ، ـ أحمد بن يحيى بن جابر ـ المتوفى سـنة ٢٧٩ هـ ، فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله وعمر الطباخ ١٩٥٧ م ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢ ، وكـذلك

بموقعة الجسر لأن المسلمين عبروا جسرا عنـد الحيرة والتفوا حول جيش(٣) الفرس ·

وفى السنة الخامسة عشرة للهجرة تقابل جيش المسلمين بقيادة جرير ابن عبدالله مع المثنى بن حارثة مع جيش الفرس بقيادة مهـران ، وانتصر المسلمون فى هذه المعركة ، وقتل مهران وكثير ممن معه ·

ولعل معركة القادسية التى وقعت فى السـنة الخامسة عشرة للهجرة أيضا هى من أهم المعارك التى استأثرت باهتمام المؤرخين وهو ما يستدعى وقفة للتفسير · فقد كتب المسلمون فى العراق الى الخليفة عمـر بن الخطاب يعلمونه كثرة من تجمع لهم من أهل فارس ، ويسالونه المدد ، فوجه سعد ابن أبى وقاص الى العـراق ، فأقام فى أماكن عديدة (الثعلبية ـ العذيب وغيرها) وكان المثنى مريضا ، فأشار عليه أن يحارب العدو بين القادسية والعذيب ، وترددت الرسل بين سعد وقائد الفرس رستم لعله يصل الى اتفاق يمنع قيام الحرب بينهما ، ولكن الجهود فشلت ونشبت المعـركة بين الجيشين الاسلامى والفارسى ، وكان جيش المسلمين لا يزيد عن ثمانية آلاف بقيادة سعد بن أبى وقاص ، فى حين تكون جيش الفرس من مائة وعشرين ألف بقيادة رستم ، واستمرت المعركة أياما ثلاثة ، وانتصر المسلمون وقتل رستم وفر عشرات الألوف من جنود الفرس وغنم المسلمون أموالا كثيرة ·

ثم تبع سعد بن أبى وقاص الفرس الى جلواء فى السـنة السادسة عشرة للهجرة ، وأوقع بهم وأسر وقتل عددا كبيرا من الفرس ، وأسلم الكثير من الفرس فأقرهم الخليفة عمر بن الخطاب على ما بأيديهم من البلاد ، وكتب سعد بن أبى وقاص الى الخليفة عمر يهنئه بالنصر المؤزر للمسلمين ، ورد عليه عمر قائلا : « قف مكانك ، واقنع بهذا ، واتخذ للمسلمين دار هجرة ، ومدينة يسكنونها ، ولا تجعل بينى وبينهم بحرا(٤) » ، وقد نفذ سعد بن أبى وقاص أوامر الخليفة عمر واتخذ الكوفة مدينة للمسلمين وأسس بهـا المسجد الجامع ·

وصل سعد بن أبى وقاص الى عاصمة العراق (طيفون) بعد أن توغل داخل البلاد ، وقد أطلق العـرب على العـاصمة اسم « المدائن » وكانوا

---

(٤) الطبرى · تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الرابع ص ١٨٨ ـ ١٩٠ ·

قد حاصروها شهرين ثم استولوا عليها وغنموا منها غنائم كثيرة ، واتخذ سعد بن أبى وقاص من « المدائن » قاعدة للأعمال الحربية فى العراق(٥) .

وأخيرا كانت معركة نهاوند بمثابة آخر محاولة للفرس فى حروبهم مع المسلمين ، ويطلق المؤرخون على هذه المعـــركة « فتح الفتوح » ، حيث استعد الفرس بجيش قوامه مائة ألف مقاتل وقيــدوا جنودهم بالسلاسل خوفا من الفرار ، أما قائد المسلمين النعمان بن مقرن فكان الخليفة عمر بن الخطاب قد ولاه سنة واحد وعشرين هجرية ، وقد استمات الفرس فى القتال غير ان النصر كان حيف المسلمين ، وبعد الاستيلاء على نهاوند سار جيش المسلمين الى الأهواز وفتحهــا سنة اثنين وعشرين للهجـــرة ، ثم فتح قم وقاشان وأصبهان التى أدى أهلها الجزية ، وعقدت « جرجان » صلحا مع المسلمين ، وحذا حاكم طبرستان حذو « جرجان » ، وكان غزو المغـــيرة ابن شعبة والى الكوفة لأذربيجان وفتحهـــا وفرض الخراج عليها ، ثم قام المسلمون بغزو البـــلاد المحيطة بأرمينية وأرمينة وفتحوا معظمها ، ويذكر المؤرخون أن المسلمين غزوا بلاد الترك لكن أقدامهم لم تتوطد فيها . وزالت الدولة الفارسية(٦) سنة واحـد وثلاثين للهجرة بعـــد مصرع امبراطورها يزدجرد فى عهد الخليفة عثمان بن عفان حيث توطدت أقدام المسلمين فى بلاد فارس رغم أحداث التمرد من جانب الفرس والتى قضى عليها تماما والى البصرة عبدالله بن عامر سنة ثلاثين للهجرة ، كما أصدر الخليفة عثمان بن عفان أوامره الى معاوية بن أبى سفيان واليه على الشـــام باستعادة اقليم أرمينية ، وانتصرت جيوش المسلمين على جيوش الروم ، وصولا الى عهـد الخليفة على بن أبى طالب والذى لم تتم فتوح تذكر فى عهده لانشغاله بالفتن الداخلية ، وظلت البلاد المفتوحة على أوضاعها السابقة فى عهـــد الخليفة عثمان بن عفان .

---

(٥) البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

(٦) الطبرى . تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الرابع ص ٢٩١ - ٢٩٤ .

- الدروس المستفادة :

الواقع ان هناك العديد من الدروس المستفادة والمستخلصة من معارك فتح العراق والجهود الرائدة للخلفاء الراشدين والقادة العسكريين الذين رفعوا راية الاسلام في هذا الجزء من قارة آسيا ، ويمكن اجمال هذه الدرروس فيما يأتي وفقا لرؤى العديد من الباحثين :

أولا :

ان أهمية الانتصارات الاسلامية في العراق تأتي من كونها شقت الطريق أمام العرب المسلمين لتثبيت أقدامهم في العراق ، وكانت بلاد العراق بذلك بداية تجارب المسلمين العسكرية العظيمة خارج نطاق شبه جزيرة العرب ٠

ثانيا :

تعتبر فتوح العراق ، فتوحا خاطفة ، فاز بها المسلمون بفضل العزيمة القوية والارادة الصلبة لخالد بن الوليد ، فقد كان يقود الجيوش ، ويتقدمها بنفسه ، ويبارز خصومه ، فيفتك بهم ، ويشتت جموعهم ، وتجدر الاشارة أن كثيرا من العرب كانوا قد زاروا العراق في الجاهلية بهدف التجارة ، وكان العرب المقيمون فيه من بني تغلب ، وبكر ، وربيعة ذوى صلات قوية بعرب نجد والحجاز ، ومع ذلك فلم يقف أهل العراق مع عرب الحجاز ونجد في مواجهة الفرس لأن الفرس تمكنوا من اجتذاب سكان العراق الى جانبهم ، غير أن الحليفين قد انكسرا أمام الفتح الاسلامي الكبير ٠

ثالثا :

كانت الحيرة عاصمة البلاد السابقة تدور في فلك التبعية الفارسية ، وقد كانت الهدف المباشر لخالد بن الوليد حيث بدأ المعركة فور وصوله ، ولعل ما أورده الطبري وابن الأثير من صفات خالد بن الوليد والمعيته العسكرية الفذة خير دليل على انطلاق الاسلام في هذه البلاد بدءا(٧) من

---

(٧) والواقع أنه قد سبق هذه المعركة معارك أخرى منها المذار - أي منعطف النهر - كما يسميه الطبري - أو معركة « الثنى » كما يسميها ابن الأثير ٠

موقعة « اليس » - وهى قرية من قرى الأنبار فى أول العـراق من ناحية البادية - ومرورا بوقعة الولجة - فى أرض كسكر - التى شهدت قتـالا عنيفا - حسب رؤية الطبرى ثم أمغيشيا وأخـيرا « فرات بادقلى » - التى مهدت الطريق الى الحيرة ، حيث سارع زعماؤها الى خالد فصـالحوه على أن يكونوا عيونا للمسلمين على أهل فارس ، وكان اتفـاق « الحيرة » النموذج العام للعلاقات السياسية الاسلامية مع خصـوم المسـلمين ، بل ان هـذا الاتفاق قد تحول الى وثيقة فى الاتفاقيات العسكرية وأسسها بشأن التعامل مع البلاد المفتوحة وشعوبها ، فقد نص كتاب الاتفاق بين خالد بن الوليـد وبين زعماء الحيرة ، « ان خليفة رسول الله أمرنى أن أسير بعد منصرفى من أهل اليمامة الى أهل العراق من العـرب والعجم ، بأن أدعوهم الى الله جل ثناؤه والى رسوله عليه السلام ، وأبشرهم بالجنة ، وأنذرهم من النار ، فن اجابوا فلهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين . وانى انتهيت الى الحيرة ، فخرج الى أياس بن قبيصة الطائى فى أناس من أهل الحيرة ، من رؤسائهم ، وانى دعوتهم الى الله ورسـوله فأبوا أن يجيبوا ، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب ، فقالوا لا حاجة لنا لحربك ، ولكن صالحنا على ما صالحت عليـه من غيرنا من أهل الكتاب فى اعطاء الجزية ... فصالحونى على ستين ألف ، وشرطت عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والانجيل ، أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم ، لا من العرب ، ولا من العجم ، فان هم خالفوا ، فلا ذمة لهم ، ولا أمان ، وان هم حفظوا ذلك ورعوه ، وأدوه الى المسلمين ، فلهم ما للمعاهدة ، وعلينا المنع لهم ، فان فتح الله علينا ، فهم على دينهم بذلك عهـد الله وميثاقه أشـد ما أخذ على نبى من عهـد أو ميثاق ......»[٨] .

رابعا :

انعكست التطورات السياسية فى الخلافة الراشدة ، وخاصة بعد وفاة أبى بكر وبيعة عمر بن الخطاب على القيـادات العسـكرية فى مختلف محاور القتال وخاصة فى العراق ، حيث أمر الخليفة عمر بن الخطاب بعزل القائدين الكبيرين ، المثنى وخالد ، تحت تأثير أسـباب قيل الكثير[٩] فى تعليلها ،

---

(٨) أبو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم المتوفى سنة ١٨٢ هـ ، الخراج . المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٩٦ هـ ص ٨٤ - ٨٦ .

(٩) راجع فى تفصيل ذلك : الازدى ، محمد بن عبد الله الازدى البصرى . المتوفى سـنة

ومن الأرجح صحة الرأى القائل ان العلاقة كانت غير ودية بين الخليفة عمر ابن الخطاب وخالد بن الوليد قبل تولى الأول زمام الخلافة ، حيث يتوقف المؤرخون المحدثون عند قول خالد بن الوليد وقد استاء من قرار نقله الى الشام ـ « هذا عمل عمر نفس على أن يفتح الله على يدى العراق » ـ والمتبع لأسلوب الخليفة الجديد ونهجه فى الحكم ـ كما لاحظ بيضون أن شخصيته القوية طغت على الدولة ، وأن ادارته عملت على تقوية « المؤسسة » على حساب الزعامات السياسية والقبلية ، فضلا عن القيادات العسكرية ، التى كانت عرضة للتغيير فى عهده ، كونها تمتلك عناصر البروز والتألق من خلال ما صنعته من الانتصارات الباهرة .

خامسا :

كان سعد بن أبى وقاص أحد القادة التاريخيين فى الاسلام ، والصحابة المقربين من النبى صلى الله عليه وسلم ، والمشاركين فى العمليات العسكرية الأولى بين المدينة ومكة ، وكانت كفاءته وراء اختياره قائدا للجبهة العراقية ، كما كان لذلك دلالة من الخلافة الراشدة على مدى الاهتمام بهذه الجبهة ، مقياسا الى الأسلحة المعروفة التى استخدمها المسلمون ، كان الفرس منفوقين بالأدوات الحربية المتطورة ، غير أن قناعة المسلمين بعقيدتهم القتالية الاسلامية قد مكنهم من تحقيق النصر على أعدائهم من الفرس الذين انحدرت قيم مجتمعهم بما فيها عقيدتهم التى أفرغت من محتوياتها الاصلاحية لتخدم فقط مصالح الفئة الحاكمة ، المرتبطة عضويا بمصالح كبار رجال الدين (الموابذة) .

سادسا :

قبل أن تزحف الجيوش الاسلامية الى العراق ، كانت الأزمات الداخلية تأخذ فى التفاقم فى الامبراطورية الفارسية ، وبدأ الارتباك يسيطر على الموقف الفارسى فى حين ارتفعت معنويات جيش المسلمين ، وفى « القادسية » التى عرفت بأنها « باب فارس » ، اتخذ سعد بن أبى وقاص مركز قيادته ، وسجل التاريخ نصرا جديدا لقوات المسلمين التى اندفعت بعد ذلك تجاه الشرق مستهدفة « المدائن » ومستفيدة من عنصر الوقت بعد أن حاذت

= الدراسات العربية الحديثة فى اطار المنهج التاريخى والمنهج التحليلى راجع الدكتور ابراهيم بيضون ، مرجع سابق ص ٤٣ ـ ٥٨ .

شواطىء الخليج وذلك باقامة مراكز دائمة للاعاشة وتسهيل التحركات العسكرية وحماية الخطوط الخلفية ، وكان عزل سعد بن أبى وقاص واختيار النعمان بن مقرن المزنى أحد القادة البارزين فى العراق بمثابة تأكيد جديد لموقف الخليفة عمر بن الخطاب من القيادات العسكرية بشأن التوجس من فرص التألق والشهرة التى تجنيها طبيعة دور هذه القيادات ، مما كان يدفعه الى معالجة هذا بالتغيير ، والحيلولة دون تحقيق انتصارات متكررة لقائد واحد .

سابعا :

بعد انتصار المسلمين فى « نهاوند » استمرت قوات الزحف الاسلامى المظفر فى التوغل فى عمق الامبراطورية الفارسية المتهاوية ، حيث سقطت الأقاليم والمدن الهامة التى أصبحت جزءا من الدولة الاسلامية مثل أصبهان وهمذان والرى وخراسان وغيرها ، وقد ظل « يزدجرد » آخر أكاسرة الفرس يعيش سنوات منخفيا على حدود مملكته الضائعة ، وسعى سرا الى ملك الترك المعروف بالخاقان من أجل مده بالمساعدة لمقاومة المسلمين ، غير أن هذا الأخير لم يشجعه ، فلجأ الى سمرقند ليواجه مؤامرة على يد حلفائه انتهت بقتله .

فتوح الشام :

كانت بلاد الشام تحت سيطرة الدولة البيزنطية ، وساءت أحوالها السياسية والاقتصادية ، وكان الربع الأول من القرن السابع الميلادى فترة مشئومة على بلاد الشام ، لأنها أصبحت ميدانا للحروب بين الفرس والروم ، وفى سنة ٦٢٨م عقد (شيرويه) امبراطور الفرس صلحا مع (هرقل) امبراطور الروم الذى دخل القدس وطرد جميع من فيها من اليهود وأعاد للبلاد بعض هدوئها ، غير أنه انغمس فى اللهو والعسف ، وعاد الناس يقاسون من حكمه ، وفى هذه الفترة توالت أنباء الزحف الاسلامى فى جنوب بلاد الشام منذ أواخر عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان أول من فكر فى فتح الشام ، وقد سبقت الاشارة الى ما كتبه صلى الله عليه وسلم الى أمراء عرب الشام يدعوهم الى الاسلام(١٠) •

وكانت « مؤته » ـ أول مدينة سورية متاخمة لجزيرة العرب ـ وقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة الى « مؤته » لمواجهة جيش « هرقل » ، ورغم تفوق جيش الروم ، الا أن المسلمين أظهروا جرأة وشجاعة فائقتين ، وقتل زيد وهو يحمل الراية التى عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتناولها جعفر بن أبى طالب ، وقاتل عنها حتى قتل هو الآخر ، فأخذ الراية عبدالله بن رواحة وقاتل عنها حتى قتل ، فأخذ الراية ثابت بن أرقم العجلانى قائلا(١١) : يا معشر الناس ، اصطلحوا على رجل منكم ، قال : ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، ولم يكن من الأمراء ، فلما أخذ خالد الراية دافع القوم ، ثم انحاز ، وتحيز عنه ، حتى انصرف الناس ، وانكفأ راجعا ، وكانت براعته هذه سببا فى انقاذ جيش المسلمين ، ولكن الله سلم ، ولما رجع الجيش الى المدينة تلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنشد الصبيان ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : خذوا الصبيان ، وأعطونى ابن جعفر (رضى الله عنه) ، فأتوا بعبدالله بن جعفر ، فحمله بين يديه ، وجعل الناس يحثون التراب على

---

(١٠) الطبرى ، الجزء الثالث ، ص ٩٥ ـ ١١٥ •

(١١) نقلا عن دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الأول ، مرجع سابق ص ٥٨ •

الجيش ، ويقولون : يا فرار ... يا فرار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار فى سبيل الله ان شاء الله .

وتذكر المصادر أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكد يستقر بعد فتح مكة والطائف ، حتى أخذ يعد العدة من جديد لغزو الشام ، فاستنفر الناس لقتال الروم ، فلبوا دعوته(١٢) . وأنفق كبار أغنياء الصحابة أموالا جساما ، فلم ينفق أحد أعظم مما أنفقه عثمان بن عفان ، وكذلك فعل عبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص . وسار الرسول صلى الله عليه وسلم فى ثلاثين ألف مقاتل ، فلما أراح الجند فى « تبوك » ، توافدت عليه أمراء النواحى العربية ، وأولهم « يحنه بن رؤبة » صاحب « أيلة » فصالح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأعطاه الجزية ، ثم جاء أهل « جرباء » ، و « أذرح » فاعطوه الجزية .

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد الى أكيدر بن عبد الله الكندى أمير « دومة الجندل » ، فلما قدم عليه صالحه ، وجاء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحقن دمه وخلى سبيله ، ولم يقم الرسول صلى الله عليه وسلم فى تبوك الا بضع عشر ليلة ، قفل بعدها الى المدينة . وبعث بأسامة بن زيد الى الشام ، ولما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، واستخلف أبو بكر ، وانقذ جيش أسامة ، فدخل الشام ، ونفذ ما كان أمره به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع منتصرا ، وغانما .

ابوبكر فى الشام :

يذكر المؤرخون أن أبابكر أعد أربعة جيوش لفتح الشام فى أول(١٣) السنة الثالثة عشرة للهجرة وذلك بعد أن انتهى من حروب الردة حيث جمع المقاتلين من جميع أجزاء الجزيرة العربية ، وعقد الألوية لأربعة من الأمراء

---

(١٢) يقول الطبرى ان ذلك حدث فى « زمن عسرة من الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، وأحبت الظلال . فالناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم » . ولكن ذلك كله لم يعق الناس عن تلبية دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم . الطبرى ، الجزء الثالث ، ص ٢٤٣ .

(١٣) يرى فريق من المستشرقين ان فتوح الشام بدأت فى أواخر السنة الثانية عشرة للهجرة ، راجع دكتور محمد أسعد طلس ، مرجع سابق ص ٦٠ .

هم : أبو عبيدة بن عامر بن الجراح ويتجه الى حمص وله القيادة العامة ، ويزيد بن أبى سفيان ويتجه الى دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ويتجه الى الأردن ، ثم عمرو بن العاص ويتجه الى فلسطين ٠

سارت جيوش المسلمين نحو سورية ، وكان أول فتح تم على أيديهم هو فتح يزيد لتبوك ، ثم خلفها وراءه وسار حتى التسلال التى تشرف على « وادى عربة » ، فعلم بمقدمه قائد فلسطين « البطريق سرجيوس » ، فاستعد للقائه ، والتقى الجيشـان عند « وادى عربة » ، وانتصر يزيد ، واضطر « سرجيوس » الى الانسحاب الى غزة ، فلحق به المسلمون ، وجرت بين الطرفين معركة كبرى[١٤] ، قتل فيها سرجيوس ، وكاد المسلمون يقضون على الجيش البيزنطى الذى بلغت هزائمه الى « هرقل » ، فأمر أخاه أمير حمص ، كما أمر بعض القادة بحماية القدس ، ومن الأرجح أن عدم وجود خطة معينة للعرب فى فتوح الشـام - كما يرى[١٥] البعض - قد جعل البيزنطيين يضطربون فى الاستعداد لهم ٠

ودارت أكبر المعارك بين الطرفين « معركة أجنادين » ، فقد حشد البيزنطيون جيشهم لمواجهة المسلمين الذين أخذوا يهاجمون جنوبى فلسطين ، وتذكر المصادر أن عمرو بن العاص كتب الى الصديق يستنجده ، فأجابه بأن يترك القيادة العراقية للمثنى بن حارثة ويتوجه الى الشـام ، وتختلف المصادر حول موعد سفر خالد بن الوليد أو عدد الجيش الذى سار به من العراق الى الشام ، أو الطريق التى سلكها خالد ، ولما وصل خالد الى الشام التقى بيزيد وشرحبيل ، وأبى عبيدة فعاونهم على فتح « بصرى » ، وكانت أول مدن الشام التى فتحت فى عهد أبى بكر ، ثم اتجه الجميع الى الجنوب لمساعدة عمرو بن العاص فى « وادى عربة » ، فلما علم البيزنطيون بقدوم جيش المسلمين ، قصدوا « أجنادين » ، وتقع بين « الرملة » و « جبرين » ، وكان البيزنطيون قد جمعوا فيها قواتهم بقيادة « تيودوس » شقيق الامبراطور « هرقل » ، وكانت المواجهة العسكرية فى جمادى الأولى من السنة الثالثة عشرة للهجرة (يوليو ٦٣٤م) ، وانتصر المسلمون على قوات بيزنطة ، التى اضطرت الى التراجع الى القوس ٠ وأخذت تعيد جمع شتاتها استعدادا لقتال المسلمين ٠ ويذكر الطبرى[١٦] أن خالد بن الوليد

---

(١٤) وذلك فى شهر فبراير سنة ٦٣٤ م ٠

(١٥) فذلك للمرونة التى اتبعها قادة الجيوش الاسلامية حيث ارتاد كل قائد المنطقة التى وجدها صالحة لغزوه ، المرجع السابق ص ٦١ ٠

(١٦) الطبرى ، الجزء الرابع ص ٣٢ - ٣٥ ٠

خطب في الناس قائلا : « ان هذا يوم له ما بعـــده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة ... واعملوا فيما لم تؤمروا به ، وبالذى ترون أنه الـرأى من واليكم ومحبته » ، فقالوا له : وما الرأى ؟ قال : « الله .. الله ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقص منه ، ان دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيد عليه ان دانوا منه ، ... هلموا فان هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده ، ان رددناهم الى خندقهم اليوم ، لم نزل نردهم ، وان هزمونا ، لم نفلح بعدها ، فهلموا ، فلنتعاون الامارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غدا ، والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ، ودعونى اليـكم اليوم ... » .

رتب خالد الجيش الاسلامى ، وكان عدده أربعة وعشرين(١٧) ألفا . جيش الروم فبلغ عدده ثمانون ألفا بقيادة ماهان القـائد الأرمنى ، وجرى اتصال بين خالد وماهان فى مكان يسمى الواقوصة بهدف الصلح ، الا أن هذا الاتصال لم يصل الى نتيجة . وقد جعل خالد أبا عبيـدة فى القلب ، وعمرو بن العاص على الميمنة ، ويزيد بن أبى سفيان على الميسرة ، وقد لحقت الهزائم بجيش الروم ، وكتب النصر للمسلمين ، ولما سمع هرقل ما حدث فى اليرموك هرب الى القسطنطينية قائلا : « عليك السلام يا سورية ... ونعم البلد » — (البلاذرى — فتوح البلدان ص ١٤٢) .

وتجدر الاشارة الى أنه خلال نشوب المعارك واحتدامها جاء صـاحب البريد من المدينة ، فلما سألوه عن الخبر ، لم يجد الا السـلامة . والحقيقة أنه جاء بنعى أبابكر الصديق ، واستخلاف عمر بن الخطاب ، وعزل خـالد ابن الوليد ، وتأمير أبى عبيدة بن الجراح ولما أبلغ صـاحب البريد خـالدا ذلك ، وأعطاه كتاب عمر . فان خالدا لم يقرأ الكتاب حتى انتهت معـركة اليرموك ، وفتحت دمشق ، وتختلف المصادر حول ذلك حيث تذكر رواية أخرى أن خالدا أخذ كتاب عمر بن الخطاب ، وجعله فى كفانته ، وخاف ان هو أظهره ، أن تنتشر الفوضى وتحدث الفتنة ، ثم ان خالدا قد استبسل فى القتـال حتى تضعضع الـروم ، وتولى خالد بنفسه قلب جيشه حتى اقتحم جند العدو وصفوفهم ، وصار بين خيلهم ، فهرب الخيـالة الروم الى الصحراء ، أما الرجالة « المشـاة » فقد سقطوا بين أيدى المسلمين ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة .

---

(١٧) ابن الأثير ، (عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى ، المتوفى سـنة ٦٣٠ هـ) ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الثانى ، دار الـكتاب العربى ، بيروت (١٣٨١ هـ/ ١٩٦٧ م) ص ٤٠٨ — ٤١٠ .

الفصل الثالث

عصر عمر بن الخطاب

٦٤٤ - ٦٣٤م / ٢٣ - ١٣هـ

- رسائل عمر الى قادة الجيوش الاسلامية
- من فتوح العراق الى فتوح ايران
- فتوح السند والبنجاب
- تقويم

- رسائل عمر الى قادة الجيوش الاسلامية :

كان أول عمل دولى - على حد قول أحد المؤرخين(١) المحدثين - قام به عمر بن الخطاب أن كتب الى أبى عبيدة بن الجراح يوليه جند خالد بن الوليد فى الشام قائلا : « أوصيك بتقوى الله ••• وقد استعملتك على جند خالد ابن الوليد ، فقم بأمرهم الذى يحق عليك ، لا تقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم ، وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية الا فى كثف من الناس ، واياك والقاء المسلمين فى الهلكة ••، وأغمض بصرك عن الدنيا ، وأله قبلك عنها •••(٢) » •

ثم كتب عمر بن الخطاب مرة ثانية الى أبى عبيدة بعد أن طلب الأخير استشارته عندما تحالف أهل دمشق مع أهل حمص لمواجهة جيش المسلمين ، فرد عمر قائلا : « أما بعد ، فابدأوا بدمشق ، فانها حصن الشام ، واشغلوا عنكم أهل « فحل » ، بخيل تكون بازائهم . وأهل فلسطين ، وأهل حمص ، فان فتحها الله قبل بدمشق ، فذاك الذى تحب ، وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ••• ودع شرحبيل وعمرو ، وأخلهما بالأردن وفلسطين ••• » •

وما قرأ أبو عبيدة هذا الكتاب حتى سار الى دمشق وحاصرها ، وضيق الخناق على أهلها ، وكتب الله النصر للمسلمين على نحو ما سبقت الاشارة اليه • غير أن المصادر تختلف فى كيفية وقوع فتح دمشق ، فهناك من المؤرخين من يروى أن نصف المدينة فتح صلحا على يد أبى عبيدة بن الجراح ، والنصف الآخر فتح حربا ، وان خالد بن الوليد هو الذى دخل حربا ، فى حين يروى البلاذرى أن بعض الرهبان خابر قومه ، واتفقوا مع خالد على أن يفتحوا له باب المدينة الشرقى ، ففتحوه ، ودخل المسلمون ، فى حين دخل أبو عبيدة قسرا من باب الجابية ، ويؤيد أسعد(٣) طلس أن

---

(١) دكتور محمد أسعد طلس ، مرجع سابق ص ١١١ •

(٢) نقلا عن الطبرى ، الجزء الرابع ص ٢١٥٦ •

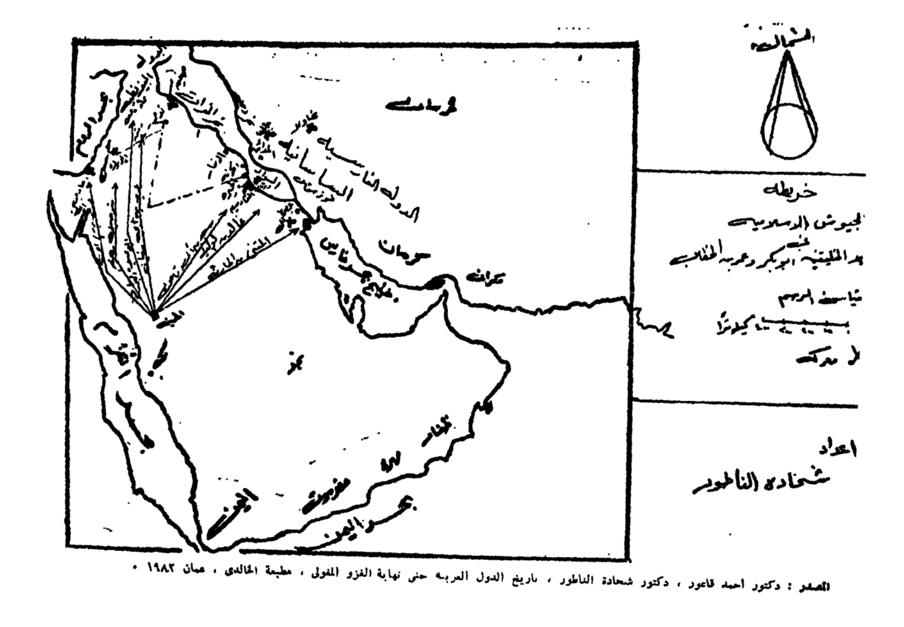
(٣) قارن : دكتور محمد أسعد طلس ، مرجع سابق ص ١١٤ نقلا عن الطبرى ، الجزء الرابع ، ص ٥٩ ، البلاذرى ، فتوح البلدان ص ١٣٥ - ١٤٣ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ص ٤١٠ - ٤٣٤ •

مدينة دمشق قد فتحت صلحاً من جانب ، وأن جزءا منها قد أخذ حرباً ، ويستدل على ذلك بأمر قسمة الكنيسة الكبرى (الكاتدرائية) بين المسلمين وأهل المدينة من ثنايا نص الكتاب الذى كتبه أبو عبيدة على لسان أهل دمشق نقلا عن أبى القاسم بن عساكر : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب لأبى عبيدة بن الجراح من أمام دمشق ، وأرضها ، وأرض الشام نحن الأعاجم ، انك حين قدمت بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا ، وأهل ملتنا ، وأنا اشترطنا لك على أنفسنا أن لا تحدث فى مدينة دمشق ، ولا فيما حولها كنيسة ، ولا ديرا ، ولا قلاية ، ولا صومعة راهب ، ولا تجدد ما تهدم من كنائسنا ولا شيئا مما كان فى خطط المسلمين ، ولا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها فى الليل والنهار ... ولا نضرب بنواقيسنا الا ضرباً خفيا فى جوف كنائسنا ، ولا نظهر الصليب عليها ، ولا نرفع أصواتنا فى صلاتنا وقراءاتنا فى كنائسنا ، ولا نخرج صليبنا ولا كتابنا ... ولا نبيع الخمور ... ولا نرغب مسلما فى ديننا ، ولا ندعوا أحدا اليه ... ولا نمنع أحدا من قرابتنا ان أراد الدخول فى الاسلام ... ولا نتخذ شيئا من السلاح ، ولا نجعله فى بيوتنا ... وأن نوقر المسلمين فى مجالسهم ... وعلينا لا نشتم مسلما ، ومن ضرب مسلما فقد خلع عهده ... على ذلك أعطينا الأمان لأنفسنا ، وأهل ملتنا ، فأقرونا فى بلادكم التى ورثكم الله اياها ، شهد الله على ما شرطنا على أنفسنا ، وكفى بالله شهيدا(٤) » .

ولما أتم خالد فتح قنسرين وحلب فقد عزم على فتح سائر مدن الشمال ومنها أنطاكية التى كانت حصن المسيحية ، وتوجهت الجيوش نحو مدن الجزيرة ، ففتحت الرها ونصيبين وبلاد أرمينية وتم الاتصال بين فتوح الشام وفتوح العراق ، أما عمرو بن العاص قائد الجيش الجنوبى الى فلسطين ومعه شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان فقد سارا كلاهما معا عبر البلقاء والأردن ، على أن يتخذ شرحبيل معسكره الى الشرق من النهر ، بينما يتابع يزيد بن أبى سفيان مسيرته نحو دمشق . وقد استولى الجيش الجنوبى على بيسان والأردن ثم اتجه الى فلسطين وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد كتب الى معاوية بن أبى سفيان قائلا : « أما بعد ، فانى

---

(٤) ابن عساكر : أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله عبد الله الشافعى المتوفى سنة ٥٧١ هـ) ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق شكرى فيصل وآخرين ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، الجزء الأول ص ١٤٥ ـ ١٥٠ .



المصدر : دكتور احمد قاعود ، دكتور شحادة الناطور ، تاريخ الدول العربية حتى نهاية الغزو المغولي ، مطبعة الخالدي ، عمان ١٩٨٢ .

قد وليتك قيســـارية ، فسر اليها واستنصر الله عليهم ، وأكثر من قول لا اله الا الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير » .

وتذكر المصادر أن معاوية بن أبى سفيان كان قد سار الى قيسارية — وكانت من أعظم الثغور — فحاصرها ، واشـتد القتـــال حولها ، وأبلى المسلمون بلاءا حسنا ، وتم لهم فتحها ، ثم سار معاوية نحو عمرو بن العاص بعد أن فتح نابلس وعسقلان وغزة ، وتجمعت الجيوش الاسلامية حـــول القـدس ، وحاصرتها لمدة أربعة أشهر لقى فيهـــا الروم الجوع والعطش ، وتكاتب عمر بن العاص وبطريق القدس فى شروط الصلح ، وكان الروم يخافون على الكنيسة العظمى ، وطلب البطريق أن يباشر بنفسه عقد الصلح مع الخليفة عمر بن الخطاب ، فكتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر الذى قدم بالفعل الى القدس ودخلها ، وصالح أهلها ، ويورد الطبرى نص الكتاب الذى كتبه عمر اليهم قائلا : « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمين المؤمنين أهل ايليـــاء الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبـانهم ، سقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا تكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منهـا ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ، ولا شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يكن بايلياء معهم أحـد من اليهود ، وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الــروم ، فمن خـرج منهم فانه آمن على نفسه ، وماله ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل ايليـــاء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلى بيعهم وصلبهم ، فانهم آمنــون على أنفسهم ، وعلى بيعهم ، وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبـــل فضل خلان ، فمن شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزئة ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله ، فانه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصـد حصـادهم ، وعلى ما فى هذا الكتاب عهـد الله ، وذمة رسـوله ، وذمة الخلفـاء ، وذمة المؤمنين ، اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبدالرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبى سفيان(٥) » .

ويتضح من هذه الوثيقة أن فتح القدس كان فى أواخر السنة الخامسة عشر للهجرة وهو ما كتب بالفعل فى نهايتها ، وبفتح القـــدس (ايلياء) ،

(٥) ونظرا لأهمية هذا الكتاب فى تاريخ العلاقات السياسية الاسلامية فقد أوردناه برمته نقلا عن : الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الرابع ص ١٥٩ — ١٦١ .

وقيسارية (قيصرية) ، ودمشق ، أفل نجم السلطان الرومى فى سورية ، وهرب من هرب من الروم الى آسيا الصغرى ، وقضى على الدولة البيزنطية فى الشام ، وقد توج هذه الفتوحات حضور الخليفة عمر بن الخطاب وعقده صلح القدس المشرف للاســلام وفى نفس الوقت فانه حافظ على كيــان المسيحية وتقاليدها ، وهو ما يعد نموذجا يحتذى به فى تاريخ العــلاقات السياسية الدولية بين الاسلام وخصومه حيث خليفة المسلمين يغادر بنفسه الحجاز الى القدس ويعقد اتفاقا مع بطريق الــروم ينص على حمــاية أرواح وكنائس وممتلكات سكانها النصارى •

غير أن مجيء الخليفة عمر بن الخطاب الى الشــام ، لم يكن من أجل هذه المهمة فقط ، لأن مهمات أشد خطورة كانت فى انتظاره للبت فيهــا ، ذلك أن المسلمين بعد انتصاراتهم الباهرة فى الشــام والعــراق ، وجدوا أنفسهم فى مأزق الاختيار ـ على حد قول بيضون(٦) ـ بين التوقف عند هذا الحد من المنجزات ، والاهتمام بشئون البلاد التى خضعت لهم ، وبين المضى فى الاتجاه « التوسعى » الى مناطق جديدة ، ولعل النتيجة الأولى فى هــذا السبيل هى السيطرة على « الجزيرة » ، التى تقع ما بين النهــرين (دجلة والفرات) ، وتشتمل على ديار مضر ، وبكر ، وربيعة • أما أشهر مدنها فهى الرقة ، وحران ، والرها ، ، وسنجار ، ونصيبين ، وماردين ، والموصل التى افتتحت جميعها دون صعوبة كما وردت الاشارة الى ذلك •

وتجدر الاشارة أنه أثناء وجوده فى المدينة المقــدسة ، وضع الخليفة عمر بن الخطــاب حجر أساس مسجده فى أواخر الســـنة الخامسة عشرة للهجرة ، ورجع الى المدينة المنورة بعد وبذلــك تم فتح العراق والشـــام وفلسطين ، أما مصر فكانت بظروفها السياسية والدينية امتــداد للظروف السائدة فى الشـــام ، وكانت مهيأة هى الأخرى للفتح الاسـلامى الذى تم بالفعل على نحو ما جاء فى وثيقة الصلح بين عمرو بن العاص وبين (المقوقس) حاكم مصر ـ وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة(٧) •

---

(٦) الدكتور ابراهيم بيضون ، مرجـــع سـابق ص ٦٦ ـ ٦٧ حيث يصف الفتوحات الاسلامية فى هذه الفترة بالذات أن لها لون خاص يختلف عن الأعمال التالية فى العصر الأموى الذى فقدت فيه محتواها الجهادى وخضعت لقرارات سياسية تباينت دوافعها من خليفة لآخر ـ المرجع نفسه ص ٤٣ • وان كنا لا نشاركه الرأى فى ما أسماه بالاتجاه « التوسعى » حيث طابع الفتوحات الاسلامية طابع مختلف •   « الباحث »

(٧) لمزيد من التفصيل حول الفتح الاسلامى لمصر . راجع : شكرى فيصل ، حركة الفتح الاســلامى فى القرن الأول ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٢ ـ تبلر ، ترجمة محمد فريد ابو حديد ، فتح العرب لمصر ، القاهرة ١٩٦٦ •

من فتوح العراق الى فتوح ايران :

ترتبط فتوح العراق بفتوح ايران فى عصر الخليفة عمر بن الخطاب ، وقد سبقت الاشارة أن الفتوح الاســـلامية فى العراق فى عهد الصـــديق قد انتهت فى الجزيرة الفراتية على يد سيف الله خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة ، وقد كتب الصديق الى خالد بترك العراق ومساعدة الجيش الاسلامى فى الشام ، وأن خالدا خلف المثنى بن حارثة فى الجزيرة وسار نحو الشام ٠ وأن العراق قد استأثر باهتمام عمر بن الخطاب الذى أخذ يحث الناس على الانضمام للمثنى بن حارثة ، وأن الله سبحانه وتعالى حين نصر المســلمين على الفرس فى السنة الثالثة عشرة للهجرة ، فقد استبشر الخليفة عمر بذلك وعزز الجيش الاسلامى بسعد بن أبى وقاص وأوصاه قائلا : « يا ســـعد بنى وهيب ، لا يغرنك من الله ان قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله فان الله عز وجل لا يمحو السيىء بالسيىء ، ولكنه يمحو السيىء بالحسن ، فان الله ليس بينه وبين أحد نسب الا طاعته ، فالنـــاس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم ، وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم عليه منذ بعث الى أن فارقنا ، فالزمه ، فانه الأمر ٠٠٠ » ٠

وتوالت الرسائل بين سعد بن أبى وقاص والخليفة عمر بشأن أحوال بلاد فارس وأوضاعها الجغرافية والسكانية والحربية ، وتضمنت ردود الخليفة عمر اليه تشجيعه قائلا : « ٠٠٠ أقم مكانك حتى ينفض الله لك عـدوك ، واعلم أن لها ما بعدها ، فان منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن ، فانه خرابها ان شاء الله » ٠ وقد استمر سعد بن أبى وقاص على منابرته فى القادسية وهو يناوش الفرس حتى جاءه كتاب عمر قائلا : « لا يكربنك ما يأتيك عنهم ، واستعن بالله وتوكل عليه » ٠ وقد نصر الله سبحانه وتعالى جيش المسلمين فى القادسية ، كما سبقت الاشارة ، وكانت هذه المعركة هى المعركة الفاصلة للفتح الاســلامى فى بلاد فارس ، وسار سعد ، ففتح (كوثى) و (ساباط) متجها الى المدائن ، ولما رأى ايوان كسرى تذكر وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم بفتح ايوان كسرى ، فقويت قلوبهم ، وحاصر المدينة ، وكتب الى الخـليفة عمـــر يبشره ، ويخبره ، ويستشيره بشأن أعدائه المهزومين ، فجمع عمر أهل الشورى من المسلمين فى الـ... وخطب قائلا : « ٠٠٠ وان من ادعى ، فصـــدق ، أو وفى

فبمنزلتهم ، وان كذب نبذ اليهم وأعادوا صلحهم ، وان يجعل أمر من جلا اليهم ، فان شاءوا دعوهم ، وكانوا لهم ذمة ، وان شاء ألموا على منعهم من أرضهم ، ولم يعطوا الا القتال وأن يخيروا من أقام واستسلم بهـذا الجزاء والجلاء » .

وكتب الخليفة عمر الى سعد بن أبى وقاص بذلك ، فخلى سـعد عن الفلاحين الفرس ، وأرسل الى الدهاقين ، ودعاهم الى الاسلام ، أو الجزية ، ولهم الذمة ، فتراجعوا الى ديارهم ، ولم يبق غربى دجلة سوادى(٨) الا دخل فى ذمة المسلمين ، وفرح الأعاجم بذلك ، فدخل جيش المسـلمين المدائن بقيادة سعد بن أبى وقاص ، وصلى فيها وقرأ قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم » .

وقد استكمل جيش المسـلمين فتح ايـران ، وغنم مغانم كثـيرة من « السوس » ، و « جند يسابور » وصولا الى نهاوند كما سبقت الاشارة الى ذلك ، وكتب الخليفة عمر الى أبى موسى الأشعرى أمير البصرة أن يوجه الأمراء لفتح ما بقى من البـلاد وهم : الأحنف بن قيس الى « بلاد خراسـان » ، والمجاشع بن مسعود السلمى الى « أردشير خرة » و « سابو » . وعثمان بن العاص الى « اصطخر » ، وسارية بن زنيم الكنانى الى « فا » ، وسهيل بن عدى الى « كرمان » ، وعاصم بن عمر الى « سجستان » ، والحكم بن عمير التغلبى الى « مكران » ، وقد أتم الأمراء هذه الفتوحات الاسلامية لما بقى من بلاد فارس حتى نهر السند حيث انتشر الدين الاسلامى فى ربوع هـذه البلاد الشاسعة وهو ما يقتضى تفسير الفتوحات الاسـلامية لشبه القـارة الهندية ـ وخاصة السند والبنجاب ـ فى عصر الخليفة عمر بن الخطاب .

---

(٨) السواد جنوب الكوفة بين نهر الفرات والخليج العربى ومنها انطلق المسلمون الى المدائن كما سبقت الاشارة فى المتن .

ـ فتوح السند والبنجاب :

السند والبنجاب : بعض الملاحظات الجيوبوليتيكية :

تشكل بلاد السند ومعظم البنجاب والمعروفة فى الوقت الحاضر بـ « الباكستان » ـ جزءا هاما من شبه القارة الهندية ، وقد اختلف المؤرخون والجغرافيون حول اسم بلاد السند ، فالبعض(٩) يذكر بأن الاسم القديم لبلاد السند هو « سندهو » نسبة الى نهر السند ، فى حين أن كلمة « بنجاب » هى اسم فارسى لمياه الأنهار الخمسة فى بلاد السند ، فى حين يذكر آخرون(١٠) أن كلمة « سندهو » كانت اسما قديما لنهر السند ومنطقة السند أيضا ، وان الاغريق قد أطلقوا هذه التسمية على نهر السند حيث عرفته أوروبا بهذا(١١) الاسم ، وهناك رواية شرقية بأن اسم السند منسوب الى « سند بن حام(١٢) بن نوح » فى حين يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب بعد الاسلام اسم السند بصفة عامة على المناطق المحيطة بنهر السند الكبير ، وكانت بلاد السند فى عهد العرب تتكون من الاقليم الشمالى الغربى ومنطقة البنجاب مع المنطقة المجاورة الممتدة الى أرض أفغانستان حتى نهر هلمند ، ومنطقة بلوجستان ، بالاضافة الى منطقة السند الحالية ومنطقة كجه ، فكانت هذه المناطق تسمى بلاد السند فى عهد العرب ٠

تأثرت بلاد السند والبنجاب بالظروف السياسية التى مرت عليها ،

---

(٩) Lambrick, H.T. : "Sind : A general introduction", Hyder abad. Sind, Sindhi Adabi Board, 1964, pp 1 - 5

(١٠) Abbott : J. : «Sind : A Reinterpretation of the Unhappy Valley» Oxford University Press, 1924 pp. 21 - 24

(١١) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية لبلاد السند والبنجاب (باكستان الحالية) ، الجزء الأول ، عالم المعرفة ، جده ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ص ٤٥ ـ ٤٧ نقلا عن :
Raverty : "The Mahran of Sind", in : Journal of the Royal Asiatic Society, Bengal, 1892, p 156. Note 3.

(١٢) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى ، ص ٤٧ نقلا عن كتاب هيئت العالم الشيخ محمد أعظم ندوى ، (بواسطة كتاب تحفة الطاهرين للشيخ محمد أعظم ندوى ، حيدر آباد ١٩٥٦ ٠

فقد كانت بعض المناطق تخرج من أيدى العرب ثم تعود الى حكمهم ، وبالتالى انعكس ذلك على تطور مشكلات الحدود من حيث تعيينها ، وفى هذا الصدد يقول عالم الجغرافيا العربى البشارى المقدسى(١٣) : « وضع هـــذا الاقليم — يقصد السند — هو أنه يقع فى شرقه بحـــر فارس ، وفى غربه كرمان وسجستان وأعمالهما ، وفى شماله تقع بقية بلاد الهند ، وفى جنوبه تقع مفازة مكران وجبال القفص ومن ورائهـا بحر فارس(١٤) • وتأثرت الحدود أيضا بوجود نهر السند الذين كان العرب يطلقون على هـــذه البـلاد لقب « بلاد السند » ، نسبة الى نهر السند العظيم نظرا لمظاهر النعم والخيرات من المزروعات والخضروات والعقـاقير والتـوابل والأزهار والعطور ، وينبع نهـر السند من جبل كيلاس ببـلاد التبت ، ويبلغ طوله نحو ١٨٠٠ ميل ، ويجرى ثلثه فى داخل بلاد السند ، ويمر النهر ببـلاد كشمير ثم فى اقليم البنجاب حيث يلتقى أنهار خمسة بنهر السند ، ثم يجـــرى نهر كبير من البنجاب الى داخل بلاد السند ، ثم يتفرع الى فروع كثيرة فى أراضى واسعة ويتكون منها أحد عشر مصبا ، بعضها قابل للملاحة حيث تدخلهـا السفن التجارية ، ثم يصب النهر فى النهاية فى بحر العرب •

كانت بلاد السند تنقسم قديما الى أربعة أقاليم جغرافية هى : السند العليا والسند الوسطى والسند السفلى واقليم كش (كجه) ، فى حين أنها كانت تمثـل خمســة أقاليم ســـياسية هى : اقليم برهمن آباد ، واقليم سيوستان ، واقليم اسكلنده ، واقليم الملتـان — البنجاب حاليا — واقليم الور •

أقامت أقوام عديدة فى بلاد السند قبل الاسلام ، بل ان بعضها يرجع

---

(١٣) شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسى البشارى (المتوفى سنة ٣٨٨هـ) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، الجزء الثانى ، طبعتى لندن ١٨٧٧ ، ١٩٠٦ ص ٤٨١ •

(١٤) بحر فارس هو بحر العرب وقد أطلق عليه بعض المؤرخين والجغرافيين العرب اسم بحر المحيط ، فى حين أطلق عليه البعض الآخر اسم بحر عمان ، راجع شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى الرومى ، معجم البلدان ، القاهرة ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٨ م ، الجزء الخامس ص ٧٥١ •

— وراجع أيضا : اسماعيل بن على بن عماد الدين أبو الفداء (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ) ، المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٤ م •

— أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى ، كتاب الأقاليم ، طبعة ألمانيا ١٨٣٩ ص ٢٧٥ — ٢٧٨ •

الى ما قبل خمسة آلاف سنة مثل قوم الدراوردیين وهم أصحاب حضـــارة عظيمة فى المنطقة ، وتدل الآثار القديمة على أن سـكان وادى نهـر السند قد تعرضوا لظلم واضطهاد البربر الذين أتوا الى بلاد السند قبل الفرس عنـــد زحفهم نحو الشرق عن طريق بلوخستان ، وكان من نتيجة هـــذا الاضطهاد أن نزح قوم الدراوردیين الى أماكن أخرى فى بلاد السند ، ويعتبر قوم الآريين ـ نسبة الى الآرى ـ هم القوم الثانى الـكبير الذى أتى الى بلاد السند من وسط آسيا فى الفترة من سنة ٣٥٠٠ ـ ٦٠٠ ق٠م وقضوا على نفوذ الدراورردیين ٠

وعندما انتشر الاسلام فى هذه البقاع فقد أتت أقوام أخرى اندمجت بالسكان القدامى وأثرت فيها ، ومنهم العرب الذين فتحوا بلاد الســند ، فى أواخر القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) وحكموها أكثر من أربعة قرون ، ومن الثابت أن العـرب من الجنس الســامى ، وقد تركوا تأثيرهم العظيم على بلاد السند من النواحى الســياسية والثقـافية والاجتمـاعية ، وكانت القافلة الأولى التى وصلت الى حدود بلاد السند بعد ظهور الاسلام هى حملة برية سكنت اقليم مكران ، واقتربت من نهر السند ، ثم تراجعت الى مكران سنة(١٥) ٢٣هـ ، وبعد أن أتم العــــرب فتح بلاد الســـند فى سنة ٩٢هـ ، فقد سكنت قبائل عربية مختلفة فى المدن ، واندمجوا مع أهلها مما كان له انعكاساته الايجابية فى نشر الثقافة الاسلامية فى هــذه البلاد الواسعة ٠

وفى عهد العرب كان هناك قبائل سندية أهمها الزط والميد واتسمت هذه القبائل بتعصبها الوطنى والقومى ٠ وتنافسوا على حكم البلاد ، وكان الزط أكثر عددا وأقوى نفوذا ، وأخطر على الأمن والدولة من الميد ، وربما يفسر هـــذا سبب اهتمام محمد بن القـاسم الثقفى فاتح بلاد الســـند (٩٢ ـ ٩٥هـ) بدراسة أحوال قبيلة الزط الكبيرة ، ولما أيقن أنهم يقومون بالفتن والاضطرابات ، والاغارة على القوافل التجارية ، ونهب الأموال وقتل

---

(١٥) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الأول ص ٢٥٦٧ ـ ٢٥٦٩ ، ص ٣٧٠٥ ـ ٢٧٠٧ ٠

ـ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ) ، تاريخ ابن خلدون الجزء الثانى القاهرة ١٢٨٤ هـ ص ١١٢ ـ ١١٤ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٤ ٠

[illegible]

الأنفس — فقد عاملهم محمد بن القاسم الثقفى معاملة شديدة ووضع قيودا صارمة عليهم لضمان الأمن والاستقرار ٠

وعموما فقد اتفقت المصادر التاريخية بأن العرب المسلمين قد عاملوا الأقوام الكبيرة فى بلاد السند معاملة طيبة شملت أيضا أولئك الذين لم يعتنقوا الاسلام ولكن شريطة أن يدينوا بالطاعة للحكومة ورغم قلة العرب — اذا ما قيسوا بسكان البلاد الأصليين — فقد استطاعوا فرض سيطرتهم بفضل سياستهم الحكيمة وأخلاقهم الحميدة وكان تأثير العرب قويا فى هذه القبائل غير المنحضرة والتى اتسمت بعادات سيئة وصفات وحشية وتقاليد غريبة ٠

تفرعت عن العرب قبائل أخرى ، ومنهم قبائل(١٦) التهاكرة Thokurs ، حيث انضم عدد كبير من قادتهم الى محمد بن القاسم الثقفى أيام الفتوحات ، وساهموا بخدماتهم فى الجيش العربى أثناء حملاته الحربية مما كان له دور فعال فى انتصارات العرب ٠ ومن القبائل التى أعلنت ولاءها للعرب رغم عدم اعتناقها الاسلام : قبيلة سومرا Somra وكانت متمسكة بمذهبها البرهمى الهندى ، وقبائل لوهانه — وهى برهمية هى الأخرى — فى حين دخلت قبائل كثيرة الى الاسلام ومنها كوكهر Khokhars التى اشتهرت فيما بعد باسم قبيلة Sirai فى بلاد السند ، وقبيلة سهتا Shatas التى عاملها محمد بن القاسم الثقفى معاملة طيبة ، وقبيلة سمه Sammah ، وقبيلة سودى الراجبوتية Sadhi Raiputs ٠

أما العلاقات التجارية بين بلاد الهند والسند وبين العرب فقد قويت بعد ظهور الاسلام وانتشاره فى هذه البلاد الشاسعة ، حيث كان خليج العرب مركزا تجاريا هاما تتحرك منه السفن نحو بلاد السند والهند والصين حاملة البضائع ، وراجت تجارة العرب المسلمين ، وزادت العلاقات التجارية تحسنا وتقدما فى الأجزاء الشرقية وكان لذلك انعكاساته على العلاقات السياسية الاسلامية حيث كان من أهداف الغارات البحرية التى شنها عرب عمان والمناطق الساحلية هو توطيد دعائم الحكم العربى على المدن

---

(١٦) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، الجزء الأول ، مرجع سابق ص ٧٨ نقلا عن : البلاذرى ، فتوح البلدان [illegible]

الواقعة على سواحل السند ، وسواحل اقليم كجرات بالهند منذ سنة ١٥هـ كما سيرد ذكر ذلك تفصيلا ٠

لم يأذن الخليفة عمر بن الخطاب للعـرب الفاتحين وقادة جيوشهم من خوض البحار حرصا على سلامة المسلمين ومصـالحهم ، وان كان قد سمح للمتحمسين من قادة الجيوش الاسلامية بالمنـاورات والغـارات والغـزوات ، وتكررت مثل هذه المحاولات فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وفى عهـد الخليفة على بن أبى طالب حتى استولى العرب على أجزاء من السند ، وفى نهاية القرن الأول الهجرى ساءت العلاقات التجارية ونتج عن ذلـك تدخل العرب عسكريا وسياسيا فى بلاد السند(١٧) ٠

---

(١٧) وكان ذلك بسبب اساءه ملك السند الى العلاقات الطيبة مع العرب فى حادثة خطف السفن التجارية العربية المارة بميناء الديبل السندى قادمة من بلاد الهند وسيلان فى طريقها الى البلاد العربية بالاضافة الى حماية ملك بلاد السند لبعض العرب المتمردين ضد الدولة الأموية ، راجع دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، نفس المرجع السابق ص ١١٦ نقلا عن ٠

تقويم :

سبقت الاشارة الى توسع رقعة الدولة الاسلامية وامتدادها من غربى آسيا الى شرقها مارة بحدود بلاد السند موضوع هذه الدراسة . فقد توجه عثمان بن أبى العاص الثقفى بجيشه بحرا لتأديب قراصنة الهند والسند الذين كثيرا ما أغاروا على السفن التجارية العربية ونهبوها ، فتوجه نحو مدينة تانه (بهانه) على ساحل الهند ، وغزاها ، وانتصر عليها ، فى حين توجه الحكم بن أبى العاص الثقفى الى مدينة بروص (بهروج) على نفس الساحل الهندى وفتحها ، أما الشقيق الأصغر المغيرة بن أبىالعاص فقد قاد الفرقة البحرية الثالثة سنة ١٥هـ باتجاه مدينة الديبل وهى ميناء هام على ساحل السند - كراتشى حاليا - فانتصر على أهلها وفتحها .

كانت الغارات الاسلامية البحرية السابقة هى أولى الغارات العربية والحملات الاسلامية الى سواحل الهند والسند ، وفضلا عن أن هدفها(١٨) كان تأديب قراصنة السند ، فقد عملت - وهذا هو الأهم - على توسيع رقعة الدولة الاسلامية ونشر الدعوة الاسلامية . وقد سبقت الاشارة الى رد فعل أن هذه الحملات لدى الخليفة عمر بن الخطاب هى عدم تأييدها وذلك لأسباب منها أن الذين قاموا بهذه الحملات بدون اذن الخليفة ليسوا فى موقع المسئولية مثله حيث مصالح المسلمين وأرواحهم أمانة فى عنقه ، ومن هذه الأسباب أيضا أن العرب لم يكونوا حتى سنة ١٥هـ قد كونوا وحدات بحرية عسكرية منظمة ، وأن القوات العربية كانت مشتتة فى مناطق كثيرة ومشغولة بالفتوحات ، وانعكست حكمة الخليفة عمر بن الخطاب من قناعته

---

(١٨) يرى مؤرخو السند ان هذه الحملات كانت مؤقتة ، والغرض منها معرفة أحوال السند ، كما كانت ردا على القراصنة وتهديداتهم للعرب ، فى حين يرى البلاذرى بان المسلمين خلال هذه الحملات قد حققوا انتصارات وهو بذلك لا يتفق مع مؤرخى السند الذين يرون ان المسلمين لم ينتصروا ولم ينهزموا ، ولا يوجد سرد أو تحليل لأحداث هذه الحملات لدى بقية مؤرخى المسلمين الذائعى الصيت أمثال : اليعقوبى والمسعودى والطبرى وابن خلدون ، راجع : البلاذرى - أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى (المتوفى سنة ٢٧٩ هـ) فتوح البلدان . مصدر سابق ، اليعقوبى - أحمد بن أبى يعقوب ابن جعفر الكاتب العباسى المعروف باليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، جزآن ، بيروت ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م ، المسعودى ، أبو الحسن على المسعودى

أن بلادا واسعة بعيدة كبلاد الهند والسند لابد وأن تتخذ حاليا استعدادات كاملة تضمن نجاحا مستمرا . وينقل البلاذرى(١٩) قول عمر بن الخطاب لنعمان بن أبى وقاص : « يا أخا ثقيف !! حملت دودا على عود ، وانى أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم(٢٠) » .

غير أن الخليفة عمر بن الخطاب اقتنع بعد مضى عدة سنوات بقوة العرب ، ووافق على آراء القواد العرب بفتح بلاد السند والملتان المجاورة لبلاد فارس شريطة أن تكون الحملة برية ، حتى يضمن سلامة جيش المسلمين ، وفى سنة ١٧هـ أعطى لواء اقليم كرمان ببلاد فارس الى سهيل ابن عدى ، ولواء اقليم مكران ببلاد السند الى الحكم بن عمرو التغلبى ، وشهاب بن المخارق المازنى وسهيل بن عدى وعبد الله بن عبد الله بن عنتان - ساروا بجيش المسلمين متوجهين الى بلاد السند حتى اقتربوا من نهر السند ودارت معركة مع حكام ولايات السند حتى انتهت بانتصار المسلمين وتقهقر باقى جيش السند ، وقد أصدر الخليفة عمر بن الخطاب أوامره ببقاء الجيش الاسلامى فى مكران . ومن الأرجح أن الخليفة عمر لم يكن مقتنعا بأن الوقت مناسب للدخول فى عمق بلاد السند ، وهو ما جعله يكتب للقواد المسلمين هناك : « لا يجوز مكران أحد من جنودكم ، واقتصروا ما دون النهر(٢١) ... » ، ومعنى ذلك الاكتفاء بما تم الاستيلاء عليه من مناطق الجزء الغربى لنهر السند وعدم عبوره الى الجهة الشرقية(٢٢) .

---

(١٩) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجز الثالث ص ٥٣٤ - ٥٣٦ .
(٢٠) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ص ١١٢ - ١١٤ .
(٢١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الاول ص ٢٧٠٦ .
(٢٢) وقد ظل جيش المسلمين باقيا فى بكران حتى استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب

الفصل الرابع

عصر عثمان بن عفان

٢٣ ـ ٣٥هـ / ٦٤٤ ـ ٦٥٦م

- توغل جيوش المسلمين فى بلاد الترك
- أسماء لامعة فى الفتوحات الاسلامية
- السند والبنجاب

توغل جيوش المسلمين فى بلاد الترك :

تسلم عثمان بن عفان الخلافة وهو فى السبعين من عمره ، وقد عكس عدم الاستقرار السياسى تأثيراته على البلاد التى كان قد تم فتحها فى عصر النبوة وأبى‌بكر الصديق وعمر بن الخطاب . ومن ناحية أخرى فان عثمان كان يختلف فى شخصيته عن سلفيه أبى‌بكر وعمر ، فقد اشتهر عثمـان بسهولة تعامله مع الناس ، فلم يمنع أحدا من الصحابة من الخروج والانتقال الى بلد آخر . وجمع عثمان بين الصفة الاسلامية التى منحته مكانة ومنزلة عالية لمشاركته النبى صلى الله عليه وسلم لنشر الدعوة الاسلامية فضلا عن انتمائه للبيت الأموى صاحب النفوذ التجـارى الأقوى فى العصر القرشى ، وكان لهذا تأثيره على نجاح العصبيات التى ضاقت فى عصر سلفه عمـر بن الخطاب عن اختراق الجبهة الاسلامية وتماسكها .

ولأول مرة فى تاريخ الدولة الاسلامية ، يسجل الصراع على(١) السلطة انتصـــارا لتيـــار وهزيمة لآخر مع أن التيـارين كانا ينضـويان تحت المظلة الاســلامية ، وكان من الطبيعى أن ينقـاسم النفوذ العـــديد من الشخصيات من الأقارب المقربين لعثمان بن عفـــان حيث أسند اليهم أهم الولايات فى الدولة الاســلامية ، فأقر نافع بن الحارث الخزاعى على مكة ، وسفيان بن عبد الله الثقفى على الطـــائف ، ويعلى بن منبه على صـــنعاء ، وأبا موسى الأشعرى على البصرة ، وعمرو بن العاص على مصر ، وعمر بن سعد على حمص ، ومعاوية بن أبى سفيان على دمشق وعثمان بن العاص على البحرين ، وسعد بن أبى وقاص على الكوفة .

وترجع المصادر أن عثمان قد ولى سعدا على الكوفة عملا بوصية عمر ابن الخطاب ، غير أن عثمان قد عزله(٢) بعد عام خشية انقسام المسلمين ،

---

(١) سوف نتعرض فى المتن لتأثير هذا الصراع على البلاد المفتوحة ، وهو ما يتعلق بمجال هذه الدراسة ، راجع : دكتور محمد جمال الدين سرور ، الحياة السياسية فى الدولة العربية الاســلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة . دار الفـكر العربى ، القـاهرة ١٩٦٦ ص ٤٣ ـ ٥٩ .

(٢) راجع أسباب عزل سعد بن وقاص فى : الطبرى ، مصدر سابق ، الجزء الخامس ، ص ٤٠ ـ ٤٥ . ى

كما عزل عقبة بن فرقد عن أذربيجان التى كانت تابعة للكوفة ، وفى عهد عثمان أيضا ، ثار أهل أرمينية ، وكانت تابعة للكوفة هى الأخرى ، فبعث اليهم سلمان بن ربيعة الباهلى فأخضعهم • وكتب عثمان الى الوليد بن عقبة ابن أبى معيط - وأمه أم عثمان - أن يمد أهل الشـــام بجيش ، فبعث الوليد ثمانية آلاف بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلى الذى حارب الروم مع جيش معاوية وأبلى الجيش بلاءا حسنا(٣) ، وبقى الوليد بن عقبة أميرا على الكوفة حتى عزله عثمان بسبب شربه الخمر ، وولى مكانه سعيد بن العاص الذى اهتم بأمور الكوفة وبعث جموعا من المسلمين فيهم الحسن والحسـين أبناء على بن أبى‌طالب ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وحذيفة بن اليمان ، ففتحوا طبرستان ، وكان ذلك فى سنة ثلاثين للهجرة •

وفى عهد عثمان توغلت جيوش المسلمين فى بلاد التـرك ، والخزر ، وجيلان ، وجرجان ، وتولى أبوموسى الأشعرى امارة الكوفة خلفا لسعيد بن العاص ، حيث عزف سكان الكوفة عن سعيد واختاروا أبا موسى الأشعرى ، وكتب عثمان بن عفان الى أهل الكوفة قائلا : « أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم ، وأعفيتـكم من سـعيد ، والله لأقرضنكم عرضى ، ولأبذلن لـكم صبرى ••• » ثم جاء أبو موسى الكوفة ، وخطب أهلهـا ، وأمرهم بلزوم الجماعة ، واستمر أميرا عليها حتى مقتل عثمان •

أما البصرة ، فقد تولى أمرها أبو موسى الأشعرى كون عمر بن الخطاب قد ولاه اياها ، وظل فيها الى السنة التاسعة والعشرين للهجرة ، ثم عزله عثمان بعبد الله بن عامر ، بعد أن ضم اليه عمان والبحرين ، وحينما تمرد أهل فارس على أميرهم عبيد الله بن معمر ، فقد سار عبـد الله بن عامر اليهم ، وقاتلهم ، وهزمهم ، وفتح اصطخر ، وتذكر المصادر(٤) أن يزدجرد - آخر ملوك الفرس - قتل فى السنة الواحدة والثلاثين للهجرة حيث سار عبـد الله بن عامر بجيش المسلمين لفتح خراسان التى تحرر أهلها حينما علموا بمقتل الخليفة عمر بن الخطـاب ، فلما فتحها ، سـار الى قهســتان ثم نيسابور ومنهناك وجه الأحنف بن قيس الى طخارستان ، ومرو الروذ ، والطالقان ، وبلخ ففتحها جميعا ، ولكنه لم يتمكن من فتح خوارزم وآجم

---

(٣) المصدر نفسه ص ٤٦ - ٤٨ •

(٤) حول كيفية مقتل يزد جرد وظروف قتله ، راجع : الطبرى ، الجزء الخامس ، مصدر ••

الى البصرة قائلا « لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أخـرج معتمرا من موقفى هذا » .

وتجدر الاشارة أن عبدالله بن سبأ اليهودى ذى الأقوال الضـريبة عن الاسلام ، قد ظهر فى عهد بن عامر ، ونزل فى بنى حكيم ، وكانت آراؤه غير المقبولة سببا فى استدعائه من جانب ابن عامر الذى سألة قائلا : « من أنت ؟ » فقال : أنا رجل من أهل الكتاب ، رغبت فى الاسلام ، وفى جوارك ، فقال ابن عامر : ما بلغنى عنك ، أخرج عنى ، فخرج عبد الله بن سبأ حتى أتى الكوفة ، فأخرج منها ، ثم أتى الشام ، فأخرج منها ، ثم أتى الحجاز ، فأخرج منه(٥) .

أما الشام ، فقد سبقت الاشارة أنه كان بيد معاوية فى عهد عمر ، وأن عثمان بن عفان قد أقر معاوية فى عمله ، وفى السنة الثانية من ولاية عثمان ، غزا معاوية الروم ، وبلغ عمورية ، وحصون أنطاكية ، وطرسوس ثم رجع ، فأمره الخليفة أن يغزى حبيب بن مسلمة القهرى أرمينية وما اليها فوجهه اليها ، وفتح (قاليقلا) ، وصالح أهلها ، ثم كتب الى عثمان ينبئه أنه بطريق ارمينية قد جمع جموعا كثـيرة من المسلمين ، وأن الله سبحانه وتعالى قد مكن المسلمين من الأرض ، وفتح الله على أيديهم تلك البـلاد حتى « تفليس » و « آران » و « برذعة » .

---

(٥) ويذكر الطبرى ان عبد الله بن سـبأ أتى الى مصر « فعشش فيها ، وباض ، وفرخ ، وكان من أقواله غير المقبولة : ان عليا وصى محمد وقد غصبه ، من ولى قبله ، والواجب على المسلمين أن يسدوا الأمر لأصحابه » ويضيف الطبرى انه قد تبعه جمع كثير من مصر وغيرها ولعب دورا كبيرا فى اثارة الفتن . راجع : المصدر السابق ص ٥ ـ ٩٨ ، دكتور محمد أسعد طلس ، مرجع سابق . ص ١٨٥ ـ ١٩٧ .

- أسماء لامعة فى الفتوحات الاسلامية :

الواقع أنه منـــذ السنوات الأولى من تاريخ الدولة الاسلامية الفتية وقضية الفتوحات الاسلامية التى هى فى حقيقتها كانت جهادا بدأه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المسلمين الأوائل فوصلوا بالاســلام شرقا . وفى فترة الخلافة الراشدة بلغوا حدود الصـين شرقا ، وهؤلاء الـرجال ضربوا أمثلة رائعة فى الجهاد الاسلامى قائلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك . وهم الذين ما تخلوا عن ذلك أبدا ، فمع خلافة الصديق رضى الله عنه - كما سبقت الاشارة - فقد قمعوا المرتدين محافظين على وحدة الاسلام فى الجزيرة العربية .

ولمع رجال أمثـال سعد بن أبى وقاص ، وخالد بن الوليد ، والمثنى ابن حارثة الشيبانى وغيرهم ، والأخير - كمـا ترى بعض* الدراسـات - لم تحظ سيرته وأخبار جهاده ما تستحقه من التأمل ، فالمثنى قاد جيوش المسلمين فى بداية عهـدها بالفتوحات ، وكان عليه أن يبـدأ بالمواجهة العسـكرية مع القوات الفارسـية متحملا بذلـك مسـئولية ضخمة حيث الصمود أمام هــذه الجيوش ذات التقـاليد العسكرية القديمة ، وقبـل استشهاده فى العراق ترك وصايا عديدة كانت بمثـابة دروس مستفادة من الفتوحات الاسلامية السابقة ، وأمثال المثنى كثير ممن أعلوا النداء الخالد « الله أكبر » شرقا فى آسيا بصفة خاصة .

وعموما فقد تم فتح العراق ومصر والشام على فترات متتابعة فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، غير أن تمرد بعض أهل البلاد المفتوحة قد جعـل عثمان يركز فى قمع هذه التمردات واعادتهم الى مظلة الاســلام حيث أعاد عثمان فتح(٦) خراسان وبلخ ، وفتح بلاد طبرستان ، وسرحسن ، وبلاد الجزر ، حتى وصلت جيوش المسلمين الى (بلنجر) ، وهى أكبر مدنهم - وتقع خلف دربند . وفى آسيا الصغرى تم فتح بلادها وجزائر بحر الروم .

وبالرغم من أن هذه الفتوحات تعتبر متواضعة اذا ما قيست بانجازات سلفيه أبى بكر وعمر ، فقد شهدت الفتوحات الاسلامية ، لأول مرة ، ظهور نواة البحرية الاسلامية فى عصر عثمان حين أدرك معاوية بن أبى سـفيان

---

* راجع : دكتورة فتحية عبد الفتاح النبراوى ، دراسة فى عصر الخلفاء الراشدين الادارة العامة لكليات البنات ، الرياض ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ص ٣١٧ - ٣٢٠ .

(٦) بالاضافة الى مصر وبلاد النوبة وشمال افريقيا كله ، وهو ما لا يتعلق بمجال هذه

خطورة هذا السلاح ، فدأب على انشاء دار لصناعة السفن وعمل على تثبيت أقدامه على أرض الشام . وقد وفرت قرابته لعثمان بن عفان ما جعل من ولايته للشام داعيا لاتخاذ مبادرات جريئة ، فاذا أضيف الى ذلك أوضاعه القبلية القوية ، فقد انعكس ذلك على انشاء قوة اسلامية عسكرية ضاربة تولت حماية الدولة الاسلامية والدفاع عن شواطىء ولايته المهددة بالغارات البيزنطية من وقت لآخر .

وترتبط الفتوحات الاسلامية فى آسيا فى عصر عثمان بن عفان بالعديد من الأسماء اللامعة فى تاريخ الدولة الاسلامية الفتية بدءا بالوليد ابن عقبة الذى غزا أذربيجان وأرمينيا حيث منع سكانها ما اتفقوا وصالحوا عليه حذيفة بن اليمان أيام عمر بن الخطاب ، وهناك أيضا أمير خراسان عمير بن عثمان بن سعد الذى غزا « فرغانة » فى العام التاسع والعشرين للهجرة ، كما سار فى العام نفسه أمير سجستان عبد الله بن عمير الليثى الذى وصل الى كابل ، كما انطلق عبد الله بن معمر التميمى فوصل الى نهر السند ، وقد سبقت الاشارة الى أن أمير الكوفة سعيد بن العاص قد أراد الاستيلاء على خراسان ، ومما تجدر الاشارة اليه أن الحسن والحسين ابنا على بن أبى طالب قد رافقا سعيد بن العاص ومعهم عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير ، غير أن أمير البصرة عبدالله بن عامر كان قد سبقهم نحو خراسان ، ثم اتجه الى بقية بلاد فارس بعد أن تمردت كما سبقت الاشارة ، حيث انتصر جيش المسلمين ، وكان الأحنف بن قيس - وهو من الأسماء اللامعة فى الفتوحات الاسلامية فى آسيا - على مقدمة جيش المسلمين الى خراسان ، ففتح طوس ، وأبيورد ، ونسا ، وبلغ سرخس وصالح أهل مرد ، وأعاد بالتالى فتح خراسان .

أما سلمان بن ربيعة الباهلى فقد سار الى منطقة الباب ليساعده أخاه عبدالرحمن الذى استشهد فى معركة ضد خصومه ، وطلب الخليفة عثمان ابن عفان من أهل الشام بامرة حبيب بن مسلمة أن ينجدوا سلمان ففعلوا .

وسار عبد الله بن عامر الأحنف بن قيس الى مرد الروز فصالح أهلها ، وتذكر المصادر أن سكان (الطالقان) و (فارياب) و (الجوزجان) و (طخارستان) قد اجتمعوا ضده ، فانتصر عليهم ، كما سار الأقرع بن حابس الى (جوزجان) بعد أن تمرد أهلها ، ففتحها ، وعاد الأحنف الى خراسان مرة ثالثة فى العام الثالث والثلاثين للهجرة : وهو ما يستدعى وقفة لتفسير انجازات الفتوحات الاسلامية الى بلاد السند والبنجاب فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

السند والبنجاب :

سبقت الاشارة أن الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنــه أمر واليه على العراق بأن يتوجه الى ثغور الهند - حيث يذكر بعض المؤرخين المسلمين اسم الهند بدلا من السند مع أنهم يقصدون السند كما تدل على ذلك سياق الأحداث التاريخية - ، ووجه الوالى الى بلاد السند حكيم بن جبلة العبدى ، فلما جمع المعلومات عن تلك البلاد وعاد ، أوفده الوالى الى الخليفة عثمـان الذى سأله عن أحوال البلاد ، فقال العبــدى : « يا أمير المؤمنين قد عرفتها ونحريتها • قال الخليفة : صفها لى ، فقال : « ماؤها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل ، ان قل الجيش فيها ضاعوا ، وان كثر جاعوا » فقال الخليفة : « أخابر أنت أم ساجع ! » قال : بل خابر • فلم يأمر الخليفة بغزو البلاد فى عمقها مع أن الجيش الاسلامى كان لا يزال فى اقليم مكران ببــلاد الســند منذ عهد الخليفة عمر •

اكتفى العرب بحكم اقليم مكران وهو ثغر السند (كراتشى حاليا) ، والتى تم تعيين عبيد الله بن معمر التميمى حاكما عليها من قبل عبــد الله ابن عامر بن كريز القشيرى الذى عين واليا على العراق بدلا من أبى موسى الأشعرى سنة ٢٩هـ ، وقد توسع عبدالله التميمى فى الفتوحات الاسلامية فى تلك المنطقة حتى بلغ نهر السند ، وباستشهاد الخليفة عثمان بن عفــان رضى الله عنه فى سنة ٣٥هـ طويت صــــفحة جديدة مشرقة فى الفتوحات الاسلامية التى وصلت الى أعماق بلاد السند •

الفصل الخامس

عصر علي بن أبي طالب

٣٥ - ٤٠هـ - / ٦٥٦ - ٦٦١م

● خضوع الأقاليم المفتوحة فى آسيا

خضوع الأقاليم المفتوحة فى آسيا :

ليس مجال هذه الدراسة استعراض لحياة وسيرة ومزايا على بن أبى طالب رضى الله عنه ررغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعتبره بمثابة هارون من موسى ، ولكن مجال هـذه الدراسة هو ما يتعلق بحركة الفتح الاسلامى تجاه آسيا ، خاصة وأن هيبة الدولة الاســلامية الفتية كادت تهتز اذا لم يستتب الأمن فيها. ، وكان لعلى رضى الله عنه بعض الملاحظات على بعض الولاة ، فقرر أن يستبدل هؤلاء الولاة ، غير أن بعض الصحابة رأوا التريث حتى تستقر الأوضاع السياسية بعد قتل الخليفة الراشدى الثالث — عثمان بن عفان فى الثامن عشرة من ذى الحجة عام خمسة وثلاثين للهجرة — ورفض على بن أبى طالب آراء المنـادين بالتريث ، ووجد أن هيبة الدولة الاسلامية لا تتحقق اذا لم يتمكن الخليفة من عزل وال(١) ٠

وتأسيسا على ذلك ، صدرت أوامر الخليفة على بن أبى طالب بعـزل الولاة وعمال الخراج ، وبقية المسئولين فى العهد السابق ، واستبدالهم بفئة جديدة غير متورطة فى السياسة ، وليست لأسمائها شهرة كبـيرة خارج « المدينة » ، ولم تقم عقبـات تذكر فى وجه الولاة الجدد باستثناء ما كان متوقعا فى الشام وهى المنطقة التى استشهد فيها ميلاد دولة اسلامية قوية المستقبل فى آسـيا ، هنـاك كان الخصم الأموى الذكى يعمل على توطيـد اللامركزية فى الحكم والادارة وفق مفهوم مفـاده الاستمرارية فى البيت الأموى ، وحين بعث الخليفة بسهل بن حنيف الى الشام ، رده معاوية من حدودها ٠

وبعث على بعثمان بن حنيف — وهو من أعلام الأنصار — فدخلها ، وارتحل عنها واليها السابق عبد الله بن عامر متجها الى مكة . وأبقى الخليفة

---

(١) تذكر المصادر ان رؤية على بن أبى طالب هذه نابعة من ان الوالى بمثابة الخليفة وأنه يرفض الأوامر ويرفض البيعة أو يأخذها لنفسه ، ويتعدد هنا الخلفاء وهذا أمر غير جائز فى الاســلام ، كما رأى على بن أبى طالب ان العصاة يتسببون فى عدم الاستقرار السياسى فى المدينة . وبالتالى لن يمكن كخليفة للمسلمين أن يقيم حدود الله ، راجع : محمود شاكر ، التاريخ الاســلامى ، الجزء الثالث (الخلفاء الراشدون) المكتب الاســلامى . بيروت ١٩٨٥ — ٣٦٠ — ٣٦١ .

على ، أبا موسى الأشعرى على الكوفة ، ومن هناك بعث أبو موسى الأشعرى ببعيته وبيعة أهــل الكوفة الى أمير المؤمنين ، وبعث الى اليمن ابن عمه عبيد الله بن عباس فلما وصل اليها رحل عنها عاملها السابق يعلى بن أمية .

وباستثناء الشام ، فقد خضعت الأقاليم المفتوحة فى آسيا فى معظمها لأمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ولم يرسل معاوية بن أبى سفيان بالبيعة الى على .

لقد ظل الاسلام على اشراقه فى الأقاليم المفتوحة فى آسيا فى الفترة القصيرة التى تولى فيها على بن أبى طالب الخلافة ، ففى الكوفة — كما سبقت الاشارة — جاء واليها الجديد أبو موسى الأشعرى غير راغب فى الفتنة والقتال بين المسلمين ضد بعضهم البعض ، فضلا عن أن أهــل الكوفة — وهــذا هو المهم — كانوا متعددى الآراء والاتجاهات والميــول ، فبعضهم يميل الى الزبير ، وبعضهم يرغب فى على ، ولكنهم لا يحبون القتال ، وبعضهم متشدد يرى أن القتال أمر لابد منه .

وعنــدما كتب أمير المؤمنين على بن أبى طالب يستحثه على قمع بذور الفتنة حرصا على استقرار النظام السياسى للدولة الاسلامية ، فان أبا موسى ظل على اصراره ، ولم يتوصل بالتالى الى حل حاسم ، فقام أمير المؤمنين على ابن أبى طالب بارسال العديد من الحلفاء لأبى موسى ، فلما لم تجد المناقشات التى دارت بين الطرفين ، أرسل ابنه الحسن الذى دعا أهل الكوفة لنجدة خليفتهم ، وأخرج الأشتر النخعى أبا موسى من قصر الامــارة ، فانطلق أبو موسى الى مكة وأقام بها .

سبقت الاشارة أن الخليفة أرسل واليا جديدا الى البصرة هو عثمان ابن حنيف ، الذى سار اليها ودخلها ، وأخرج منها عبدالله بن عامر وكانت بوادر الفتنة قد ظهرت فى البصرة حينما رجع اليها ابن عامر عائدا من مكة وتكلم طلحة والزبير ورد عليهم عثمان بن حنيف ، وكاد الناس يقتتلون ، ثم تكلمت عائشة رضى الله عنها ، فانقسم المجتمعون حيث أيدها الكثيرون ، غير أن بعض الغوغائيين المثيرين للفتنة والتطرف بشأن التحقيق فى مقتل عثمان من ناحية ، وبيعة على بن أبى طالب من ناحية أخرى ، هؤلاء الغوغاء أثاروا العديد من المشكلات ، ومع ذلك اتفق المجتمعون على أن يبعثوا رسولا الى المدينة لينظروا هل تمت مبايعة طلحة والزبير مكرهين أم بالرضــاء ؟ فان كان ذلك ، أخلا عثمان بن حنيف لهما البصرة ، وان كانا قد بايعا عن

وضاء خرجا من البصرة ، وأن يبقى كل فريق على ما تحت يده حتى يعود الرسول ، وينزل طلحة والزبير ومن معهما حيث شاءوا ، وأن يصلى عثمان ابن حنيف بالناس ، ويبقى بيت المال تحت يده ، وله أمر البصرة ، وذهب كعب بن ثور الى المدينة ، فسأل أهلها عن بيعة طلحة والزبير ، فلم يجبه أحد ، ثم أجابه أسامة بن زيد بأنهما بايعا مكرهين .

رجع كعب الى البصرة بهذه الأخبار فاختلف الفرقاء ، وعاتب على بن أبى طالب عامله فى البصرة ، وقال : انما طلحة والزبير لم يجبرا على البيعة الا خوفا من الفرقة ، وتضاءل أنصار عثمان بن حنيف وانقض عليه الغوغاء فسجنوه ، ثم بعثوا به الى على بن أبى طالب ، ولم يكن ابن حنيف عدوا ، فلم يتعرض لأى عتاب من أمير المؤمنين ، وبخروجه من البصرة فقد أصبحت تحت امرة الفـــريق المكى (طلحة والزبير وعائشة رضى الله عنها) وهو ما يستدعى وقفة للتفسير .

فقد كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عنها فى طريقها من مكة الى المدينة ، عندما علمت بمقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه ، ومبايعة على ابن أبى‌طالب بالخلافة ، فاعلنت سخطها ، وغضبها ، وعادت الى مكة وهى تردد : « قتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطلبن بدمه(٢) » ، واستأذن طلحة والزبير من الخليفة على فى الخروج الى مكة لأداء العمرة ، فأذن لهمـا ، ولما وصلاها انضما الى أم المؤمنين عائشة وأعلنا أنهما بايعـا على بى أبى طالب مكرهين ، وانضم اليهم مروان بن عبدالحكم ، فتزعم هؤلاء الأربعة المطالبة بدم عثمان بن عفان وكانت أم المؤمنين عائشة قد اقترحت أن يخرجوا الى المدينة حيث كان من فيها أنصار الخليفة على(٣) . خرج الفـريق المكى الى البقيع واتفقوا على اسم الخليفة المقبل اذا نجحوا فى خطتهم ، وكانت أنباء خروجهم قد وصلت الى أمير المؤمنين على ، فرأى أن يســارع بوقف زحفهم حتى يتفرغ لمعاوية بن أبى سفيان الذى أحجم عن مبايعته ـ كمـا سبقت الاشارة ـ ، ولم يتمكن أمير المؤمنين من اللحاق بهم قبل وصولهم البصرة ، فتمكنوا من السيطرة عليها وطردوا واليها عثمان بن حنيف ـ كما سبقت

---

(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والأنبياء ، الجزء الرابع ، ص ٣٨٤ .

(٣) الدكتور أحمد قاعور ، الدكتور شحادة الناطور ، مرجع سابق ص ٨٩ نقلا عن كارل جراكلمان ، ترجمة نبيه فارس ، ومنير البعلبكى ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٥ ص ١٣٨ .

الاشارة — وانضم اليهم كثير من أهل البصرة فى المطالبة بدم عثمان بن عفان ، وازداد الأمر خطورة حيث استطاع طلحة والزبير اقناع جموع المسلمين المؤيدة لهم بأن الخليفة ضم اليه « المحرضين » على قتل عثمان ، وأدى هذا الاضطراب الى حدوث مواجهة عرفت بيوم أو حرب الجمل •

خرج الزبير على فرسه ، وخرج طلحة ، وخرج اليهما أمير المؤمنين ، ودنا منهما ، وذكرهما بالله وبرسوله وبالبيعة ، وتبرأ أمامهما من دم عثمان ولعن قاتليه ، فرضى الزبير ، وأقسم أن لا يقاتله أبدا ، وسكت طلحة ، واستبشرت الجموع الغفيرة . وبدأ المفاوضة بين رؤساء الفريقين لاتمام الصلح ، غير أن قتلة عثمان رأوا أن هذا الصلح ليس من صالحهم ، فهاجموا فى الظلام جنود البصرة • واشتد وطيس القتال بين الجانبين فنزل أمير المؤمنين على بن أبى طالب الى الساحة وهو يتلو قوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا ان نصر الله قريب » • اللهم افرغ علينا الصبر • ثم رفع مصحفا بيده وقال رضى الله عنه : « من يأخذ هذا المصحف ، فيدعوهم الى ما فيه ، ولهم الجنة ؟ فقال غلام اسمه مسلم بن عبدالله : « أنا يا خليفة رسول الله » ، ثم تناول المصحف ، وزحف على القوم فقتلوه . فقال على : الآن حل قتالهم ، واقتتل الناس •

وأسفرت هذه الموقعة عن مصرع طلحة والزبير ، وأسر عائشة رضى الله عنها والتى اعتزلت الحياة السياسية فور عودتها الى المدينة ، وتكمن أهمية هذه المعركة فيما يتعلق بمجال هذه الدراسة أنها أول حرب تدور بين طرفين كلاهما يدين بالاسلام فى آسيا ، وهو ما دفع على — كما تذكر المصادر(٤) — الى خوضها بروح عالية دون أن تتحكم فيه أية خلفية أخرى شخصية أم سياسية ، ومن ناحية أخرى ، فان هذه الموقعة كانت مقدمة للصراع الحتمى بين على ومعاوية ، وفى الوقت نفسه ، بداية المواجهة السافرة بين المد الاسلامى المتصاعد فى آسيا وحلفائه وبين الاتجاه القرشى من أصحاب النفوذ فضلا عن قبائل الشام الأكثر بداوة ، وأسفرت موقعة الجمل

---

(٤) الدكتور ابراهيم بيضون . مرجع سابق ص ١٢٣ ، وراجع • اليعقوبى ، أحمد ابن أبى يعقوب بن واضح (المتوفى سنة ١٩٢ هـ) ، تاريخ اليعقوبى ، الجزء الثانى ، مطبوعات المكتبة الحيدرية . النجف ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ص ١٨٢ — ١٨٤ •

ـ كما يضيف بيضون ـ عن تحجيم « المدينة » وانهاء الدور السياسي للحجاز ، بعد انتقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى أعقاب انتصاره الى الكوفة في العراق ، واتخاذها مقرا لخلافته القصيرة ، مؤثرا الابتعاد عن تطاحن الاتجاهات السياسية فى الحجاز الذى أفرغته الفتوحات الاسلامية ـ على حد وصف بيضون ـ من طاقاته ، « ولم يعد صالحا لاتخاذه مقرا للخلافة » وترتيبا على هذه الاعتبارات فان السؤال الذى يفرض نفسه : هل أدت الأحداث فى تصاعدها الى انقسام الدولة الاسلامية فى آسيا أم أن العكس هو الصحيح حيث امتدت فتوح هذه الدولة المستقبلية ـ الأموية فيما بعد ـ الى الصين في شرق آسيا ؟

الواقع ان تطورات الأحداث التالية الخاصة بالتحكيم ومعركة صفين(٥) لا تتعلق بمجال هذه الدراسة ، رغم ما انتهت اليه أحداث هذه الفتنة من الخسارة التى لحقت بعلى حيث أصبح معاوية مساويا له ومطالبا بالخلافة ، فضلا عن خروج بعض جنوده ـ وهم ما عرفوا فيما بعد بالخوارج ـ بالاضافة الى بدء ظهور الفرق الاسلامية مثل المعتزلة ، والمرجئة ، والشيعة ـ كما سيأتى تفصيل ذلك ـ فان العالم الاسلامى ـ وهذا هو الأهم ـ قد انقسم بين مؤيد لمعاوية ومؤيد لعلى وهو ما افقد الدولة العربية الاسلامية وحدتها المنشودة حيث استشهد على بن أبى طالب فى فجر السابع عشر من رمضان فى السنة الأربعين للهجرة ، واتجه الناس الى ولده الحسن فبايعوه ، وبقى الحسن فى الخلافة ستة أشهر تبادل خلالها الرسل مع معاوية بشأن تنازله عن الخلافة لمعاوية ، ودخل معاوية الكوفة ، فبايعه الناس ، وغادر الحسن الكوفة الى المدينة ، وأخذ معاوية يرتب أمور العراق ، فولى البصرة عبدالله بن عامر ، وطلب اليه أن يستمر فى حرب سجستان ، وخراسان . وقفل هو الى الشام فغزا بلاد الروم ، وهزمهم(٦) واستقرت له الأمور .

وفيما يتعلق ببلاد السند ، فقد كان تاغرين دعر قد عين قائدا على الجيش العربى الذى تقرر ارساله لغزو بلاد السند من قبل الخليفة على بن

---

(٥) راجع تفصيلا : المسعودى ، أبو الحسين على بن الحسين بن على (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الأول ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، بدون مكان نشر ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ص ١٤٩ .

(٦) الطبرى ، الجزء السادس ص ٩٢ ـ ٩٨ .

أبى طالب رضى الله عنه ، غير أن تاغرين عين الحارث بن مرة العبدى نيـابة عنه وكان قائدا شجاعا ، وبعد أن وصل الجيش الى مكران ، سار الى القيقان واشتبك جيش المسلمين مع جيش أهلها الذى كان عدده عشرون ألف جندى فى حين كان جيش المسلمين لا يتعدى الألف ، غير أن المسلمين قد انتصروا بفضل عقيدتهم الاسلامية وشجاعتهم الفائقة وأسروا آلافا من أهل القيقان .

ولما وصلت أخبار استشهاد(٧) على رضى الله عنه ، وأن معاوية صار خليفة

---

(٧) والواقع ان عليا رضى الله عنه كان حريصا قبل استشهاده على عدم سفك الدماء ، وعلى عدم مواجهة أكثر من عدو فى وقت واحد . ويورد الطبرى احدى الوثائق الهامة المتمثلة فى كتاب على رضى الله عنه ، الى الخوارج قائلا « بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فان هذين الرجلين - يقصد عبدالله بن وهب وزيد بن حصين - اللذين ارتضينا حكمهما قد خالفا كتاب الله . واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله ، فلم يعملا بالسنة ، ولم ينفذا القرآن . فاذا بلغكم كتابى هذا فاقبلوا فانا سائرون الى عدونا وعدوكم . ونحن على الأمر الأول الذى كنا عليه السلام (الطبرى . تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٧٧) . أما رد الخوارج على أمير المؤمنين فنترك الطبرى يسرده قائلا « أما بعد فانك لم تغضب لربك ، انما غضبت لنفسك ، فان شهدت . فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك . والا نابذناك على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين » .

فلما سلم على رضى الله عنه كتابهم رأى ان يتركهم ويمضى الى الشام ، ونزل بالنخيلة ، وأتت عليه جيوش الكوفة والبصرة واجتمع عليه رجال بلغوا ثمانية وستين الفا ومائتى رجل ، وانقسم الناس ، فريق رأى أن نسير على بهم لقتال الحرورية . وفريق رأى أن يقاتلوا بقوة أهل الشام أولا . ويروى أنه رد قائلا « سر بنا يا أمير المؤمنين حيث شئت » (الطبرى ، ج ٥ ص ٧٧ - ٧٨) .

ولم يلبث على رضى الله عنه ان رأى الخروج اليهم . واستعد لحربهم واستعدت الخوارج فبأت قواتها ، الا ان عليا حاول أن يستميل بعضهم عله يؤجل القتال ، أو ينهى الخلاف ، فدعا الى الأمان . فأجاب البعض . وأصر البعض على القتال . وقاتلهم على بن أبى طالب . فأتى رجاله عليهم وقتلوهم شر قتلة بالنهروان . واستولوا على سلاحهم ودوابهم ومتاعهم وعبيدهم وامائهم . فأما السلاح والدواب فقسمة على فتى شهد الحرب . وأما المتاع والعبيد والاماء فرده الى أهله (الطبرى ج ٥ ص ٨٨) .

.. وليس مجال هذه الدراسة استعراض تفصيل نتائج التحكيم وقد توسع الطبرى فى ذكر ذلك (الطبرى ج ٥ ص ١٣٧ - ١٤٠) . وانما ما يعنينا هو الى أى مدى تأثرت أوضاع المسلمين فى آسيا باستشهاد على رضى الله عنه ، ويروى الطبرى أن أهل العراق قد استخلفوا ابنه الحسن ، وكان لا يريد القتال - على نحو ما ورد فى المتن - وقال موجها حديثه =

للمسلمين سنة ٤١هـ ، عاد الجيش العربى الى مكران ، وتبع ذلك اشتباك الحارث بن مرة العبدى سنة ٤٢هـ فى حرب دامية مع أهل القيقان ، غير أنه استشهد ومعه معظم قواده وجنوده لقلة عددهم ـ كما سبقت الاشارة ـ حيث تعيش مكران (ثغر السند) تحت حكم العرب حتى تم فتح بلاد السند كلها على يد محمد بن القاسم الثقفى فى سنة ٩٢هـ .

= لأهل العراق : « انه سخى بنفسى عنكم ثلاث : قتلكم أبى ، وطنكم اياى ، وانتهابكم متاعى » وقيل انه خرج الى مسجد الكوفة فخطب أهلها قائلا : « يا أهل الكوفة ، اتقوا الله فى جيرانكم وضيفانكم ، وفى أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم الذى أذهب عنكم الرجس وطهركم تطهيرا » . (الطبرى ، ج ٥ ص ١٥٩ ـ ١٦٥) ثم توجه الحسن الى المدينة المنورة ومعه أخوه الحسين حيث بدأت مرحلة جديدة فى الفتوحات الاسلامية بآسيا فى عهد المغاربة .

الباب الثانى

الفتوحات الإسلامية في عصر الدولة الأموية

الفصل الأول :	من عهد معاوية بن أبى سفيان	٤٠ ـ ٦٠هـ
	الى يزيد بن معاوية	٦٠ ـ ٦٤هـ
الفصل الثانى :	من عبدالملك بن مروان	٦٥ ـ ٦٦هـ
	الى الوليد	٨٦ ـ ٩٦هـ
	وسليمان بن عبد الملك	٩٦ ـ ٩٩هـ
الفصل الثالث :	من عمر بن عبدالعزيز	٩٩ ـ ١٠١هـ
	الى سقوط الدولة الأموية	سنة ١٣٢هـ

الفصل الرابع : محمد بن القاسم الثقفى وفتح السند

الفصل الخامس : بلاد السند بعد محمد بن القاسم الثقفى

الفصل الأول

من معاوية بن أبي سفيان
(٤٠-٦٠هـ / ٦٦٠ - ٦٨٠م)
الى يزيد بن معاوية
(من ٦٠ - ٦٤هـ/ ٦٨٠ - ٦٨٤م)

- توطيد أركان الدولة الاسلامية
- السند والبنجاب
- عهد يزيد والفترة اللاحقة
- حركة انتشار الاسلام والفتوحات الاسلامية فى آسيا

عصر معاوية بن أبي سفيان ٤٠-٦٠هـ - ٦٦٠-٦٨٠م

- توطيد أركان الدولة الاسلامية :

يحفل التاريخ الاسلامي في العصر الأموى بالفتوحات التي أعلت شأن الاسلام • وبالرغم من بروز الأحزاب والفرق الاسلامية منذ ولادة الدولة الأموية - كما سيأتي تفصيل ذلك - مما استنفد جهودا كبيرة من جانب الدولة الأموية - وخاصة تجاه معارضيها - الا أنها رغم ذلك استطاعت أن تمد نفوذها الى بلاد الصين وسهول آسيا وكذا الى المحيط الأطلسي والمحيط الهندي والصحراء الافريقية •

واجهت الدولة الأموية كثيرا من الصعوبات والعقبات الداخلية من الأحزاب الاسلامية المعارضة ، ويتساءل أحد(١) من المؤرخين المسلمين المعاصرين عما يكون عليه الحال لو أن الجو كان مهيئا لبني أمية ونعمت بالهدوء والسلام في الداخل •• ماذا كان سيتم على أيديهم من فتوحات ؟ ويجيب قائلا : « ان أغلب الظن أن الأرض كانت ستبدل غير الأرض ، وأن موجة الفتح الاسلامي كانت ستكتسح كل ما يصادفها من عقبات فيعلو لواء الاسلام خفاقا في أغلب الانحاء من أرض الله الواسعة » •

ان انجازات الفتوحات الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين قد استلزمت بذل مزيد من الجهود المضنية من جانب معاوية بن أبي سفيان لتوطيد أركان الدولة الاسلامية وتوفير الأمن والسلام في ربوعها ، ومع ذلك فقد تطلع معاوية الى المزيد من الفتوحات الاسلامية فتابع الجهاد والغزو • واذا كان عصر الخلفاء الراشدين قد شهد فتوحات في بلاد الفرس وصولا الى السند والشام ومصر وجزءا من بلاد المغرب ، فان معاوية قد وصلت جيوشه الاسلامية لفتح القسطنطينية سنة ٤٨هـ • وأعاد فتح افريقيا ونشر الاسلام في ربوعها - وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة - وتضاعف نفوذ المسلمين في دولة الروم •

---

(١) دكتور محمد الطيب النجار ، الدولة الأموية في الشرق ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١١٢ - ١١٦ • وراجع أيضا : محاضرات في تاريخ العالم الاسلامي ، دار الاتحاد العربي

ولعل من أفضل انجازات الدولة الأموية على صعيد الفتوحات الاسلامية في آسيا هو سد ثغرات السواحل الشامية الآسيوية التى لم تسلم من الهجمات المفاجئة للبيزنطيين فى عصر الخلافة الراشدة ، ويذكر البلاذرى[٢] أنه قد أقيمت فى الفترة الأولى من حكم معاوية بن أبى سفيان أول نظام دفاعى ، بالاضافة الى نظام « الشواتى والصوائف[٣] » المتمثل فى دوريات منتظمة تتوجه الى الأراضى البيزنطية ، وقد تفوق جيش المسلمين فى وضع أسس هذا النظام خاصة بعد استقرار الأوضاع السياسية للدولة الاسلامية على الصعيد الداخلى ، وانتقال « الخلافة » رسميا الى البيت الأموى ، ويعتبر قادة الجيوش الاسلامية هم الذين تفوقوا فى هذا الحقل حيث تمرسوا فى فنون القتال ، وطبيعة الأرض الجبلية ، وكان فى طليعتهم عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ، ومالك بن عبد الله الخثعمى المعروف بـ « مالك الصوائف[٤] » ، فضلا عن مالك بن هبيرة السكونى وحبيب بن مسلمة الفهرى ويسر بن أرطاة القرشى وآخرين من قادة الشام المسلمين الذين كانت لمهارتهم القتالية الفائقة سقوط بعض المواقع البيزنطية الهامة فى أيدى المسلمين ، ومنها « ملطية » أحد أشهر الثغور فى آسيا الصغرى .

ويذكر بيضون[٥] أن نظام « الصوائف » قد عمل بجناحين متوازيين أحدهما استهدف السيطرة على الحصون والمعاقل الجبلية ، أما الثانى فهو بحرى استهدف الجزر الواقعة فى فلك السيادة البيزنطية فضلا عن الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى ، وقد برز فى هذا المجال عدد آخر من القادة الشاميين من أمثال : معاوية بن خديج الكندى[٦] ، وعقبة بن عامر الجهنى[٧] ، ويزيد بن شجرة الرهاوى ، وعقبة بن نافع الفهرى وغيرهم[٨] ،

---

(٢) البلاذرى ، احمد بن يحيى بن جابر البغدادى ، المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان ، بدون مكان وتاريخ اصدار ، ص ١٥٩ – ١٦١ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٩ . وراجع : اليعقوبى ، مصدر سابق ص ٢١٦ – ٢١٧ .

(٤) يذكر بيضون ان اسم هذا القائد قد ورد فى عهد معاوية فى أحداث أعوام ٤٦ ، ٥٥ ، ٥٨ هـ ، كما ورد فى عصر المنصور العباسى فى أحداث عام ١٤٦ ، راجع ، الدكتور ابراهيم بيضون ، ص ١٦٥ نقلا عن البلاذرى ، مصدر سابق ص ١٩٥ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، مصدر سابق ص ٥٠١ ، ٥١٥ .

(٥) دكتور ابراهيم بيضون ، ص ١٦٥ .

(٦) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

(٧) عقبة بن عامر الجهنى أمير من الصحابة شهد صفين مع معاوية وولى مصر سنة ٤٤هـ وعزل عنها سنة ٤٧ هـ وولى غزو البحر وكان شجاعا فقيها .

(٨) الطبرى ، الجزء السادس ص ١٢٨ – ١٣١ .

الشمال

الدولة الأموية
في آسيا
(٦٦١ – ٧٥٠م) القرن الأول والثاني للهجرة

مقياس الرسم

— · — · — حدود دولة المغول الراشدية

· · · · · · · · نهر

إعداد :
شحادة علي الناطور

المصدر : الدكتور أحمد قاعور ، الدكتور شحادة الناطور ، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولي ، مطبعة الخالدي ، عمان ١٩٨٢ .

أما أشهر القادة على الاطلاق فهو عبدالرحمن بن خالد الذى كانت انتصاراته الباهرة — وباعتباره قائد النظــام الحربى الجديد — سببا فى صعود نجمه بالشام ٠

لقد عنى معــاوية عنــاية شديدة بحرب الروم فقام بتجهيز أسطول بحرى ضخم بلغت عدد سفنه — فيما يقــال — ١٧٠٠ سفينة ، كذلك فقد اهتم بالغزو البرى لبلاد الروم حيث كانت أطمــاع الامبراطور كونستانس الثــانى الذى استمر حكمه ستة وعشرين عاما (٦٤٢—٦٦٨م) مستهدفا الشام ، وبالفعل زحفت جيوشه على الشــام ٠ غير أن معــاوية كما أشــار البلاذرى(٩) قد صالح الروم على مال(١٠) ، فلما استقام له الأمر واستقرت الأوضاع السياسية الداخلية فقد وجه اهتمامه الى غزوهم ، وطلب صاحب الــروم الصلح ، فلم يجبه معــاوية وكانت أعظم غزواته(١١) ما قام به سنة ٤٧هـ حيث سير الجيش الاسلامى بهدف ضرب الامبراطورية البيزنطية ضربة قوية . وقاد ابنه يزيد ومعه الصحابى أبو أيوب الأنصارى ، وعبدالله ابن الزبير ، وعبدالله بن عمر ، وابن العباس ٠

وصــل الجيش الى حدود القســطنطينية سنة ٤٨هـ ، وحاصر المدينــة بمساعدة الأسطول الاسلامى من البحر حيث قامت معــارك عنيفة ، غير أن أسوار المدينة كانت أقوى من المهاجمين ، وامتد حصار المسلمين عليها سبع سنوات مات خلالهـــا الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصــارى ودفن تحت أسوار القسطنطينية ، وبالرغم من أن الأمويين بذلوا طاقات جبارة لانجــاح الحصار واسقاط المدينة ، الا أنهم لم يتمكنوا من فتحها ، مما دفع معــاوية الى الاعتراف بالفشل ، واصدار أوامره بانسحاب الحملة بعــد نيقنه من صعوبة الوضع الحربى والمعنــوى لجنوده ، الذين أنهكهم البرد فضــلا عن الطبيعة الجيوبولينيكية للمدينة المتمثلة فى استقرارها الأوروبى والذى يلاقى موقعها فى ذات الوقت الشــاطىء الآسيوى ، ويحميهــا بحــر مرمرة من الجهمات البحرية ، فضلا عن تزويد أسوارها الداخلية والخارجية بعدد كبير

---

(٩) البلاذرى . مصدر سابق ص ١٥٩ ٠

(١٠) ويذكر المؤرخون ان معاوية وحه اليهم من صالحهم على مائة ألف دينار وكان بذلك أول خليفة اسـلامى يصالح الروم على مــال ٠

(١١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الثالث ، ص ٤٥٨ — ٤٥٩ . وقد تم اكتشاف [illegible] سنة ١٤٥٣ م ٠

من أبراج المراقبة التى تكشف أية تحركات معادية ، كما كان يتم اقفال السلسلة الحديدية الضخمة الحاجزة ما بين القرن الذهبى (الميناء) وبين الشاطىء الآسيوى وذلك فى حالة الحصار أو الحرب الفعلية مما تطلب أسلحة متطورة واساليب مبتكرة من القتال لم تكن فى متناول الأمويين رغم ما بذلوه من جهود ، ووجد معاوية نفسه بحاجة الى هدنة طويلة مع البيزنطيين فعقد معاهدة مع الامبراطور قسطنطين الرابع الذى كان مسرفا فى معاداته للمسلمين(١٢) .

---

(١٢) راجع تفصيلا ، دكتور ابراهيم العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار ص ١٥٥ ، ١٧٥ .

- من السند والبنجاب الى قمم لبنان :

وفى آسيا امتدت الفتوحات الاسلامية فى عهد معاوية الى السند والبنجاب ، فقد طلب معاوية الى أميره على بلاد السند أن يتوسع فى الفتوحات لهذه الديار لتدخل الاسلام فسار حتى بلغ بلاد القيقان غير أنه قتل ، فطلب معاوية من المهلب بن أبى صفرة أن يتم فتح هذه البلاد ، فسار حتى وصل لاهور ، وولى سعد بن عثمان بن عفان خراسان سيده للفتح بسمرقنه ، ففتح وغزا ، وأصيبت عينه ، وملك كثيرا من هذه الديار(١٣) التى اصطلح على تسميتها مستقبلا بشبه القارة الهندية .

وفى عهد معاوية ظهر الجراجمة (أو المردة) كما يسميهم المؤرخون المسلمون ، وهم سكان جبال لبنان الذين تحصنوا فى أماكنهم ، وحينما فتح المسلمون ديار الشام ، وتغلبوا عليها ، لم يتمكنوا من الوصول الى الجراجمة لقلة أهميتها ، وعدم المنفعة منها فضلا عن تعسر مسالكها ، غير أن هؤلاء الجراجمة حينما شكلوا خطورة بسيطرتهم على قمم لبنان واثارتهم الفتنة بين العبيد والأسرى والوطنيين ، ثم استقطبوهم ضد الدولة الاسلامية ، مما جعلهم يستأثرون باهتمام معاوية . وقد أرسلوا وفدا الى قسطنطين يطلبون الصلح ويدفعون جزية سنوية ، ثم أوفد قسطنطين معهم البطريق يوحنا الى الشام ، وقابله معاوية بالترحاب ، وبعد مشاورات بين الفريقين بشأن شروط الصلح ، استقر رأيهم على صياغة معاهدة موثقة باليمين ، يدفع المسلمون بمقتضاها الى الرومانيين كل سنة مالا وجيادا(١٤) لفترة ثلاثين سنة .

ومن تقويم الفتوحات الاسلامية فى عهد معاوية ، نلاحظ أنه أسس اسلاميا ، منظما ، قويا ، استعان على تأسيسه بالشاميين من عرب وروم وغيرهم ، فأحبوه ، وأطاعوه ، وقد زخرت المصادر العربية بأخبار طاعة الشاميين وتأييدهم لمعاوية الذى اعتمد فى فتوحاته الاسلامية على الكثير من

---

(١٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، مصدر سابق ص ٤٣٨ .

(١٤) وقد نصت المعاهدة على ان يدفع المسلمون الى الرومانيين ثلاثة آلاف دينار ذهب ، وثمانية آلاف اسير ، وخمسين جوادا من الخيل والجياد .

سكان الأقاليم التى فتحهـا رغم اختلاف أجناسهم ، ومن الشـابت أن لينه وشدته قد مكناه من اشادة هذا الصرح الاسلامى الشامخ . وروى عنه قوله : « لا أضع سيفى حيث يكفينى ســوطى ، ولا أضع ســوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما قطعتها ، اذا مدوها خليتها ، واذا خلوها مددتها[١٥] » .

(١٥) ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى ، المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهره ١٩٥٣ ، الجزء الأول ص ١٠ ، ٢٠٧ .

عصر يزيد : ٦٠ - ٦٤ هـ (٦٨٠ - ٦٨٤ م) والفترة اللاحقة

أحدث غياب معــاوية الكبير من الفتن الداخلية فى أنحــاء الدولة الاسلامية وهو ما عكس تأثيراته على الفتوحات الاســلامية فى عهـد خلفه يزيد • وتفسير ذلك يكمن فى اشتعال نار الفتنة بعد وفاة معاوية ، وكان أول عمل أنجزه يزيد هو اقراره عمال أبيه على الولايات الاسلامية ، فأقر عبيد الله بن زياد على البصرة ، والنعمان بن بشير على الكوفة ، والوليد بن عتبة بن أبى سفيان على المدينة . وعمرو بن سعيد بن العــاص على مكة • وجاءت بوادر هذه الفتنة مؤشرا للانفجار المرتقب من جانب المعارضين له ، فلم يكن يزيد فى حنكة والده حيث كاد أسلوبه العقيم وقراراته الارتجالية أمام الأزمات أن تعصف بعيده فى أيامه الأولى ، فضلا عن أن مشكلة الحكم نفسه لم تكن قد حسمت بشكل نهائى أو حاز الشرعية والرضاء المطلوبين ، مثال ذلك ما كتبه الى الوليد بن عقبة قائلا : « أما بعد فخذ حسينا وعبدالله ابن عمر ، وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذا شــديدا ، ليست فيه رخصة ، حتى يبايعوا[16] » •

وتذكر المصادر أن الحسين قال لابن الزبير : يا ابن الزبير قد ظننت أن طاغيتهم قد هلك ، فبعث الينا ليأخذنا بالبيعة قبل ن يفشو فى الناس الخبر • فقال ابن الزبير : وأنا ما أظن غيره ، فماذا تريد أن تصنع ؟ قال الحسين : اجمع قيانى الساعة ثم امشى اليه ، فاذا بلغت البــاب احتبستهم عليه ثم دخلت : قال ابن الزبير : فانى أخافه عليك • فقال الحسين : لا آتيه أولا ، وأنا على الامتنــاع قادر ، ثم قام فجمع اليــه مواليه وأهـــل بيته ، ثم أتاه ، فسلم عليه بالامرة ، ومروان جالس عنده ، فقال الحسين : الصلة خير من القطيعة ، أصــلح الله ذات بينكما ، فلم يجيباه فى هـــذا بشىء ، ثم لقرآه كتاب يزيد ودعياه الى البيعة • فقــال الحســين : انا لله وانا اليه راجعون ، ورحم الله معاوية ، وعظم لك الأجر يا وليد ، أما ما سألتنى من البيعة ؟ وقال مروان : والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع ، لا قدرت عليه

---

(١٦) ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدنيورى ، المتوفى سنة ٢٧٦ ، الامامة

أو تضرب عنقه ، فوثب الحسين قائلا : يا ابن الزرقاء أنت تقتلني أم هو ؟ كذبت والله وأثمت ، ثم خرج · فقال مروان للوليـد : عصيتني : « والله لا يمكنك من نفسه أبدا » ودخل الحسين بيته ثم خرج ليلا الى مكة هاربا ·

وعندما سمع أهل الكوفة بعدم مبايعة الحسين أخذوا يراسلونه ويحثونه للقدوم اليهم ليبايعوه ويكونوا الى جانبه ، فضلا عن أن الزبير والحسين حين اجتمعا في مكة أخذا يشجعان الناس على يزيد ، ومن الأرجح أن الزبير رأى في الحسين منافسا قويا فآثر العمل على اخراجه من مكة حتى يصفو لـــه الأمر · سار الحسين من مكة منجها الى الكوفة ، فاعترضه خيل عبدالله بن زياد والى الكوفة من قبل يزيد بن معـاوية بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص مما اضطر الحسين الى النزول فى سهل لا ماء فيه بالقرب من الفرات سماه كربلاء ، وبدأت المفاوضات بين الحسين وعمر بن سعد بن أبى وقاص غير أنها باءت بالفشل ، وطلب الحسين من قائد يزيد أن يسمح له بالعودة من حيث أتى ، أو يسير الى دمشق ، أو الى الثغور ، الا أن عمر بن سـعد ابن أبى وقاص رفض جميع مطالب الحسين الذى اضطر للقتال فى معـركة غير متكافئة(١٧) بين نفر قليل هم آل بيت الحسين ومرافقوهم وجيش كبير يقوده عمر بن سعد بن أبى وقاص ، وكان القتال الذى قتل فيه الحسـين ومعظم أهل بيته فى ١٠ من المحرم سنة ٦١هـ — ٦٨١م ·

وسواء تعلق الأمر بأهل المدينة الذين تأثروا بمقتل الحسين ، وثاروا وطردوا عامل يزيد من المدينة أو تعلق الأمر بسكان الكوفة ذاتها — فقـد تحول مقتل أبرز شخصيات البيت الهاشمى الى مأساة دموية اضطربت لها ضمائر المسلمين وأركان النظـــام الأموى والخليفة ذاته ، الأمر الذى كان حدثا غير عادى فى تاريخ العلاقات السياسية الاسلامية ، ففى الحجاز حدث عصيان مدنى ، وفى مكة أعلن ابن الزبير دولته ، وتطورت الأمور على نحو غير متوقع فى العراق حيث شعرت الحركة الشيعية بتقصير وشعور بالاثم بعد اجهاض ثورتها وقتل الحسين فى مجزرة دموية ، وكانت الحملة القمعية العنيفة التى قادها عبدالله بن زيادة مستهدفة زعماء الشيعة مما أفرز حركة التوابين الانتحارية ، وحركة المختار الثقفى ومعها أول سلطة شيعية بعـد تنازل الحسين ، وفى الشام تراكمت عوامل الانهيار السياسى بعـــد وفاة

---

(١٧) الدنيورى ، أبو حنيفة أحمد بن داود الدنيورى ، المتوفى سنة ٢٨٢ هـ ، الأخبار الطوال ، تحقيق [illegible]

يزيد الفجائية فى شهر ربيع الأول سنة أربع(١٨) وستين للهجرة ، ومع ذلك شهدت الفترة السابقة على وفاته مزيدا من الفتوح الاسلامية فى آسيا.

ففى سنة ٦١هـ كان يزيد قد استعمل سلم بن زياد لغزو خراسان ، وكان فى جيشه نفر من وجوه النـاس وأبطال المسلمين مثـل عمران بن الفضـيل البرجمى ، والمهلب بن أبى صفرة ، وعبدالله بن حازم السلمى ، وطلحة بن عبيد الله الخزاعى وغيرهم ، وغزا جيش المسلمين بقاع خراسان حيث طلب ملوكها الصلح .

وفى السنة ذاتها ولى يزيد أخا سلم على سجستان .

وفى الفترة اللاحقة على موت يزيد بن معاوية تعاقب على حكم الدولة العديد من الخلفاء بدءا بمعاوية الثـانى ٦٤هـ - ٦٨٣م ومرورا بمروان بن الحـكم ٦٤ـ٦٥هـ - ٦٨٣ـ٦٨٥م ، وعبـد الملك بن مروان ٦٥ـ٨٦هـ - ٦٨٥ـ٧٠٥م ، والوليد بن عبد الملك ٨٦ـ٩٦هـ - ٧٠٥ـ٧١٥م ، وسليمان ابن عبدالملك ٩٦ـ٩٩هـ - ٩١٥ـ٩١٨م ، وعمر بن عبدالعزيز ١٠١ـ١٠٥هـ ٧٢٠ـ٧٢٤م ، وهشام بن عبدالملك ١٠٥ـ١٢٥هـ - ٧٢٤ـ٧٤٣م ، والوليد بن يزيد بن عبدالملك « الوليـد الثـانى » ١٢٥ـ١٢٦هـ - ٧٤٣ـ٧٤٤م ، ويزيد بن الوليد بن عبدالملك ١٢٦هـ - ٧٤٤م وانتهـاءا بمروان بن محمد ١٢٧ـ١٣٢هـ - ٧٤٤ـ٧٤٩م حيث باغته العباسـيون الذين كان قد بدأ ظهورهم فى خراسان وسيطروا على الحكم وقضوا على الدولة الأموية ودور الأسرة الأموية شى المشرق بعد أن حكمت نحو تسعين سنة سطرت خلالهـا فتوحات اسلامية فى آسيا على نحو ما سبقت الاشارة اليه ، فى عهـدى معاوية ويزيد ، أما الفترة اللاحقة لهما فقد سارت حركة انتشـار الاسلام والفتوحات الاسلامية فى آسيا على النحو الآتى :

من معاوية الثانى الى مروان بن الحكم الى عبد الله بن الزبير والحجاج ابن يوسف الثقفى :

خلال العام الذى حكم فيه الخليفتان معاوية الثانى ومروان بن الحكم جرت أحداث جليلة تمثلت فى فتنة أهل خراسان وأهل الكوفة وأهل البصرة . فعقب موت يزيد بن معاوية واختلاف العرب بعده ، خطب أمير خراسان سلم بن زياد مطالبا بيعة الناس له ، فبايعوه ثم نكثوا عهده بعد شهرين ، فخرج من خراسان ، وخلف عليها المهلب بن أبى صفرة ، فلما وصل نيسابور لقيه عبدالله بن حازم ، فقال له : من وليت خراسان ؟ فأخبره فقال : أما وجدت من توليه خراسان غير هذا اليمنى ، ووقعت فتنة كبيرة بين ابن خازم والمهلب ، انقسم فيها العرب قسمين : يمانية ونزارية ، وانشطر النزارية الى ربيعية ومضرية(١٩) ، وقد استمرت هذه الفتنة فترة غير قصيرة .

وفى الكوفة حدثت فتنة فور وصول خبر موت يزيد . فقد بايع أهل البصرة - الذين حدثت فتنة بينهم أيضا - عبيد الله بن زياد ، وعزلوا أميرهم عمرو بن حريث ، وأمروا عامر بن مسعود بن خلف القرشى الذى مكث أميرا لثلاثة شهور خضعت بعدها الكوفة لابن الزبير .

وفى البصرة انتهت أحداث الفتنة بهرب عبيد الله بن زياد الى الشام وخضوع البصرة هى الأخرى لعبد الله بن الزبير(٢٠) ، وتجدر الاشارة الى دور عبدالله بن الزبير ، فأمه أسماء بنت أبىبكر الصديق الذى ولد عام الهجرة وكان بالتالى أول مولود فى الاسلام يولد فى دار الهجرة ، وكان مدافعا عن الاسلام حاملا راية الجهاد ، وقد شهد معركة الجمل مع خالته عائشة . وقد سبقت الاشارة أنه حينما وقعت الفتنة بين على ومعاوية والفترة التالية ، فقد بعث به معاوية لغزو القسطنطينية فى السنة الخمسين للهجرة مع ابنه يزيد ، كذلك فقد امتنع ابن الزبير عن مبايعة يزيد ، فلما هاجم أهل الشام أهل المدينة فى وقعة تسمى وقعة الحرة متجهين الى مكة ، قاتلهم عبدالله بن الزبير ، ثم بايعه أهل الحجاز بالخلافة وانضم اليهم أكثر

---

(١٩) ابن الأثير ، الجزء الرابع ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٢٠) الطبرى ، الجزء السادس ، ص ١٨ ، ٣١ ، ٣٧ .

أهل الشام والعراق ومصر فى عهد مروان بن الحكم الذى خلفه ابنه عبدالملك حيث جرت أحداث انعكست بالتالى على حركة انتشار الاسلام والفتوحات الاسلامية فى آسيا ، وهذه الأحداث يمكن اجمالها فيما يأتى :

يذكر ابن عبد ربه أن عثمان بن عفان قد استخلف عبدالله بن الزبير على الدار يوم الدار(٢١) ، ثم ان النبى صلى الله عليه وسلم حينما جعل أبا بكر الصديق يؤم المسلمين ، فان ذلك قوى فى نفسه النزوع الى السلطة ، ويستدل على ذلك من الدور الذى أداه فى الفتنة بين على ومعاوية. وقد سبقت الاشارة الى تخلف ابن الزبير والحسين عن مبايعة يزيد ، فكان الحسين منافسه الأقوى ، فلما ذهب الى العراق حيث قضى عليه لم يبق لابن الزبير منافس يذكر ، فأخذ يدعو لنفسه ويعمل على تقوية مؤيديه فى الحجاز وخارجه ضد الأمويين مستغلا ما قاموا به من أعمال منافية للاسلام فى مرحلة من أهم مراحل الدولة الاسلامية التى تتطلع لنشر هذه العقيدة ، حيث حول الأمويون الخلافة الى ملك عضوض ، وعاملوا ولاتهم على الأقاليم المفتوحة بالقسوة والعنف ، وانهم قتلوا الحسين وغزوا الحرمين(٢٢) .

استطاع الزبير بذكائه أن يكسب الرأى العام الاسلامى وأقلق بذلك صفو الدولة الأموية ، وبايعه أهل المدينة وأهل مكة وأهل اليمن والكوفة والبصرة ، فلما مات معاوية بن يزيد بايعه أهل الشام باستثناء أهل الأردن وكذلك الحال مع أهل خراسان والمشرق ، وكاد يتم الأمر لابن الزبير بعد أن بايعته أكثر الأقطار الاسلامية والمفتوحة ، لولا أن مروان قد انتزع منه مصر ثم خلفه ابنه عبدالملك الذى واجه ما اصطلح المؤرخون على تسميته بفتنة الزبير حيث بعث هذا الأخير أخاه مصعب أميرا على العراق ثم دخول عبدالملك الكوفة حيث بايعه أهلها سنة ٧١هـ وتمكن من السيطرة على العراق . ولم يبق فى يد عبدالله بن الزبير سوى الحجاز(٢٣) ، فلما توطد الحكم لعبدالملك فى العراق فقد بعث بجيش قوى يقوده الحجاج بن يوسف الثقفى لقتال ابن الزبير فى الحجاز . فنزل بالطائف سنة ٧٢هـ ، ثم وافق عبدالملك على دخوله الحرم ، فقدم مكة محرما وحج بالناس ، الا أنه لم يطف ، ولم يسع بين الصفا والمروة لأن ابن الزبير منعه ، ثم نصب الحجاج

---

(٢١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، الجزء الثالث ص ١٦٠ .

(٢٢) المصدر نفسه ، الجزء الثالث ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

المنجنيق ، ورمى به ، فاصاب الكعبة ، واشتد الحصار على أهل مكة فخرجوا مستأمنين ٠

طلب ابن الزبير النصيحة من أمه أسماء بنت أبى بكر بعد أن خذله الناس حتى ولداه حمزة وحبيب ، فشجعته أسماء على الثبات على موقفه فقاتل الحجاج قتالا عنيفا ، وأظهر من الشجاعة والجلد ما أدهش الحجاج وصحبه ثم قتل وصلبه الحجاج فتناولته أمه فغسلته وطيبته وصلت عليه قائلة : « اللهم لا تمتنى حتى تقر عينى بجثته » ، فما ان أتت عليها جمعة حتى ماتت ، وقضى على حركة الزبير التى كانت تهدف الى ارجاع عاصمة الاسلام الى الحجاز كما كانت فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان ابن الزبير معتزا بذلك ، مساعيا له ، ولما طلب اليه أن يتـرك الحجاز الى الشام امتنع ، ويرى المؤرخون المحدثون(٢٤) أن ابن الزبير لو كان قد وافق فذهب الى الشام لاستقامت له الأمور ٠

الفصل الثاني

من عبد الملك بن مروان إلى الوليد وسليمان بن عبد الملك

● الفتن الداخلية وانعكاساتها الآسيوية

بويع عبدالملك سنة ٦٥هـ ، ولم يكد يتم له الأمر حتى اجتمع نفر من الشيعة العلوية الذين ثاروا انتقاما لمقتل الحسين نادمين على ما فرطوا فى حقه من عدم نصرته ، فأعلنوا توبتهم وسموا بالتوابين ، فبعث اليهم عبدالملك أمير العراق عبيد الله بن زياد فالتقى بهم فى عين الوردة ، وجرت بين الطرفين معارك ، أبلى التوابون فيها بلاءا حسنا وقتل رئيسهم فتشتتوا ، ثم واجه عبدالملك تمرد المختار بن عبيد الثقفى عامل الكوفة من قبيل الزبير ، فطرده ، وكان ذا مطامع واسعة ، فاستتر وراء حركة التوابين ، وانضوت الشيعة تحت لوائه من توابين وكيسانية وسبأية(١) ٠

- الفتن الداخلية وانعكاساتها الآسيوية :

حدثت العديد من الفتن الداخلية التى واجهها عبدالملك بن مروان بدءا بفتنة الخوارج والتى انتهت بارساله الحجاج المعروف بسياسته الشديدة التى مكنته من طردهم من العراق الى فارس ثم الفتك بطوائفهم وخاصة الصفرية المقيمة فى الموصل ومرورا بفتنة لبنان التى قام بها الجراجمة والمردة من جرجومة وجبل لبنان - كما سبقت الاشارة - فقد صالحهم عبدالملك الى أن صفا له الأمر ، ففتك بهم ٠ ورغم هذه الفتن فان حركة الفتوح فى آسيا قد امتدت فى الفترة من سنة ٧٤هـ الى سنة ٨٥هـ ٠

ففى سنة ٧٤هـ ولى عبدالملك بلاد خراسان لأمية بن عبدالله بن خالد ابن أسيد ، فلما أتاها ولى ابنه عبدالملك بن أمية على سجستان ، فلما قدمها

---

(١) لمزيد من التفصيل حول التوابين والكيسانية والسبأية ، راجع : الطبرى ، الجزء الأول ، البغدادى : عبد القادر بن طاهر بن محمد التميمى ، المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ اصدار . المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثانى ص ١١٤ - ١١٦ ٠

- الشهرستانى : محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر ، المتوفى سنة ٥٨٤ هـ ، الملل والنحل ، تحقيق محمد رشيد الكيلانى ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٥ ٠

غزا رتبيل وهو الملك الــذى طلب صلح المسلمين ثم تمر عليهم ، فولى عبدالملك الحجاج على هذا الاقليم اضافة الى العراق ، فبعث الحجاج المهلب ابن أبى صفرة ، وعبد الله بن أبى بكره ، فسار عبيد الله وغزا بلاد رتبيل وأصاب غنائم كثيرة ، وهدم الحصون ، كما سار المهلب الى ما وراء النهر ، وفتح حصونها ، وأقام حتى بلغ منيته فاستخلف ابنه يزيد ، وأوصاه أن يستمر فى فتوحه ، فسار يزيد حتى بلغ قلعــة نيزك بباذغيس ، غير أن الحجاج قد عزله فى سنة ٨٥هـ وولى أخا المفضل الذى غزا أفرون وشومان وفتحهما وأصاب مغنما كثيرا .

أما الوليد بن عبدالملك ٨٦ـ٩٦هـ (٧٠٥ـ٧١٥م) ، فقد أمر الحجاج باستمرار عملية الفتوح الاسلامية تجــاه الشرق ، فبعث الحجاج من قبــله قتيبة عن مسلم الباهلى أميرا على خراسان ، فأتاها ورتب أمورها ، ثم سار حتى قطع نهــر بانج بجيش كثيف ، ووصلت أخبـــاره الى ملوك ما وراء النهر ، فخافوا واستقبله ملك الصفانيان بالهدايا ثم انصرف الى مرو وبعث أخاه صالح بن مسلم لفتح كاشـــاه وأورشت فى فرغانة ، وأخسكيث ، وفى سنة ٨٨هـ غزا قتيبة نومشكت فصالحه أهلها ، وفى سنة ٨٩هـ غزا بخارى ولكنه لم يتمكن من القضاء على ملكها ، فرجع . وتذكر المصادر(٢) أن الحجاج طلب صورها وما يحيط بها من جبال وسهول ، فبعث اليه فقال الحجاج له : « ائتنها من مكان كذا وكذا ... » ، فعمل قتيبة بما أشار عليه الحجاج ، فاستطاع فتحها سنة ٩٠هـ ، وفى السنة ذاتها فتح الطالقان ، وفى سنة ٩٣هـ غزا ملك خوارزم فصالحه ثم توجه الى سمرقند ففتحها ، وفى سنة ٩٤هـ غزا قتيبة الشاس وفرغانة ، ولما رجع جاءه نعى الحجــاج فحزن لذلك ، وفى سنة ٩٦هـ غزا بلاد الصين ووصل كاشغر ، ولـما بلغه موت الوليد رجع بعد أن نشر الاسلام فى المشرق وأباح للناس قراءة القرآن الكريم بالفارسية والتركية .

أما سليمان بن عبدالملك ٩٦ـ٩٩هـ (٧١٥ـ٧١٧م) كان أول عمل قام به أنه أبعد جماعة الحجاج عن السلطة ، فعــزل عثمــان ابن حيان عن المدينة ، وولاها أبابكر بن محمد بن حزم ، ثم عزل يزيد بن أبى مسلم عن

---

(٢) دكتور محمد أسعد طلس ، مرجع سابق ، ص ١١٥ ـ ١١٨ نقلا عن ابن الأثير ، الجزء الرابع ، ص ٢٠٦ ـ ٢٢٢ .

العراق ، وولاه يزيد بن المهلب ، وأراد أن يعزل قتيبة بن مسلم فيبعث اليه يهدده بالثورة ، فاقلع ، غير أن قتيبة لم يأمن غدر سليمان ووقعت فتنة كثيرة انتهت بقتله ، فلما رأى بعض سكان خراسان ذلك قالوا للعرب : يا معشر العرب ، قتلتم قتيبة ، والله لو كان منا فمات ، لجعلناه فى تابوت ، فكنا نستقى به ، ونستفتح به ، اذا غزونا ، وما صنع أحد بخراسان مثل ما صنع قتيبة(٣) .

وقام سليمان بن عبدالملك سنة ٩٠هـ بتولية يزيد بن المهلب بلاد المشرق ، ففتح بلاد خرخان ، وطبرستان . ونفذ سليمان مشروع أخيه الوليد بغزو القسطنطينية وبعث بمسلمة بن عبدالملك على رأس جيش وأسطول كبير تمكن من بلوغ أسوار القسطنطينية ، وكادت الدائرة تدور على الروم .

الفصل الثالث

من عمر بن عبد العزيز
(٩٩-١٠١هـ/ ٧٠٧-٧٣٠م)
إلى ما قبل سقوط الدولة الأموية
سنة ١٣٢هـ

- دور البصرة فى فتح خراسان
- دخول اعداد هائلة من سكان آسيا في الدين الاسلامى
- حركة الفتوح الأموية عقب وفاة عمر بن عبدالعزيز

دور البصرة فى فتح خراسان :

سبقت الاشارة الى ما أحدثته الفتن والاضطرابات الطائفية من عدم استقرار سياسى انعكس على عملية الفتوحات الاسلامية والعلاقات السياسية فى آسيا ـ موضوع هذه الدراسة ـ وكانت أهم المناطق التى تاثرت بهذه الاتجاهات منطقة خراسان برمتها وهى المنطقة التى ستحدث فى المستقبل تغييرات جذرية سلبية تجاه الدولة الأموية وتؤدى الى اسقاطها •

كما سبقت الاشارة(١) ان خراسان كانت قد خضعت لسيطرة العرب المسلمين فى ثلاثينيات القرن الأول الهجرى ، ومن الناحية الجيوبولتيكية فهى بلاد واسعة ، أول حدودها مما يلى العراق ، وآخر حدودها مما يلى الهند وطخارستان وغزنة وسجستان وكرمان ، فضلا عن أنها تشتمل على أمهات البلاد منها نيسابور ، وهراة ، ومرو ، وبلخ ، وطالقان ، ونسا ، وابيورد ، وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التى دون جيحون(٢) •

وكان للبصرة دور أساسى فى فتح خراسان وخاصة فيما يتعلق بالقبائل المشاركة فى حركة استيطان خراسان من عرب الشمال وهم قيس وتميم وربيعة ، وفى منتصف القرن الأول الهجرى قام زياد بن أبية عامل العراق على المشرق بابعاد القيسيين من البصرة والكوفة فيما شبهه أحد المؤرخين المحدثين(٣) بالنفى الى خراسان فى محاولة لتشتيت القوى السياسية المعارضة للحكم الأموى • وقد أورد البلاذرى أن زيادا ولى السريع بن زياد الحارثى سنة ٥١هـ خراسان وحول معه من أهل الكوفة والبصرة زهاء خمسين ألفا بعائلاتهم ، ومع ذلك فقد ظل التواجد الاسلامى العربى فى خراسان ذا تأثير هامشى فى التركيبة السكانية الخراسانية التى حازت

---

(١) لعل من افضل الدراسات العربية الحديثة التى تعرضت للدور الذى قامت به خراسان فى اسقاط الخلافة الأموية : دكتور ابراهيم بيضون ، مرجع سابق ص ٣١٣ ـ ٣٢٦ حيث اعتمدنا على تحليلاته فى هذا الجزء •

(٢) راجع : ياقوت الحموى ، شهاب الدين بن عبد الله الرومى ، المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، معجم البلدان ، الجزء الثانى ص ٣٥٠ •

التفوق العددى المطلق(٤) ·

وقد سبقت الاشـارة الى أن المهلب بن أبى صفر والى خراسـان فى الفترة ٧٩–٨٢هـ قد انتهج سياسة تدعيم الوجود العـربى الاسلامى فى المشرق العربى وخاصة من أهل اليمن الذين كان ينتمى اليهم المهلب ، ومن ثم توافدت هجرات واسعة ومتكررة من العرب اليمنيين الى خراسان خاصة من قبائل الأزد وهمدان وكنده · ويؤيد يوليوس فلهوزن – فى مؤلفه القيم « الدولة العربية وسقوطها » – هذه الآراء حتى أنه يجد خراسان وكانها نسخة أخـرى من شبه الجزيرة العـربية من توجهاتها القبلية المعقـدة والمتشابكة ، حتى الانقسامات والتحالفات القائمة على المصـالح قد بدت هى الأخرى ظاهرة فى التكوينة السكانية الاسلامية الجديدة فى خراسان ، كالتحالف الذى قام بين الأزد اليمنية ، وربيعة القيسية فى مواجهة تحالف قيس وتميم من العـرب الشماليين ، وتزامنت تطورات هـذه التحالفات والتحالفات المضادة مع أفول نجم نفوذ ابن الزبير فى خراسان حيث أدى الصراع مع الأمويين على السلطة الى تشجيع التمرد القبلى ، وانعكس ذلـك بالطبع على عرب خراسان من خلال التغيير المستمر للولاة فى خراسان ، فهم يمنيون اذا كانت ميول الخليفة يمنية ، وقيسيون اذا كانت ميـول الخليفة قيسية ، ومرة أخرى يترك المهلب بن أبى صفرة من الأزد اليمنية ، وقتيبة ابن مسلم من القيسيين بصمات فترة ولايتهما على خراسان من خلال التورط فى المسألة العصبية ، غير أن ولاية الأول على خراسان ، كانت أكثر تأثيرا فى التركيب القبلى حيث أصبح للأزد اليمنية الشأن القوى ·

لقد شجع الموقع الجغرافى وخصوبة الأرض وثرائها فى استمرار التدفق القبلى العربى على خراسان ، وكان طبيعيا – ولو أن هـذا حدث فى بطء شديد – أن يمتزج السكان العرب والفرس والذى ظهرت بوادره فى عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز والذى وصفه أنس بن مالك قائلا : « ما صليت خلف امام أشبه برسول الله من هذا الفتى عمر بن عبدالعزيز ·

ولى عمر الخلافة سنة ٩٩هـ ، وسار بالناس سيرة الخلفاء الراشـدين عدلا ، وانصـافا ، ورافة ، وكان أول عمل سياسى قام به هو اسـتدعاؤه الجيش من بلاد الروم لما أصاب جنوده هناك وحث النـاس على معونتهم ،

---

(٤) المرجع نفسه نقلا عن البلاذرى، ص، ٣٩٨ – ٤٠٢ ·

ثم عزل يزيد بن المهلب عن العراق ، وولى البصرة عدى بن ارطاة الفزاوى ، والكوفة عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد الخطاب ، وولى الجراح بن عبدالله الحكمى على خراسان ، وخفف الضرائب عن المسلمين وبخاصة الفرس الذين أرهقهم بنو أمية بها ، وكان يقول لعمـاله : « ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا(٥) » .

ورغم هذه السياسة العادلة ، فان بعض العناصر كالخوارج والعباسيين قد ثاروا عليه بعد عام من خلافته ، فبعث عمر بن عبدالعزيز اليهم مسلمة ابن عبدالملك فى جيش من أهل الشام ، فأظهره الله عليهم(٦) ، غير أن وفاة عمر قد مكنت الخوارج من تقوية أنفسهم فسيطروا فى مدة وجيزة على قسم كبير من بلاد العراق والجزيرة . أما العباسيون فقد استغلوا ميل عمر الى السلم وخرجوا عن مبايعته فى العراق وخراسان .

---

(٥) ابن الأثير ، الجزء الخامس ص ١٩ — ٢٠ .

دخول أعداد هائلة من سكان آسيا في الدين الاسلامي .

الواقع ان دخول أعداد هائلة من سكان آسيا في الدين الاسلامي جاء نتيجة الفتوحات الاسلامية في العراق وفارس وبلاد الشام ، وظهرت بالتالي فئات جديد هم المسلمون من غير العرب ، وقد أطلق عليهم فيما بعد « الموالي » الذين تمتعوا بالمعاملة الحسنة طوال فترة الخلافة الراشدة ، غير أن الدولة الأموية - باستثناء فترة خلافة عمر بن عبدالعزيز - قد تعصبت الى العرب وأساءت معاملة « الموالي » مما جعلهم يشتركون في كل ثورة ضد الحكم الأموي ، فانضموا الى الفرق الاسلامية المختلفة وأهمها الخوارج ، بل انهم اشتركوا فعلياً في ثورة من أشد وأخطر الثورات على الحكم الأموي وهي ثورة عبدالرحمن عبد الأشعث على الخليفة عبدالملك بن مروان ، كما سبقت الاشارة .

أما في عهد عمر بن عبدالعزيز ، فرغم فترة خلافته القصيرة - سنتين وخمسة أشهر - الا أنه كان مضرب الأمثال في الانصاف بين العرب والعجم والروم ، وروى ابن الأثير أنه كتب الى سليمان بن أبي السري ، آمره على المشرق يوصيه خيرا بالعجم ، فلما أتاه كتاب عمر قال أهل سمرقند : ان قتيبة ظلمنا وغدر بنا ، فأخذ بلادنا ، وقد أظهر العدل والانصاف ، فاذن لنا ، فليقدم وفد على أمير المؤمنين ، فاذن لهم ، فوجهوا وفدا الى عمر ، فكتب لهم الى سليمان ان أهل سمرقند شكوا ظلما وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من ديارهم ، فاذا أتاك كتابي ، فاجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم ، فان قضى لهم ، فاخرج العرب الى معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة ، فأجلس لهم القاضي ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم(٧) .

وكتب الى عبدالحميد أميره على الكوفة : ان أهل الكوفة أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله ، وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء ، وان قوام الدين العدل والاحسان ... » . قال الطبري(٨) : « ألحق عمر بن عبدالعزيز ذراري الرجال الذين في العطايا ، أقرع بينهم ، فمن أصابته القرعة جعله في المائة ، ومن لم تصبه القرعة جعله في الأربعين » .

---

(٧) ابن الأثير ، الجزء الخامس ص ٢٣ .

(٨) الطبري ، الجزء الثالث ص ١٣٩ .

أعاد عمر بن عبدالعزيز - بهذه الصورة - الى الأذهان التجربة الرائدة للخلافة الراشدة ، وهي في مراحل نموها وبدايات استقرارها من ناحية انعكاس العلاقة بين العرب الحاكمين وبين الشعوب التي خضعت لهم ولا سيما في آسيا ، وأبرز ملامح هذه الصورة أنه لم يكن هناك ثمة تمايز بين العقيدة وأصحابها الأوائل ، الذين حملوها الى مناطق النفوذ الفارسي ، والبيزنطي ، فقد كانت العقيدة الاسلامية الاطار الجامع الذي استوعب مختلف هذه الشعوب ، وجاءت حركة الفتوح الاسلامية في مراحلها المتعاقبة وصولا الى عهد عمر بن عبدالعزيز لتكبح جماح الاثراء غير المشروع ، ويستدل من الخطابات التي كتبها الخلفاء لولاتهم على الأقاليم المفتوحة بالتصدي لهذه المشكلة ، وهناك مشكلة أخرى هي التصور الخاطيء لفريق من المستشرقين(٩) في علاقة الأمويين بالموالي الذين وضعوهم في مرتبة الرقيق حسب تعبيرهم ، وقد رد أحد المؤرخين المعاصرين(١٠) أن هذا التصور مرفوض من جانب هؤلاء المستشرقين ، فكلمة « مولى » التي أطلقت على المسلم غير العربي ، خاصة من سكان آسيا ، لم يكن باعثها الاحتقار أو الاسترقاق ، بل كان لها مدلول الإلتحاق بالقبيلة ، والموالاة لها ، والالتزام بمواقفها سلما وحربا ، والأهم من ذلك أن الرقيق بأشكاله الأوروبية في العصور الوسطى والتي تمثلت في نظام الاقطاع حيث عبودية الانسان لأخيه الانسان حتى بعد انتشار المسيحية واستمرار الرق كظاهرة اقتصادية واجتماعية تمسك بها اقطاعيو العصور الوسطى ودافعوا عنها(١١) ، هذا الشكل من الرقيق لم تعرفه الحجاز ومكة قبل الاسلام ، فضلا عن أن الرق قد تحجم كثيرا في ظل المجتمع الاسلامي ، الذي اتخذ خطوات جريئة في تحرير الانسان ، خلافا للمجتمع الكسروي في آسيا والذي عانت منه الطبقات « المطحونة » .

---

(٩) راجع على سبيل المثال :-

- Boldziher. I : Le dogme et la loi de l'Islam Traduction de Febix Arin. Paris 1920.
- Von Vloten. G : Recherches sur la domination arabe, lechitisme et les croyances messianiques sous la Khalifat des Omayyades Amesterdam, 1894.

(١٠) دكتور ابراهيم بيضون ، مرجع سابق ص ٣١٩ .

(١١) راجع تفصيلا ادوارد جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، الجزء الثالث .

أثبتت الفتوح الأموية انجازات لا بأس بها ، غير أنهما - على حد رأى بيضون[١٢] - قد صحبها « ضمور الدور الاسلامى الى حد كبير » ، وكان الخليفة الذى تصدى لهذه المسالة الهامة هو عمر بن عبدالعزيز الذى وعى جسامة الأخطار المهددة للنظام الأموى ، فكانت محاولاته الاصلاحية الجريئة تجاه منع الضرائب غير المشروعة • وعموما فقد سارت حركة الفتوح الأموية عقب وفاة عمر بن عبدالعزيز على النحو الآتى :

اولا :

شهدت فترة خلافة يزيد بن عبدالملك (١٠١-١٠٥هـ ، ٧٢٠-٧٢٤م) استمرارية غزو مناطق من آسيا ، ففى سنة ١٠٢هـ سار سعد بن عبدالعزيز ابن الحارث بن الحكم بن أبى العاص أمير خراسان غزو الترك ،فغزاهم عند سمرقند ، وبلغ « بلغ » ، وغزا الصفد بسبب معاونتهم الترك • وفى السنة ذاتها غزا عمر بن هبيرة بلاد الروم ، وفى سنة ١٠٣هـ عزل مسلمة بن عبدالملك عن خراسان والعراق وتولاهما عمر بن هبيرة الذى عزل هو الآخر فى العام التالى ليتولاها سعيد بن عمرو الحرشى الذى عبر النهر وغزا الصفد •

ثانيا :

شهدت فترة خلافة هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ ، ٧٢٤-٧٤٣م) العديد من الأحداث ، ففى سنة ١٠٥هـ غزا مسلم بن سعيد الكلابى أمير خراسان بلاد الترك ، وفى العام التالى توغل فى بلا فرغانة ، وفى سنة ١٠٨هـ قطع أسد بن عبدالله القسرى أمير خراسان النهر وغزا بلاد الختل والغور ، وفى سنة ١١٠هـ أرسل أشرس بن عبدالله السلمى الى أهل سمرقند والصفد وما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام ، فقبلوا ، وفى سنة ١١١هـ تولى الجنيد ابن عبدالرحمن ولاية خراسان فسار الى ما وراء النهر وقاتل الترك ووصل قرب (رزمان) من بلاد سمرقند ، وفى سنة ١١٢هـ هاجم الجراح بن عبدالله الحكمى بلاد الخزر وتغلب على الترك غير أنه استشهد ، وفى سنة ١١٩هـ غزا أسد بن عبدالله « الختل » وفتح قلقه وخداش التى هرب جيشها الى الصين •

---

(١٢) دكتور ابراهيم بيضون ، مرجع سابق ص ٣٣٠ •

وفى زمن هشام تصاعدت دعوة العباسيين بخراســـان ، وكان زعيم الحركة بكير بن ماهان الذى وجه عمار بن يسار الى خراسان واليا على شيعة بنى العباس ، فنـــزل مرو وتسمى باسم خواشى ودعا الى محمد بن على ، فدخل الناس فى الدعوة ، وأخذت الشيعة العباسية تقوى فى خراســـان سرا ، الى أن جاء أبومسلم الخراسانى عبد الرحمن بن مسلم فاتصل بابراهيم الامام ، فأرسله الى خراسان رئيسا للشيعة العباسية ، وكتب ابراهيم الى سلمة الخلال داعيته فى الكوفة يعلمه أنه أرسل أبا مسلم ، وكان وصول أبى مسلم الى خراسان سنة ١٢٤هـ ، ومنذ ذلك الحين أخذ يعمل فى الخفاء الى أن أعلن الدعوة سنة ١٣٢هـ(١٣) ٠

ثالثا :

لم تشهد فتـــرة خلافة الوليد بن يزيد بن عبدالملك ـ عاما واحد ـ (١٢٥ـ١٢٦هـ) عملا يذكر ، فلما خلفه يزيد بن الوليد بن عبدالملك عشية مقتل سلفه الوليـــد ثار أهل حمص ، وأغلقت أبواب المدينة ، وحلفوا أن لا يطيعوا يزيد ، وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن الحصين بن نمير ، فسير اليهم يزيد أخاه فشتت شملهم ٠ كما ثار أهـــل فلسطين وطردوا عامل يزيد ، وولوا عليهم محمد بن عبدالملك ، فبعث اليه يزيد سليمان بن هشام ابن عبدالملك ففتك بهم وأخذ بيعتهم للخليفة(١٤) ٠

وبعد قتل الوليد استعمل يزيد على العراق منصور بن جمهور ، وكان من الفيلانية القدرية(١٥) ، فدخل العـــراق ، وأرسل أميرا من قبـــله على خراسان ، وقد وقعت كثير من الفتن فى خراسان ٠

ولقى الاسلام انتكاسة كبيرة تعـــرض ابن الأثير تفصيلا حيث قتـــل المسلمون بعضهم البعض فى وحشية فى خراســـان نتيجة للفتن بين اليمن والقيس بالاضـــافة الى سائر أقاليم اليمـــامة ٠ وقد اشتد أمر العباسيين فى عهده ، ولم تدم خلافته سوى ستة أشهر خلفه بعدها ابراهيم بن الوليد ولكنه كان ضعيفا ، وكانت الأمور تزداد سوءا ، والأسرة الأموية منقسمة

---

(١٣) الطبرى ، الجزء الثامن ص ٢٢٨ ٠

(١٤) ابن الأثير ، الجزء الخامس ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ٠

على نفسها ، ولم يطل عهده أكثر من سبعين ليلة(١٦) . وخلفه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الذى استمرت خلافته خمسة سنوات (١٢٧ - ١٣٢هـ ، ٧٤٤-٧٤٩م) تمكن خلالها من جمع أمر بنى أمية ، واستقامت له الشام ، أما العراق فقد بعث اليه بابن عمر بن هبيرة لقتال الخوارج حيث تمت هزيمتهم واستولى على العراق والماهين والجبل ، غير أن الشيعة العلوية والعباسية والخوارج أخذت تعمل بقوة فى الخفاء ، وتمكن مروان بن عبدالله ابن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب الذى سار بهم الى المدائن ، فدخل بلاد العجم ، واستولى على همدان ، وأصفهان ، والرى وظل يقوى من نفوذه ، غير أن أبا مسلم الخراسانى تمكن من قتله سنة ١٢٨هـ ، وسوف يصعد نجم أبى مسلم فى الفترة اللاحقة بتأجيجه نيران العصبية فى خراسان بين النزارية واليمنية وجعلهم يقتتلون ، ثم سار يقضى على نفوذ بنى أمية فى المشرق ، فقهر أمير خراسان ، واحتل مدن العراق ، واستولى على الكوفة سنة ١٣٢هـ - كما سبقت الاشارة - حيث قتل مروان بن محمد ، وانقرض بالتالى الملك الأموى فى المشرق بعد حكم استمر من سنة ٤٠ الى سنة ١٣٢هـ وكان ملكهم عزة فى تاريخ الاسلام لما فتحه العرب من أقاليم ، ونشروه من قواعد للدين الاسلامى الحنيف ، وقد تمكن بنو أمية من توطيد دعائم الدولة الاسلامية ، ولولا بعض السلبيات من بعض الخلفاء لكان تاريخهم صفحة ناصعة وخاصة فى مجال العلاقات السياسية مع الأقاليم التى فتحوها رغم قيام بعض الحركات الدينية والسياسية المناوئة كالخوارج والشيعة العلوية والشيعة العباسية والمعتزله على نحو لا يتعلق بمجال هذه الدراسة(١٧) .

لقد نجح الخلفاء الأمويون فى جعل دور العراق دورا هامشيا فى الصمود أمامهم ، لكنهم فشلوا - رغم جهودهم - فى انهاء دوره السياسى الذى امتد حتى خراسان فى المشرق ، وقد سبقت الاشارة تفصيلا الى الأوضاع الجيوبوليتكية لخراسان ودورها التاريخى المستقبلى بعد ذلك وخاصة حينما أصهرت العرب والفرس والترك فى بوتقة واحدة نجحت الحركة العباسية التى ورثت السلطة فى اضفاء حيوية جديدة على الاسلام الذى ظل على اشراقه .

---

(١٦) الطبرى ، الجزء التاسع ص ٤٦ .

(١٧) لمزيد من التفصيل ، راجع دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الأول .

ومع ذلك لا يمكن انكار الدور الهـــام للدولة الأموية خـلال تعاقب خلفائها بعد معاوية ، وبالرغم من انقسامها وتفـرق وحدتها عقب معـاوية وخاصة ما حدث من الدولة الرومانية من طمعها فى ارجاع البلاد التى فتحها المسلمون من قبل وتجـدد الحروب بين المســلمين والبيزنطيين واشتراك الامبراطور البيزنطى بنفسه فى القتال - الا أن ذلك كان حافزا أيضا لنشر الاسلام فى آسيا وظهور قادة مسلمين عظماء فى تاريخ الفتوحات فى آسيا فى هذه الفترة (وخاصة فى بلاد السنه) •

الفصل الرابع

محمد بن القاسم الثقفي وفتح السند

- ما قبل حملة محمد بن القاسم الثقفي
- عودة الفتوحات الاسلامية النشيطة
- الحملة العربية بقيادة محمد بن القاسم الثقفي (٩٢ـ٩٦هـ)

ما قبل حملة محمد بن القاسم الثقفى :

كان عصر خلافة الوليد بن عبدالملك والفترة اللاحقة - كما سبقت الاشارة - هى قمة الفتوحات الاسلامية فى آسيا من خلال ذيوع صيت العديد من القادة العظام وخاصة فى فتوحاتهم فى السند وهم : قتيبة بن مسلم الباهلى ، وموسى بن نصير ، ومسلمة بن عبدالملك ، ثم أشهر الفاتحين قاطبة لبلاد السند وهو محمد بن القاسم الثقفى .

قام الحجاج بن يوسف الثقفى بتولية القائد قتيبة بن مسلم سنة ٨٦هـ على خراسان ، فخرج الى بلخ وعبر النهر وأتم فتح مدينة « بيكنج » سنة ٨٧هـ وغنم منها مغانم كثيرة ، وفى سنة ٨٨هـ استخلف أخاه بشار بن مسلم على مدينة مرو - عاصمة خراسان - الذى فتح بلاد كرمينة - الأقاليم الواقعة بين بخارى وسمرقند - ثم سار الى بخارى وفتحها ، فى حين فتح قتيبة بن مسلم مدينة سمرقند نفسها سنة ٩٣هـ ثم اتجه الى مدينة خجند - من بلاد فرغانة وهى مجاورة للتركستان الغربية - وتمكن من فتحها ، ثم فتح مدينة كاشان عاصمة فرغانة .

علم قتيبة بن مسلم الباهلى بوفاة الخليفة الوليد بن عبدالملك خلال فتوحاته فى آسيا فلم يمنعه هذا من مواصلة جهاده حتى اقترب من الصين ، فبعث له ملك الصين بالجزية وعاد قتيبة الى خراسان . أما موسى بن نصير فقد فتح بلاد الأندلس - وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة - ، أما القائد مسلمة بن عبدالملك بن مروان فقد كانت له جهوده المتواصلة مع الروم فى آسيا الصغرى حيث فتح الكثير من معاقلها - كما سبقت الاشارة - ومهد لفتح القسطنطينية .

غير أن أكثر هؤلاء القادة بروزا وأهمهم على الاطلاق فى فتح بلاد السند فهو القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفى الذى سوف يحقق شهرة واسعة فى بلاد السند والبنجاب - باكستان حاليا - وكانت هذه البلاد الممتدة من حدود ايران غربا الى جبال الهملايا فى الشمال الشرقى - كانت ملجأ للمتمردين العرب ضد الدولة الأموية ، وكان يخرج منها بعض القراصنة للاغارة على السفن التجارية العربية - ولم يستجب ملكهم داهر لطلب المسلمين ردهم الأمر الذى دعا والى العراق الحجاج بن يوسف

أن يلح على الخليفة الوليد بن عبدالملك ليأذن له بفتح بلاد السند من الداخل ليؤمن طريق التجارة وحدود البلاد الاسلامية ، ولما استجاب الخليفة أعد الحجاج حملة كبيرة وجعل قيادتها لصهره وابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى الذى — بفتح بلدان السند ومدنها الواحدة تلو الأخرى — دانت له جميع بلاد السند والبنجاب وأقام دولة عربية اسلامية استمرت تدين للعرب حتى سنة ٤١٦هـ ، وقبل أن نستعرض فتوحات محمد بن القاسم الثقفى لبلاد السند والبنجاب فى الفترة (٩٢ــ٩٦هـ) يجدر بنا أن نذكر فى عجالة الولاة العرب لاقليم مكران ببلاد السند فى الفترة (٤١ــ٩٢هـ) لارتباط ذلك ارتباطا وثيقا مباشرا بمجال هذه الدراسة .

فقد شهدت فترة خلافة معاوية بن أبى سفيان (٤١ــ٦٠هـ) ولاية العديد من حكام العرب لهذه المناطق واهتمامه باقليم مكران والسند ، ففى عهده عين والى العراق عبدالله بن عامر على ثغر السند ، — أى اقليم مكران — واليا جديدا هو المهلب بن أبى صفرة فى سنة ٤٤هـ والذى قاتل أهل القيقان ، وينقل البلاذرى[١] صاحب فتوح البلدان عن المهلب قوله : « ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتبشير منا ؟ » فخذف الخيل ، وكان أول من خذفها من المسلمين ، واتجه عن طريق عن طريق ممر خيبر قرب بشاور — عاصمة الاقليم الشمالى الغربى لباكستان حاليا ، والمجاورة لأفغانستان — وكان بذلك أول قائد عربى يقوم بفتوحاته من هذه الناحية حيث كان ممر خيبر بابا هاما من أبواب شبه القارة الهندية منذ القدم .

ثم تولى عبدالله بن سوار بن همام العبدى (٤٦ــ٤٩هـ) حكم مكران — ثغر السند وهى كراتشى حاليا — ورغم انتصاراته الفائقة هناك الا أنه قتل فى احدى المعارك ليخلفه راشد بن عمرو الحديد الأزدى (٥١ــ٥٣هـ) بعد فترة اضطرابات استمرت سنتين فى مكران ، وحارب مشاغبى منطقة القيقان فى حملة ناجحة حتى استشهد ، فأمر زياد بن أبى سفيان والى العراق بتولية سنان بن سلمة الهذلى على حكم مكران لأنه كان مناضلا وابن صحابى جليل ، وقد حكم سنان فى الفترة ٥٣ــ٥٧هـ ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى ولد سنان فى عهده ، قد قال لأبيه : « أبشر بابنك » وسماه سنانا ، وفتح سنان مناطق جديدة بين مكران والقيقان واستشهد

---

(١) البلاذرى . فتوح البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٣٠ — ٥٣٤ .

هناك ، حيث تولى عباد بن زياد (٥٧ـ٥٩هـ) وتوجه بجيشه نحو مكران ونجح فى حملاته هناك ثم عاد الى خراسان .

فى سنة ٥٩هـ اختار زياد بن أبى سفيان والى العــراق لحكم مكران - أبا الأشعث المنذر بن الجارود العبدى - (٥٩ـ٦٣هـ) ، والــذى زحف بجيشه الى القيقان ثم البوقان فاخضعهما ، وأقام فيهما معسكرا عربيــا منظما كبيرا ، وفتح قصدار وتولى سنة ٦٣هـ ليخلفه ابنه الحكم بن المنذر ابن الجارودى العبدى (٦٣ـ٦٤هـ) ولا يذكر التاريخ شيئا عن انجازاته فى مكران ، وتولى حرى بن حرى الباهلى (٦٤ـ٦٨هـ) وفتح بعض المناطق المجاورة لمكران وأخضع أهل مدينة قصدار من جديد ، وقضى على فتنة مدينة البوقان رغم أن أهلها كانوا مسلمين كما يذكر البلاذرى .

وعند تولى الخليفة عبدالملك بن مروان حكم الدولة الأموية فى الفترة (٦٥ـ٧٥هـ) فقد انشغل عشر سنوات بالفتن الداخلية وربما يفسر ذلك اهماله أمر مكران ببلاد السند ، حتى تولى الحجاج بن يوسف الثقفى فى سنة ٧٥هـ حكم العراق والولايات الشرعية وكانت أمور بلاد السند مسندة اليه فقام بتعيين سعيد بن أسلم ابن زرعة الكلابى ولاية مكران ، وقام الوالى الجديد[٢] بتنظيم أمورها الادارية والمـالية غير أن مثيرى الفتنة المعــروفين بالعلافين قتلوه فغضب الحجاج لسماع نبأ مقتل سعيد بن أسلم الكلابى وتولى مثيرى الفتنة المعروفين بالعلافين لحكم مكران بتأييد من داهر ملك السند ، وأعد الحجاج جيشا للقضاء على المتمردين بقيادة مجاعة بن سعر التميمى ، ولما سمع العلافون بقرب قدوم هذا الجيش القوى تركوا مكران هاربين ، واستطاع مجاعة التميمى اعادة الحكم العربى لمكران .

---

(٢) راجع : البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٣١ ـ ٥٣٢ .
ـ تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ص ٤١ ـ ٤٣ ، تاريخ اليعقوبى ، الجزء الثانى ص ٢٧١ ـ ٢٧٣ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الرابع ص ٢١ ـ ٢٧ .

عودة الفتوحات الاسلامية النشيطة :

عادت أيام الفتوحات الإسلامية النشيطة فى فترة خلافة الوليد بن عبدالملك (٨٦-٩٦هـ) ، وظهر قواد عظام فتحوا بلادا عظيمة كبلاد التركستان ووصلوا الى عمق بلاد السند واتسعت رقعة الدولة الاسلامية اتساعا كبيرا ، وقام الحجاج بن يوسف الثقفى بتعيين محمد بن هارون النمرى (٧٦-٩٢هـ) على ولاية مكران ، ثغر السند ، الذى فتح المناطق المحيطة بمكران . غير أن تصرفات القراصنة وهجماتهم على السفن التجارية العربية بين الحين والحين واستفزازاتهم المستمرة جعلت الحجاج يشتد غضبه لا سيما بعد أن رفض داهر ملك السند الافراج عن سيدات مسلمات كن فى طريقهن للحج فى سفن قادمة من سيلان - وجهز جيشا عربيا بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمى ، غير أن الحملة فشلت ، فجهز جيشا آخر بقيادة القائد بديل بن طهفة البجلى سنة ٩١هـ وأصر على انقاذ النسوة المسلمات ، وسار الجيش برا الى عمان ثم ايران ومنها الى اقليم مكران ودارت معركة عنيفة بين العرب وجيش داهر ملك السند ، انهزم الجيش العربى على اثرها ، وهو ما جعل الحجاج يشعر أكثر بالغضب وأقسم على استمرار الغزو الاسلامى لبلاد السند وفتحها ونشر الاسلام فى ربوعها ، ووافقه الخليفه الوليد بن عبدالملك بعد تردد ، ويذكر البلاذرى أن أسباب موافقة الخليفة كانت أسبابا سياسية وأخرى غير سياسية(٣) وكان قائد الجيش هذه المرة محمد بن القاسم الثقفى الذى سيلمع نجمه مستقبلا .

---

(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٣٢ - ٥٣٧ .

الحملة العربية بقيادة محمد بن القاسم الثقفي (٩٢-٩٦هـ) :

اختلفت المصادر حول سنة حملة محمد بن القاسم الثقفي على بلاد السند والبنجاب ، وتذكر بعض المصادر أنه وصل الى مكران فى أواخر سنة ٩٢هـ ، فى حين تذكر مصادر اخرى أنه قام بحملته في الفترة ٩٤-٩٥هـ ، وعموما فقد سار محمد بن القاسم بجيشه الى الشيراز ، وكان سنه لا يتجاوز السابعة عشر ولكن الحجاج كان معجبا بشجاعته النادرة وخلقه الكريم ، وواصل سيره الى اقليم مكران مستعدا للزحف الى داخل بلاد السند ، وبدأ بالمدن الواقعة فى غرب نهر السند(٤) ثم قنزبور — عاصمة اقليم مكران قبل الفتح العربى — وفتحها وقرر الزحف نحو الديبل — حيث النسوة المسلمات محتجزات — واستولى على معبد بوذى كبير نظرا لأهميته القصوى فى العقيدة البوذية كما استولى على حصن توى وأنقذ النسوة المسلمات وعفا عن الكثيرين ممن اعتنقوا الاسلام لأنهم كانوا مؤمنين بأن العرب سيفتحون الديبل ، كما أحسن محمد بن القاسم الثقفى الى الأهالى ، وأسكن لربعة آلاف من العرب هناك وبنى لهم مسجدا ، وعين حميد ابن وداع النجدى حاكما على الديبل ، وانتهى تماما من فتحها وتنظيم أمورها ليتفرغ لفتح مدينة النيرون .

سار محمد بن القاسم الثقفى الى النيرون — الآن مدينة حيدر آباد — وكان أهلها متحصنين داخل مدينتهم ، وحاصر المدينة حيث استسلم واليها البوذى الذى أخبره أنه وأهل المدينة صاروا من أتباع العرب وبنى ابن القاسم مسجدا للمدينة وعين عليها واليا عربيا ، ثم تحرك بعد ذلك الى

---

(٤) دكتور عبد الله مبشر الطرزى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية . مرجع سابق ص ١٦٤ — ١٦٦ — نقلا عن : مولانا أبو ظفر ندوى الهندى ، تاريخ سنة (باللغة الاردية) ١٩٤٧ ، رجموار فان مولائى السندى ، تاريخ تمد سند (تاريخ حضاره بلاد السند) ، حيدر آباد ، السند ، باكستان ١٩٥٩ م ، ولا يذكر البلاذرى سنوات الحملة وان كان تسلسل أحداثه يتفق والمصادر الباكستانية ، ويذكر ابن الأثير السنة التى قتل فيها داهر وهى سنة ٨٩ هـ ، ويستنتج الطرازى من ذلك ان محمدا بن القاسم وصل مكران سنة ٨٨ هـ وان هذا ليس بصحيح ، أما الطبرى فيجعل مقتل داهر سنة ٩٠ هـ ثم يذكر فى حوادث سنة ٩٤ هـ بأن محمدا بن القاسم فتح أرض السند ، ثم يذكر فى حوادث سنة ٩٥ هـ بأنه فتح الهند مدينة الكيرج ومعنى ذلك — كما يضيف الطرازى — ان الطبرى جعل وصول ابن القاسم سنة ٨٩ هـ .

اقليم سيوستانو ، وكان سكانها بوذيين وحاكمها برهمي المذهب ، وشعر السكان بالخوف من قوة المسلمين فاستسلموا بعد هروب حاكمهم ، ودخل محمد بن القاسم المدينة فاتحا ، ومما يجدر ذكره أنه قد دخلت جماعة كبيرة من البوذيين من أهل السند الى الدين الاسلامي الحنيف .

سار محمد بن القاسم متجها نحو منطقة البودهية ، ولما سمع أميرها بقدومه تقدم اليه مع قواده وبايعه ، وخلع عليه خلع التشريف حسب تقاليد ملوك السند ، ثم قمع محمد بن القاسم حركة المتمردين بمساعدة أمير هذه المنطقة واقام ابن القاسم في قلعة سيسم عند الطرف الغربي لبحيرة ماندهر حيث دخل المسلمون المدينة ، وقاتل العرب المتمردين هناك وهزمهم ، وقام ابن القاسم بتنظيم الأمور في منطقة البودهية وفرض الخراج على أهلها ، وأسكن جماعات من العرب في مناطق عديدة ، وبنى لهم بعض المساجد .

حث الحجاج بن يوسف الثقفي ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفي على سرعة الحركة داخل السند وأوضح له درسا هاما في علوم السياسة للحصول على السلطة من خلال وسائل أربع وهي : المداراة أو المسامحة أو المصاهرة ثم بذل المال والعطية ثم الرأى الصائب في محاربة الأعداء ومعرفة أمزجتهم ونقط ضعفهم ثم الرعب والهيبة والقوة والشهامة وأكد عليه عبور النهر قبل العدو حتى يدخل الرعب في القلوب ويثبت تفوقه ، وبين الحجاج أيضا الهدف من الفتح ، وأساليب معاملة الرعية ، سواء من يدخل منهم الاسلام أو لم يدخل وكيفية الحصول على الجزية والخراج ، وكان لهذه الرسائل أهميتها القصوى سياسيا وعسكريا في نجاح محمد بن القاسم .

عاد ابن القاسم الى النيرون وتوجه نحو مدينة أشبهار حيث حدثت مواجهة مع أهلها الذين انضم اليهم قوم الزط من سكان النيرون ، غير أن ابن القاسم أعطاهم الأمان وفتح القلعة ، ثم تقدم نحو نهر السند حتى وصل الى الضفة الغربية للنهر في مقابل جيبور ومدينة راور - جنوب شرقي مدينة حيدر آباد حاليا - ، وقد وصلته رسالة من حاكم منطقة بت - جزيرة صخرية تسمى بهاكر أو بكهر وهي من معالم بلاد السند - يخبره فيها أن بلاد السند ملك لآبائه وأجداده ، كما أن صلة القرابة تربط بينه وبين الملك داهر ، وأضاف حاكم منطقة بت - وهو بوذى - قائلا : ان الدلائل الحربية تشير الى أن بلاد السند ستنتقل للعرب ولذلك فهو مستعد للتعاون ، ورحب محمد بن القاسم بالتعاون معه وترك له حكم منطقة بت .

أرسل محمد بن القاسم مبعوثه العربى المعروف بالشامى الى الملك داهر قائلا له(*) : « ان أميرنا محمد بن القاسم قد ترك لك الحرية فى أن تختار عبور النهر اليه أو تسمح للعرب بالعبور حتى يتقابل الفريقان فى ساحة القتال ما دمت لا تريد التسليم أو الصلح » ، وكان أمام الملك داهر رأيان اما أن يعبر هو أو أن يعبر محمد بن القاسم ، واستقر الرأى على ترك الاختيار للعرب ، فقرر ابن القاسم عبور النهر ، ووقف بجيشه على الشاطىء الغربى ، ووصلته رسالة من الحجاج بن يوسف الثقفى ينصحه بالتجلد والشجاعة وسرعة العبور وطلب منه ارسال خريطة للنهر لدراستها .

من ناحية أخرى استعد الملك داهر للقتال ، وبينما كان محمد بن القاسم يستعد لعبور النهر علم أن الحاكم الأسبق لاقليم سيوستان قد استولى على القلعة التى كانت فى أيدى المسلمين وطردهم منها ، فأجل محمد بن القاسم عبور النهر واستولى على القلعة وعين عليها واليا وتوابا أقوياء . ثم تحرك بجيشه الى منطقة جهم — تقع أمام مدينة روهرى — الواقعة بجوار نهر السند ، ومرة أخرى تعطله الاضطرابات والفتن ضد العرب فى سيوستان ، وواجه جيش ابن القاسم صعوبات كبيرة منها نفاذ المؤن الغذائية واصابة الخيول بالمرض فضلا عن صعوبة المناخ وحرارته الشديدة مما أدى الى اصابة كثير من أفراد الجيش العربى بأمراض نفسية ، غير أن الايمان القوى كان هو الحافز أمام الجيش العربى بالمثابرة ، وعرض الملك داهر الصلح وتقديم المساعدة الغذائية للعرب فى لهجة تتسم بالتهديد والوعيد ، ولكن محمد بن القاسم كرر قولته المشهورة : « لن أترك أرض السند قبل أن أرسل رأس داهر الى الحجاج بالعراق » .

شجع الحجاج ابن أخيه محمد بن القاسم بتعيينه نائبا عنه فى بلاد السند ، وحذره من الصلح محفزا اياه على القضاء على داهر مهما كلفه الأمر ، وأن عبور نهر السند يكون — حسب دراسة الحجاج للخريطة

(*) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، الجزء الأول ، مرجع سابق ص ١٨٠ نقلا عن جرنانه ص ١٥٧ بالفارسية وقد ألفه عالم عربى باللغة العربية بعنوان « منهاج الدين والملك » أواخر العصر الأموى ، بلاد السند ، عنوان النسخة العربية الأصلية مفقودة ، وتعتبر النسخة الفارسية المترجمة ، ومن الملاحظ ان الطرازى قد اعتمد بصفة أساسية على هذه النسخة فى مؤلفه القيم المشار اليه (الباحث) .

كما سبقت الاشارة — عند منطقة بت حيث يقل الماء فيسهل العبور ، وكان داهر متغافلا عن تحركات العرب ، وفي تخطيط عسكري دقيق سار محمد ابن القاسم الى الشاطيء وبنى جسرا لعبور قواته حيث اندفعت هذه القوات في بسالة داخل بلاد السند وكان النصر لهم ، واقترب الجيش العربي من العاصمة السندية ، وفشلت جهود الملك داهر وجيوشه في مواجهة الجيش العربي رغم قيادته بنفسه لهذه الجيوش ، وفي ٩ رمضان سنة ٩٣هـ بدأت المعركة ، وعلم الملك داهر أهمية الفيلة وخطورتها على العرب فأمر بهجوم شامل وعنيف من الفيلة والفرسان على العـــرب الذين اضطربوا ، لكنهم سرعان ما سيطروا على المعركة حين ناداهم محمد بن القاسم يحثهم على الجهاد والصبر ، فقاموا بحملة شديدة على جيش السند ٠

خرج الطرفان للقتال في ١٠ رمضان سنة ٩٣هـ وبلغ جيش الســند نحو مائة وخمسة وعشرين ألفا ، وفي المواجهة كان القائد العربي الشــاب محمد بن القاسم الثقفي على رأس جيش قوامه نحو خمسة عشر ألفا فقط ، وحث القائد العربي جيشه على الجهاد في سبيل الله وتحمل الشـــدائد ، وكان الجيش العربي على مستوى عال من التدريب والكفاءة القتالية والاعداد الجيد ، وفي أثناء القتال توجهت جماعة من قواد السند وجنودهم نحو القائد محمد بن القاسم فأعطاهم الأمان وأعلنوا اسلامهم لديه ، وكانت هذه أول مجموعة كبــيرة من أتبــاع الديانة البرهمية من قواد الملك داهر وجنوده تدخل الاسلام برغبتها في أيام الفتوحات ٠

ونظرا لأن القوتين لم تكونا متكافئتين فان حمــلة الجيش السنـــدى قد اشتدت على المســلمين في محاولة مستميتة لدرجة أن محمد بن القاسم قد اضطرب من هول المعــركة ، لـكنه تماسك وأطلق صيحة قوية مليئة بالايمان بالله ، وشجع جنوده على استمرار القتال والثبات ، وانتهت هــذه المعركة المصيرية الدامية في المســاء بانتصــار المســلمين(٦) ، وكان داهر قد قتل فقطع الجنود المسلمون رأسه وأتوا بها الى محمد بن القاسم ، وكتب محمد بن القاسم الى الحجاج والى العراق يخبره عن قتل داهر ، وبعث بهـا

---

(٦) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٣٤ — ٥٣٧ ٠
— ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، الجزء الرابع ، حوادث سنة ٨٩ هـ ٠
— ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ص ٦٠ ٠
اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، الجزء الثاني ص ٢٧٥ — ٢٧٨ ٠

اليه ، وأمر الحجاج القائد الشاب محمد بن القاسم بفتح بقية بلاد السند ، الذى قام بالفعل بفتح راور، وبرهمناباد ، وبهرور ، ودهليلة ، ثم فتح برهمناباد — برهمن آباد — والأخير اقليم كبير من أقاليم بلاد السند الأربعة — وأمر جيشه باحترام البراهمة — رجال الدين البرهمى — وسمح لهم باقامة شعائرهم الخاصة بهم ، وقام بتنظيم أمور هذه المدينة الحصينة « برهمناباد » ، وكتب رسالة الى الحجاج بهذه الانجازات ٠

وكانت الخطوة التالية هى اخضاعه لقبائل الزط ، والسمة ، والسهتة فى اقليم برهمناباد ، حيث كانت هذه القبائل تعيش على السلب والنهب ، وقد حذرهم محمد بن القاسم بالعقاب الشديد اذا مارسوا هذه الأعمال ووضع قيودا على تصرفاتهم وتحركاتهم وأخذ منهم عهودا لاستقرار الأمن والطمأنينة فى البعد وبذلك قبل الزط طاعة المسلمين ، والواقع أن محمد بن القاسم قد أثر فى هذه القبائل تأثيرا بالغا بادماجهم فى المسلمين وحتى من لم يدخل الاسلام منهم فقد تحسنت عاداتهم وتهذب سلوكهم الى حد بعيد ، وأعاد ابن القاسم تنظيم أمور هذه القبائل والاقاليم التى يسكنون فيها وتعيين حكام جدد لهذه الأقاليم لأسباب سياسية واجتماعية منها تأكيد سيطرته على البلاد ، والتعامل مع المتمردين باسكانهم مناطق بعيدة ٠

بعد أن انتهى محمد بن القاسم من فتح برهمناباد وتنظيم أمورها الاقتصادية والدينية والاجتماعية ، واخضاع القبائل المختلفة فى مناطق اقليم برهمناباد ، فقد سار نحو مدينة أرور للمملكة السندية بما فيهما من حصون عسكرية لها أهميتها الاستراتيجية ، غير أن فتح هاتين المدينتين لابد أن يسبقهما فتح مدينة منهل ، ومدينة هراور — وهما مدينتان صغيرتان تقعان بالقرب من كل من أرور والملتان — وفضلا عن ذلك هناك مدينتان أخريان هما بسمد وساوندرى ٠ ويذكر البلاذرى أن محمد بن القاسم قام بفتحهما ، وهما بالقرب من أرور ٠

وفى أوائل سنة ٩٤هـ حاصر محمد بن القاسم مدينة أرور (الور) العاصمة لمدة شهر وكان حاكمها الأمير قوفى بن داهر — الذى قتل أبوه وأرسلت رأسه الى الحجاج — وقد هرب ليلا مع أسرته الى مدينة جيبور الواقعة على الحدود الهندية ، وانشغل محمد بن القاسم فترة من الوقت بتنظيم أمور مدينة أرور وبنى بها مسجدا كبيرا ووضع الخراج على سكان المدينة وتصبح بتعاون العرب من أهل السند لنشر الأمن حيث اعتنق الكثير من سكانها الاسلام ٠

توجه محمد بن القاسم لفتح مدينة باتية (بابيه) والتى تقع على الشاطىء الجنوبى لنهر بياس ، وقد عرض عليه حاكمها الطاعة لابن القاسم الذى قبل ذلك منه وعينه مستشارا سياسيا له وفوض اليه الأمور المالية ، وكان هذا الحاكم – الأمير ككسه – خير معين لمحمد بن القاسم فى غزواته التالية ، وبعد ذلك فتح محمد بن القاسم مدينة اسكلنده بعد معركة مع سكانها وولى عتبة سلمة التميمى حاكما عليها ، ثم توجه نحو قلعة سكة الحصينة – وهى منطقة عسكرية قريبة من مدينة الملتان – ووقعت حرب دامية مع سكانها استشهد فيها نحو ثلاثمائة جندى من أهل الشام نظرا لأن القلعة كانت محصنة ومنيعة ، فلما استولى عليها محمد بن القاسم أمر بهدمها[٧] ، ثم زحف القائد العربى الى مدينة الملتان المعروفة ففتحها ونواحيها باقليم البنجاب حيث قتل نحو ستة آلاف جندى ملتانى ووقع الكثيرون فى الأسر فاستسلم سكان المدينة[٨] ، وقد سميت الملتان بمرج بيت الذهب نظرا لما غنمه المسلمون من غنائم كثيرة من الذهب من معبدها الذى استأثر باهتمام الجغرافيين والمؤرخين العرب من النواحى السياسية والمذهبية والاقتصادية ، ويذكر البلاذرى وابن الأثير أن أهل بلاد السند كانوا يحجون اليه ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده[٩] ، وقام محمد ابن القاسم بتنظيم الأمور المالية والعسكرية والمذهبية فى الملتان وأخذ المواثيق والعهود من أعيان المدينة بالطاعة والتعاون المشترك مع العرب لرفاهية الشعب ، وفى الوقت الذى تفرغ فيه من أمور الملتان ، وكاد ينتهى من فتح النواحى النائية لبلاد السند والملتان وصله خبر وفاة الحجاج فى سنة ٩٥هـ وتأثر بشدة ، وبعد أن كانت وجهته التالية هى بلاد كشمير التى كانت تحمى أمراء السند وتمدهم بالقوة العسكرية ضد العرب ، فقد قرر العودة الى أرور لمتابعة الأحداث السياسية الجديدة فى دار الخلافة ، غير أنه وجه جيشا الى مدينة البيلمان – مدينة صغيرة بجوار مدينة الور الكبيرة – فأخضعها ، كما أخضع مدينة سرست – بجوار الور أيضا – والتى كانت مقرا لقبائل الميد المعروفين بقطع الطرق والنهب فى البحر وايذاء المسافرين ، وبذلك تم تامين السفن التجارية المارة بهذه النواحى – مثل ميناء الديبل – – فى طريقها من بلاد العرب الى بلاد السند .

---

(٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٣٦ – ٥٣٩ .

(٨) المرجع نفسه ص ٥٣٨ .

(٩) المرجع نفسه ص ٥٣٨ ، وراجع ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الرابع ، حوادث سنة ٨٩ هـ ، ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ص ٥٩ – ٦١ .

قام محمد بن القاسم - رغم وفاة الحجاج - بمواصلة جهوده فى فتح بقية بلاد السند ، ومنها الكيرج - اقليم يقع على حدود السند - ، ثم توجه الى حدود بلاد كشمير وتوغل فيها عازما على فتح اقليم قنوج المهم فى موقعه على الحدود والتابع سياسيا للهند ، وقد وصل فعلا الى مشارف هذا الاقليم ، غير أنه لم يتمكن من فتحه - وهو آخر جزء من بلاد السند - حيث وصلت اليه الأوامر من الخليفة سليمان بن عبدالملك بالعزل والقـــاء القبض عليه وارساله الى العراق • ويعزى المؤرخون سبب ذلك الى الكراهية التى حملها سليمان بن عبدالملك ضد أفراد أسرة الحجاج وأقربائه ، لأن الحجاج تمكن من الحصـــول على موافقة الولاة والحكام على خلع سليمان ، ولولا وفاة الحجاج لكان مجرى الأحداث قد تغير ، وهو ما جعل سليمان بن عبدالملك يذيق أسرة الحجاج ألوانا من العذاب حتى قتل الكثيرين منهم ومنهم محمد ابن القاسم نفسه •

وقد بكت شعوب شبه القارة الهندية محمد بن القاسم تقديرا لبطولاته وأقاموا له تمثالا رائعا فى مدينة الكيرج ، وبمقتله توقف الزحف المقدس ، وفقد العالم الاسلامى قائدا مسلما شجاعا ، عظيما استطاع أن يفتح بلاد السند كلها فى أقل من ثلاث سنوات وترك بصماته البيضاء عليها متمثلة فى المساجد الكبيرة فى المدن الاسلامية ، ولا تزال الملايين من مسلمى شبه القارة الهندية يتذكرون اسم هذا البطل •

الفصل الخامس

بلاد السند بعد محمد بن القاسم

- اضطراب الأحوال السياسية

- اضطراب الأحوال السياسية

مات الحجاج بن يوسف الثقفى فى سنة ٩٥هـ (٧١٤م) وهو لم يبلغ من العمر أربعة وخمسين عاما ، وكانت مدة ولايته على العـــراق والولايات الشرقية للخلافة الأموية عشرين عاما ، منذ عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الى عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك الذى مات سنة ٩٦هـ (٧١٥م) بعـــد ستة أشهر من وفاة الحجاج ، وتولى الخلافة سليمان بن عبدالملك فى السنة ذاتها بعد أن كاد يحرم من حقه فى الخلافة بسبب رغبـــة الخليفة السابق الوليد بن عبدالملك تحويل الحكم الى ابنه ، غير أنه بوفاة الحجاج والخليفة الوليد لم يتم التتويج رسميا لابن الخليفة السابق ، وتولى الخلافة سليمان ابن عبدالملك باعتباره ولى العهد الشرعى • وقد انعكست هذه الأحداث على بلاد السند والبنجاب منذ خلافة سليمـــان بن عبدالملك حتى خلافة مروان ابن محمد بن مروان الأموى ٩٦-١٣٢هـ وذلك حسب التسلسل الآتى :

أولا :

طوال عشر سنوات ابتداء من عهد الخليفة سليمان الى عهـد الخليفة هشام ، اضطربت الأحوال السياسية فى بلاد السند ، وتدهورت أوضاعها وخاصة بعد انتهـاء حـكم محمد بن القـاسم مبـاشرة ، حيث قامت الفتن والثورات ضد العرب ، ولم يقم معظم ولاة العرب ببلاد السند بأعمال تذكر وخرجت مناطق عديدة من أيدى العرب بسبب الاضطرابات السياسية فى الدولة الأموية وما عكسته من خلافات قبلية وعصبية بين العـــرب أنفسهم فى بلاد السند •

تولى يزيد السكسكى سنة ٩٦هـ حكم بلاد السند والعمل الوحيـــد الذى قام به هو القبض على محمد بن القاسم الذى سلم نفسه بلا مقـاومة اطـاعة لأوامر الخليفة ، وبوفاة السكسكى ، تولى حبيب بن المهلب بن أبى صفرة الذى واصل سياسة محمد بن القاسم بمحاربة أهـــل مدينة الور العاصمة وهزمهم وأخضع مناطق أخرى ، ولم يمهله الوقت لغزو برهمناباد حيث عزله الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١هـ[1]) بتهمة الاشتراك

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٣٩ - ٥٤١ •

- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الرابع ، حوادث سنة ٩٥ هـ •

- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ص ٦٦ •

فى المؤامرة مع أخيه ضـــد الخلافة فى سنة ٩٩هـ ، حين كانت الخلافات القبلية السياسية بين العرب قد انعكست نتائجها على أحداث بلاد الســند والعرب المقيمين بها .

ثانيا :

استطاع عمرو بن مسلم الباهلى الذى حكم بلاد الســند سنة ٩٩هـ - فى عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز - أن يسيطر على بلاد السند ، ويقضى على الفتن الباقية ، كما غزا بعض المنـاطق مثـل كش « كجه » وأخضعها للحكم العربى ، وقد بعث الخليفة عمر بن عبدالعزيز سنة ١٠٠هـ برسائل رقيقة الى أمراء السند وقوادها يدعوهم الى الاسلام وأن يبقوا فى مراكزهم الحكومية ولهم مثل ما للمسلمين من حقوق . وعليهم ما على المســلمين من واجبات ، وقد أثرت السيرة الحسنة للخليفة على أمراء الســند وزعمائها فاعتنق كثير منهم الاسلام ومنهم الأمير جيسبه بن داهر الذى حكم اقليم برهمناباد ثلاثة سنوات ، وقبل آخرون دفع الجزية والخراج مع البقاء على دينهم ، وهكذا قلت الفتن والاضطرابات السياسية فى عهد الخليفة عمـــر ابن عبدالعزيز ، فلما تولى الخلافة يزيد الثانى (١٠١ - ١٠٥هـ) حدثت فى عهده موجات عنيفة من الفتن واستطاع حبيب بن المهلب أن يهرب من السجن - وكان متهما بالتآمر على الخلافة كما سبقت الاشارة - واستولى على الولايات الشرقية التـــابعة للدولة الأموية ، كما غزا جيشه مكران ، ومدينة قندابيل ، لـكنه قتـــل مع أخيه يزيد فى حربه ضـــد الخليفة فى البصرة .

ثالثا :

عين الخليفة يزيد الثـــانى بن عبدالملك الأموى (١٠١ - ١٠٥هـ) ، هلال بن أحوز التميمى على بلاد السند ، واستمر هلال مدة خمس سنوات حارب فيها من تبقى من آل المهلب لخطورتهم على الدولة الأموية ، واستطاع أن ينشر الاستقرار حتى عزله الخليفة هشـام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ) الذى تمكن بحزمه من القضاء على الفتن الســـياسية والخلافات القبليـة ، وانعكس ذلك على استمرار الفتوحات فى المناطق الجديدة فى الشرق .

اختار الخليفة هشام بن عبدالملك قائدا عظيما لحـكم بلاد الســـند هو الجنيـد بن عبـــد الرحمن المـــرى (١٠٧ - ١١١هـ) وأراد دخـول

برهمناباد فمنعه الأمير جيسيه من دخولهـا قائلا(٢) : « انى قد أسلمت وولانى الخليفة الصالح - عمر بن عبدالعزيز - بلادى ، ولست آتيك » ، فغضب الجنيد ولكنه حاول حل هذه المشكلة بالوسائل السلمية ، وأخـذ رهنا من جيسيه الذى تعهد بدفع ما على ولايتـه من الخراج والجزية وراقب الجنيد تحركات جيسيه الذى لم يكن بدوره غافلا عنه . وتشير المصادر(٣) الى حدوث معركة بين جيشى الجنيد وجيسيه حيث انهـزم جيش جيسيه أمام جيش المسلمين ، ويركز البلاذرى(٤) على ارتداد جيسيه عن الاسلام ورجوعه الـكفر مما أغضب الجنيـد الـذى قتـله ، فى حين يـرجع أحد المؤرخين(٥) المحدثين أن قتل جيسيه كان لأسباب سياسية وليس لأسباب دينية .

قام الجنيد بفتوحات عديدة فى داخل بلاد السند حيث اسـتولى على مدينتى برهمناباد والكيرج ، ثم فتح مدينة مريد (مارواز) - وهى جزء من جدهبور - ثم تحرك نحو مدينة المندل (ماندل) وفتحها بسهولة كما فتح مدينة دهنج (دهنج) ثم اســـتولى على مدينة بنجاسر عاصمة الكجرات الشمالية ، كما أخضع العـــديد من مدن الســـند التى ثارت مثل بهروج (بروص) ، وبهدمد ، وسرست ، والواقع ان فتـــوحاته كانت ناجحة وسريعة فى الوقت ذاته ، وأقام الجنيد فى بلاد الســـند أربع ســـنوات استطاع خلالها تنظيم أمورها السياسية والادارية والاقتصادية ، ثم نقـله الخليفة هشام بن عبدالملك الى خراسان بسبب تصـــاعد نشاط الدعـــاة العباسيين فى البلاد العربية والولايات الشرقية وخاصة خراسان .

رابعا :

من الثابت أن الجنيد قد قام بتثبيت الحكم العربى فى جميع أنحـاء

---

(٢) نقلا عن البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٤٠ - ٥٤٢ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الرابع ، حوادث سنة ١٠٧ هـ .
- البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٤٠ - ٥٤٢ .
- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ص ٦٤ - ٦٦ .

(٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٥٤٠ - ٥٤١ .

(٥) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسـلامى والحضارة الاسـلامية ، الجزء الأول ، مرجع سابق ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

بلاد السند ، كما أحرز انتصارات كبيرة فى بلاد الهند(٦) ، فضلا عن أنه تمكن — وهذا هو الأهم — من تدعيم الحكم العربى فى هذه البلاد • ثم تولى حكم السند تميم بن زيد العتبى وكان من القواد العرب ببلاد السند منذ عهد محمد بن القاسم ، غير أنه لم يكن له صفات الحاكم السياسى ولذلك فشل فى السياسة الداخلية والخارجية عسكريا وسياسيا بل انه أضاع جهود الجنيد ، واشتدت الخلافات بين القادة العرب الذين كانوا يرون أنهم أحق من تميم بالولاية ، وكان تميم يحرض القادة ضد بعضهم البعض تبعا لقبائلهم ويؤيد قبيلة اليمانية ضد قبيلة النزارية لأن والى العراق خالد بن عبدالله القسرى كان زعيم اليمانية ، وانتهز أهل السند فرصة ضعف الوالى وشدة الخلافات القبلية بين العرب فأثاروا الفتن والاضطرابات فى مناطق كثيرة ، ولما ساءت الأحوال السياسية قرر والى العراق تعيين الحكم بن عوانة الكلبى حاكما على السند ، وكان الحكم من أحسن القواد الشباب الذين كانوا فى معية محمد بن القاسم أيام الفتوحات الاسلامية ببلاد السند •

وفى العراق كان واليها خالد بن عبدالله القسرى من زعماء اليمانية ، وبالمثل كان الحكم بن عوانة الكلبى ، واستمرت الفوضى والاضطرابات والفتن التى تركها تميم بين العرب وأهل السند فكان لابد من القضاء عليها ولم يجد الحكم بن عوانة الكلبى أفضل من عمرو بن محمد بن القسم الثقفى لتعيينه نائبا له رغم صغر سنه ، وذلك لايمانه بالمثل العربى : « الولد سر لأبيه » ، وفرض اليه الأمور الادارية والاعمال المهمة ، وبذلك استطاع أن يرضى النزارية بحيث أصبح الوالى يمانيا ونائبه حجازيا •

كان أهل السند قد استولوا على بعض المناطق الهامة وكانوا يضايقون العرب فى كل جهة ، فشيد الحكم مدينة عظيمة على الجانب الشرقى لنهر السند كى يقيم العرب فيها أسماها « المحفوظة » وبنى فيها مسجدا كبيرا واتخذها عاصمة للحكومة العربية وبلاد السند بدلا من برهمناباد التى كان معظم سكانها من البرهميين والقلة من البوذيين والعرب • كما اهتم بالجيش

---

(٦) نفس المرجع السابق ، نقلا عن مجلة قسم الآداب ، جامعة كلكتا ، الهند ، المجلد العاشر ص ٣٠ وما بعدها ، يكاد لا يكون هناك شك أن الجنيد — كما يذكر المؤرخ الهندى ١٠ جمدار قد هزم ملوك سانيد اهافاس وملوك كاجهيلاس ، وملوك سوراشترا ، وملوك جانوتا

بقيادة عمرو بن محمد بن القاسم الذى أعاد المدن السندية التى خرجت من الحكم العربى .

بقى الحكم بن عوانة يحكم بلاد السند أكثر من ثمانى سنوات حتى قتل خالد بن عبدالله القسرى والى العراق بأمر الخليفة هشام بن عبدالملك سنة ١٢٠هـ مما أثار كراهية اليمنية ، وقد اعتبر المؤرخون ذلك من أقوى الأسباب التى عجلت بسقوط الدولة الأموية ، حيث قام اليمانيون بالثورة فى دمشق وفلسطين ، وأضعفت العصبية القبلية بنى أمية وأذنت بزوال سلطانهم ، وانتهز بعض زعماء أهل السند فرصة وجود الاضطرابات فى العالم العربى وقاموا بالفتن السياسية المعادية للعرب ببلاد السند ، الامر الذى جعل الحكم بن عوانة يخرج بنفسه للقضاء على الفتن الجديدة ويتوغل فى بلاد السند مثل القيقان وقندابيل والمناطق المجاورة لحدود بلاد الهند حتى استشهد سنة ١٢١هـ فى احدى معاركها .

خامسا :

تنازع كل من عمرو بن محمد بن القاسم من الحجازيين ويزيد ابن عوار الكلبى من اليمانيين على حكم بلاد السند لكن الخليفة أمر بتولية عمرو الذى حبس يزيد خشية قيامه بالفتن والاضطرابات ، وقام ببناء مدينة أخرى للعرب على جانبى البحيرة الواقعة فى شرق نهر السند واتخذها مركزا للحكومة العربية بسبب موقعها الجغرافى ولقربها من مدينة المحفوظة ، وسماها المنصورة(٧) وبنى فيها مسجدا عظيما .

غير أن أهل السند قاموا بالزحف على المنصورة وأغاروا عليها ، واضطروا والى العراق لارسال جيش الى عمرو مما جعل أهل السند ينصرفون عن هذه الغارات ، واستلزم ذلك تكوين جيش مركزى قوى تمكن من اخماد فتن أهل السند واعادة الهيبة العربية الى بلاد السند ، وظل عمرو بن محمد بن القاسم يحكم بلاد السند خمس سنوات حتى تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبدالملك الذى عزل عمرو عن ولاية السند وعين مكانه خصمه اللدود يزيد بن عوار ، فانتحر عمرو فى سنة ١٢٥هـ .

عادت القوة الى اليمانية بتولى يزيد بن عوار الكلبى بلاد السند ،

بالاضافة الى تولى منصور بن جمهور الكلبى ولاية العـراق ، غير أن الفتن تجمعت ضد الخليفة مروان بن محمد بن مروان الأموى (١٢٥ - ١٣٢هـ) وهو آخر(٨) خلفاء بنى أمية ، وفى بلاد السند حدث صراع على السلطة بين كل من منصور بن جمهور الكلبى الثائر - الذى حكم فى الفترة ١٢٩-١٣٢هـ وبين يزيد بن عوار الـكلبى ، وانتصر المنصـور على منافسه وأخضع بلاد السند ثم انشغل بتنظيم الأمور فيهـا ورغم كونه ثائرا على الدولة الأموية نفسها الا أنه يعتبر آخر أموى يحكم بلاد السند حتى قتل سنة ١٣٤هـ على على يد موسى بن كعب التميمى أول وال عباسى على بلاد السند(٩) .

---

(٨) تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ص ١٦٤ - ١٦٦ .

الباب الثالث

الدولة العباسية ومسلمو آسيا حتى الغزو الصليبي

الفصل الأول : أسس الدولة الجديدة وفتوحاتها

الفصل الثاني : الفتن الداخلية وانعكاساتها الخارجية

الفصل الثالث : من عصر الانحلال الى بروز الولايات الاسلامية الانفصالية الاستقلالية

الفصل الرابع : عصر الانحلال الثاني وتعاظم دور الفرق الاسلامية

الفصل الخامس : سقوط الدولة وظهور دويلات جديدة

الفصل السادس : الغزو الصليبي

الفصل الأول
أسس الدولة الجديدة وفتوحاتها

● الدولة الجديدة والعلاقات السياسية الاسلامية

● الفتوحات الاســلامية

● الخلفــاء العباسيون والعــلاقات الخارجية

١ ـ أبوالعباس السفاح ١٣٢ـ١٣٦هـ

٢ ـ أبوجعفر المنصور ١٣٦ـ١٥٨هـ

٣ ـ المهدى بن المنصور ١٥٨ـ١٦٨هـ

٤ ـ من الهادى بن المهدى ١٦٩ـ١٧٠هـ
الى الرشيد بن المهدى (هارون الرشيد) ١٧٠ـ١٩٣هـ

٥ ـ شئون بلاد السند

- الدولة الجديدة والعلاقات السياسية الاسلامية :

سبقت الاشارة الى أن الأمويين كونوا دولتهم أســـاسا على العنصر لعربى مما أثار غيرة وحسد الشـعوب الاسـلامية الأخرى حيث الموالى وهم المسلمون من غير العرب كالفرس والترك وأهـــل السند قد كرهوا الحكم الأموى خاصة وأنهم اعتقدوا - أى الموالى - أن اعتناقهم الاســلام سوف يريحهم من دفع الجزية ونظر الأمويون لهم - من ناحية أخرى - على أنهم لم يعتنقوا الاسلام الا لمصالحهم الشخصية وليس لمبادىء الاسلام القويمة . وكان لهذه العصبية الأموية انعكاساتها فى مســـاهمة الموالى فى حركات التمرد والعصيان والثورات ضد الحكم الأموى ، فانضموا الى الخوارج وثورة عبدالرحمن بن الأشعث على الخليفة عبدالملك بن مروان .

من ناحية أخرى بدأت العصبية القبلية تنفث سمومها فى العـــالم الاسلامى بعد خلافة عمر بن عبدالعزيز وخاصة فى عهد فتنة أسرة المهلب ابن أبى صفرة ضد الحكم الأموى ، فأمر يزيد بقتل أفراد هـــذه الأسرة رغم خدمتها الطويلة للأمويين ضد الخوارج ، وتصاعدت هـــذه العصبية فى عهد الوليد بن يزيد وجعلته يقتل نفسه ، وكان تشجيع الخلفاء الأمويين لقبيلة ضد أخرى سببا آخر أثر بظلاله على الموالى ، وقد شجع سلوك الخلفاء الأمويين وتعصبهم للعرب أن نشط دعاة الخلافة العبـاسية متبعين أسلوب السرية ثم ضم الفئات الساخطة على العصبية القبلية حيث كان حب أهـــل خراســـان وبلاد فارس لآل البيت وأن الحق ينبغى أن يعود لأصحابه ، وانضم الأعاجم الى صفوف هذه الفئات الساخطة ، وكان هناك سبب آخر لا يقل أهمية عن الأسباب السابقة وهو ملاحظة الأمويين للدعاة العبـاسيين ومن أشهرهم عامل خراســان أســـد بن عبدالله القسرى الـــذى تولى أمر خراســان مرتين الأولى (١٠٦-١٠٩هـ) والمرة الثانية (١١٧-١٢٠هـ) ، وتذكر المصـــادر أنه كان مثــــالا لليقظة والحزم(١) ، كما أن هؤلاء الدعـــاة للعبـاسيين لم يردعهم تنكيه أو تعـــذيب الأمويين بل شجعهم ذلـــك على دعوتهم(٢) .

انعكست العوامل السابقة على نشـــأة وتطور الدولة العباسية حتى

---

(١) دكتور احمد قاعور ، دكتور شحاده الناطور ، مرجع سابق ص ١٤٤ .

(٢) [illegible]

أن فريقـا من المؤرخين العرب المحدثين يرون أن دولة بنى أمية هى الدولة العربية الخالصة ، فى حين جاءت الدولة العباسية لتصبح عربية الشكل ، لكنها فى حقيقتها أعجمية ، وان تفوق العنصر الأعجمى على العنصر العربى - كيفا وكما - ساهم فى ضعف شأن العرب . فالتمايز العربى فى عصر بنى أمية ظهر واضح المعالم ، فالولاية للعربى ، والقضـــاء للعربى ، والأرض للعربى ، ورغم المبـــالغة فى تصور التمايز العـــربى فى عصر الدولة الأموية على هذا النحو الا أن بعض الحقيقة تكمن فى هـــذه الآراء حيث كان العنصر العربى والأعجمى هما عماد الدولة ، ولم يتمكن العنصر الأعجمى فى الدولة العباسية الجديدة من القضاء على النفوذ العربى تماما ·

وسوف نستعرض آراء فـــريق من مؤرخى المسلمين قديمهم وحديثهم بهذا الشأن : يقول الجاحظ[٣] : « ان بنى العبـــاس أعجمية خراسانية ، ودولـــة بنى مروان أموية عربية » ، ويصف المسعودى[٤] قيـــام الدولة العباسية وسقوط الدولة الأموية قائلا : « سقطت قيادات العـــرب وزالت رياستها » · ويستطرد المسعودى قائلا : « ان المنصور هو أول خليفـــة استعمل مواليـــه وغلمانه ، وصرفهم فى مهمانه ، وقدمهم على العـــرب ، فامتثلت الخلفاء ذلك من بعده » ، وقد كان من نتائج هـــذا التقلص لنفوذ العرب ، وبروز السلطان الأعجمى ، أن دخلت النظم الأعجمية من فارسية وغير فارسية فى الدولة الجديدة ، ومن أبرز هـــذه النظم تلك النـــزعة الكسروية الساسانية الاستبدادية ، فبعدت الشقة بين الدولة والقبيـــلة والبادية العربية بعدا شاسعا ·

أما الدكتور عبدالعزيز الدورى[٥] فيرى تطرف الآراء السابقة ، وأن الخلفاء العباسيين كانوا عربا هاشميين - لنسبهم الى الأب - وكانوا يعتزون بنسبهم ، ومع أنهم قربوا الفـــرس ، الا أنهم سيطروا عليهم ، ونكلوا بهم

---

(٣) راجع آراء الجاحظ تفصيلا فى : الجاحظ ، عمر بن بحر ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، البيان والتبيان ، دار الفكر للجميع ، بيروت ١٩٥٤ م ·

(٤) راجع آراء المسعودى تفصيلا فى : المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مصدر سابق ·

(٥) راجع آراء الدكتور عبد العزيز الدورى مفصلا فى : الدكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثانى ، الجزء الخامس ، عصر الازدهار ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م ، ١٠ ·

حين شعروا بتعاظم قوتهم ، كما فعل أبو العباس بالخلال ، والمنصور بأبى مسلم ، والرشيد بالبرامكة ، والمامون بالفضل بن سهل ، صحيح أن بعض أصحاب المناصب الكبيرة كالوزارة قد أنيطت الى الفرس ، لكن عددا كبيرا من الولاة والقواد كانوا عربا ، ويؤيد الدكتور محمد أسعد طلس(٦) هذه الآراء ويضيف قائلا : « ان أن أصحاب تلك النظرية قالوا : ان السلطان العربى قد اضمحل ، وأن الدولة قد اصطبغت بصبغة أعجمية بعد أن كانت عربية خالصة ، وقد اختص آل العباس الأعاجم بصورة عامة ، والخراسانيين بصورة خالصة ، أما العرب فقد فقدوا كثيرا من امتيازاتهم التى كانت لهم فى العصر الأموى ، سواء أكان ذلك فى الوظائف الكبرى ، أو فى الاقطاعيات التى يأخذ منها ، أو فى النفوذ بصورة عامة .

غير أن هذا التمايز فى تكوين عناصر الدولة العباسية لم يكن بين الفرس والعرب فقط وانما تشمل الترك أيضا ، ويذكر أحمد أمين(٧) أن الفرس لم يهدأوا وهم يرون الترك يحتلون مراكز مرموقة فى الدولة الفارسية ، ولما كان الخليفة العباسى يعتمد على العنصر الفارسى فى تصريف شئون الدولة ، فان الفرس بالتالى قد احتفظوا للخليفة بمظهر الأبهة ، لكنهم على الجانب الآخر أخذوا ينشرون سلطانهم ، مما جعل الخلفاء العباسيين يستبدون بهم ، كما فعل الرشيد بالبرامكة ، والمامون بابن سهل ، وكان الترك سرعان ما يستردون نفوذهم ، فينكمش الفرس على حنق ، وهذه الحلقة من فقدان النفوذ واسترداده يتبعها تدبير المؤامرات والدسائس والفتن على نحو ما سترد الاشارة اليه تفصيلا .

ألبست الدولة العباسية الجديدة دعوتها لباسا دينيا ، حيث ادعى أصحاب الدعوة أنهم قاموا بدعوتهم اتباعا لكتاب الله واحقاقا لحق آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحكيما لسنته وارجاعا لنظم الخلافة كما ارادها الرسول الكريم بدل الملك العضوض . غير أن الدولة العباسية - على حد قول ابن الطقطقى فى الفخرى - قد ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك ، فكان أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تدينا والباقون رهبة أو رغبة ، والذى حدث بالفعل أن العباسيين قد سلكوا نظام الوراثة

---

(٦) المرجع نفسه ص ١٠ .

(٧) راجع : احمد أمين ، ظهر الإسلام ، الجزء الأول ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٦٩ ص ٤٩ .

فى الخلافة فقد أصبحت ولاية العهد ووراثة الحكم أمورا تقليدية ، لكن الجديد هو ما استأثرت به الشورى والأعراف القبلية من رعاية - نظريا على الأقل - ، أما من الناحية التطبيقية والواقعية فلم يكن للشورى ، او الأعراف والتقاليد القبلية مكانا فى اختيار ولى عهد الخليفة ، ويلاحظ المؤرخون تولية العديد من الأطفال فى الخلافة ، فضلا عن العديد من غير المؤهلين للقيام بأعباء الخلافة الذين تولوها ، وفى مجال الدراسة المقارنة مع الدولة الأموية ، فان الأمويين بالرغم من نزعتهم الاستبدادية لم يتمكنوا من تجاوز التقاليد العربية ، وحافظوا على حرمة القبيلة ، ومنزلة رئيسها ، ومكانته الاجتماعية ، واحترام الأنساب ، فى حين احتلت التقاليد الفارسية والأعجمية مكانتها عند الدولة العباسية ، واعتمد الخلفاء على الفرس والموالى وقربوهم منهم ، وتمكن الموالى أن ينفذوا الى قلوب الخلفاء ويسيطروا على مرافق الدولة ومؤسساتها ، بل ان العهد الجديد قد استقى العديد من النظم الادارية الأعجمية والكسروية حيث بالغوا فى الاعتماد على غير العرب وخاصة أهل خراسان فى الجيش ، واصبح العربى كالغريب ، كما جعلوا فرقا من الجنود المرتزقة التى اعتمدوا عليها وأغدقوهم بالرواتب الكبيرة .

وأدى ابناء البلاد المفتوحة من روم ، وفرس ، وسريان ، واقباط ، وانباط دورا كبيرا فى الثقافة الاسلامية التى أثريت فى العصرين العباسى الأول والثانى ، كما خلقوا بيئة اجتماعية بأفكارها ، وآدابها ، وأخلاقها المستمدة من الحضارات القديمة العريقة من فارسية وورومية وهندية ، فاختفت أو كادت تلك الروح القبلية التى سادت العصر الأموى وحلت محلها روح التعصب القومى ، وقد سبقت الاشارة الى انقسام العرب فى العصر الأموى الى قيس ، ويمن ، أو قحطانية وعدنانية ، أما الدولة العباسية الناشئة فقد سادت فيها أفكار اجتماعية غريبة عن البيئة العربية مثل الزندقة ، والالحاد ، والمانوية ، والمزدكية ، والخرمية . وكان طبيعيا أن يتطاول الأعاجم والموالى على العرب ل ويطمسوا كثيرا من معالم الفضل العربى عليهم .

وكانت العراق مركزا لهذه الأفكار ، ومن الثابت أن العراق ، والكوفة قد اجتمعت فيهما كثير من الثقافات القديمة ، وكان طبيعيا أن تنبع فى هذه البيئة جماعات لها أفكار مغايرة تماما عن الأفكار العربية مثل

شتى الثقافات والأفكار والآراء ، وكان فيها كثير ممن أسلم رغبة فى منفعة أو رهبة من بطش ، وقلبه مملوء كرها للعرب والاسلام ، وكان الاعتماد على الموالى دافعا لتقوية النزعات القومية ، فاخذ العرب مع ما هم عليه من حزازات قديمة يتحزبون على الأعاجم ، ويرجعون الى تقاليدهم الجاهلية التى حاربها الاسلام ، وأخذ الفرس والموالى يتكتلون ضد العرب ، وأخذت بوادر النزعات القومية ، والاقليمية تبرز فى الأقاليم المفتوحة فى خراسان ، والجزر ، وبلاد الشرق ، وأخذ المتطلغون الى السلطة من أبناء فارس والديلم ، والأتراك يفكرون في الانسلاخ من جسد الدولة العربية ، ويعملون على الاستقلال الذاتى ، وهذا يرجع - كما سبقت الاشارة - الى أن الدواوين والدولة يتبوأ مراكزها العالية الموالى أنفسهم ، وقد ساعد على ذلك نقل عاصمة الدول من الشام الى العراق فانتقلت الأنشطة الفكرية والسياسية الى المشرق ، وسادت الثقافات الشرقية ، والسريانية ، والنبطية ، والهندية ، والرومية فى الدولة الجديدة ، وضعف نفوذ الدولة المركزية فى ولاياتها ومنها جنوب الجزيرة العربية .

الفتوحات الاسـلامية :

سبقت الاشارة الى استمرار الدعوة السرية للقضاء على الأمويين منـذ مطلع القرن الثانى الهجرى وحتى سنة ١٢٥هـ ، وقد استعمل دعاة الدولة الجديدة جميع الأساليب لتحقيق أهدافهم ، وقد فطن الأمويون لذلك وأخذوا يلاحقون هؤلاء الدعاة ، ثم انتقلت حركية الدعوة من السرية الى الجهر بها من جانب ابراهيم بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس سنة ١٢٦هـ بعد وفاة والده ، وفى العام التالى تولى أبو مسلم الخراسانى مسئولية انجـاح ثورة العباسيين وجمع حوله كل المؤيدين لهم وخاصة الساخطون والحاقدون على الدولة الأموية .

سار أبو مسلم الى خراسان فى سنة ١٢٨هـ فلبس السواد الـذى اتخـذه العبـاسيون شعارا ، وأحس الخـليفة الأموى مروان بن محمد بخطورة الموقف ، فكتب الى أميره على خراسان (نصر بن سيار) أن يحسم الأمر بشدة ، وأمر الخليفة الأموى عامله بالبلقاء أن يهاجم الحميمة ، ويأسر ابراهيم بن محمد ، ويرســل به اليه ، ثم بعث فى سنة ١٣١هـ من جاء بابراهيم بن العباس ، الذى أدرك أن مروان لابد وأن يقتله ، فأوصى بالأمر من بعده الى أخيه أبى العباس عبدالله (السفاح) ، وطلب اليه أن يتـرك الشام ويفر بأهله الى الكوفة حيث شيعتهم ، فسار أبو العباس حتى دخلها سرا ومكث حوالى الشهرين متخفيا عن الخليفة الأموى الذى قتل أخاه .

لما علم أبو مسلم الخراسانى بوصولهما الى الكوفة ، قدم اليهمـا ، وعزاهما بوفاة أخيهما ، وبايع أخاه أبو العباس ، وعاد الى خراسان بعد أن أوصاه أبو العباس ألا يدع فى خراسان عربيا لا يدخل تحت أمره الا ضرب عنقه ، وتذكر المصادر خطبة لها دلالتها فى العلاقات السياسية الاسـلامية حيث انتقلت بؤرة الاهتمام الى الكوفة وذلك حينما قام عم أبى العبـاس السفاح وهو داود بن على الذى كان من أفصح بنى العباس قائلا : «يا أهل انا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا من أهل خراسان ، فاحيا بهم حقنا ... واظهر بهم دولتنا ، ... وأدالكم على أهل الشام ، ونقل اليكم السلطان وغير الاسـلام ... » ، ويسـتدل الباحثون من هذه الخطبة الأسس التى اعتمد عليها العباسـيون فى تكوين دولتهم .

لما تمت البيعة للخليفة الجديد ، رأى أن أول ما يجب عليه هو تكملة فتح ما بقى من أجزاء العراق ، والاستيلاء على الشام ، والقضاء على مروان بن محمد الذى أفزعته قوة أعدائه العباسيين ، فجمع جيشا كبيرا يقدرر عدده بمائة ألف ، وتلاقى مع جيش العباسيين البالغ اربعين ألفا بقيادة أبو مسلم الخراسانى على نهر الزاب فى جمادى الآخرة سنة١٣٢هـ وعلى الرغم من ضخامة جيش الأمويين ، الا أنهم هزموا ، بسبب ما بثه العباسيون من دعاية حول الانتصارات التى أحرزوها فى خراسان والشام التى حاصرها واضطر أميرها الوليد بن معاون أن يستسلم فدخلها جيش العباسيين وفتك بالأمويين ، وهرب مروان بن محمد الى مصر حيث قتل هناك ، وبقتله انتهت دولة بنى أمية فى الشرق ، وتوطدت أركان الدولة العباسية .

وفيما يتعلق بتصفية الحسابات بين الخليفة العباسى الجديد ومنافسيه وأهمهم أبو سلمة الذى كان قد أخفى لديه أبو جعفر وأبو العباس - فقد اضطربت المصادر فى ذكر من حرض على قتله فيما بعد ، أهو الخليفة أو أبو مسلم - فان هذه النقطة لا تدخل فى مجال هذه الدراسة التى تتركز أصلا على تطور العلاقات السياسية الاسلامية ، وكان أبو سلمة بمثابة كابوس ثقيل وخطر على الخليفة الجديد الذى يريد فرض ارادته وحده فى أرجاء المملكة الاسلامية من أقصاها الى أقصاها . وقد كتب الجغرافى الموثوق المعاصر لذلك العهد وهو الشيخ أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبى بكر المقدسى المعروف بالبشارى المتوفى سنة ٣٧٥هـ فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، كتب أن المملكة الاسلامية فى ذلك العهد قد امتدت طولا من أقصى الشرق عند مدينة كاشغر ، الى السوس الأقصى على شاطىء بحر الظلمات ، وأنها تمتد عرضا من شواطىء بحر قزوين الى أواخر بلاد النوبة ، وبلغ طول هذه المملكة ألف وستمائة فرسخ(٨) وقد انقسمت المملكة الاسلامية الجديدة الى أربعة عشر اقليما كالآتى :

أولا : اقليم جزيرة العرب ، واشتمل على الحجاز ، وقصبته مكة المكرمة ومن مدنه طيبة وينبع والجار وجده والطائف ، ثم اليمن وهو قسمان ، فما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة ، وما كان ناحية الجبل

---

(٨) راجع فى تفصيل ذلك ، دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ،المجلد الثانى ، مرجع سابق ص ٣٦ - ٤٠ .

فهو نجد ثم بلاد عمان وقصبتها صحار ثم بلاد هجر وقصبتها مدينة الاحساء (البحرين) ٠

وأهل هذا القسم لغتهم عربية ، تتكلم اللسان العربى ، الا صحار فان سكانها يتكلمون الفارسية ٠

أما القسم الثانى فهو العراق الذى شمل الكوفة والبصرة وواسط والمدائن وحلوان وسامراء ، وشعوب هذا الاقليم نبطيون ، دخله العرب ، فزاحموا أهله ، وصارت كأنها لهم ، وأصبحت لغتهم العربية ، وأصبح لهجاتهم الكوفية لقربها من البادية ، وبعدها عن النبط . وأما سكان البطائح فنبط ، والذين نزلوا بهذا القسم من الاقليم من العرب أكثر من الذين منهم بأى قطر آخر ، ما عدا الشام والجزيرة ، وقد كان بهذه الأقاليم ملوك المناذرة بالعراق ، وملوك الغساسنة بالشام ، ولم يكونوا مستقلين ، فلما جاء الاسلام اتسق لهم الملك بالاقليمين ، وكان الشام مهد الدولة الأموية ، كما كان العراق مهد الدولة العباسية ٠

أما القسم الثالث فهو اقليم آقور وسمى بالاقليم الجزيرة لأنه يقع ما بين نهرى دجله والفرات وشمل ديار ربيعة وقصبتها الموصل ، وديار مضر ، وديار بكر ، وقد نزل العرب هذه الديار قبل الاسلام ، وسكنها قبائل من العدنانيين سميت بهم ، ولذلك يعتبر هذا الاقليم عربيا محضا ، وينتهى الى حدود الروم وأرمينية ، ومناخه مقارب للشام ، ومشابه للعراق ٠

وقد شمل القسم الرابع اقليم الشام وبه قنسرين وقصبتها حلب وحمص وقصبتها دمشق والأردن وقصبتهما طبرية وفلسطين وقصبتهما الرملة والشراة ٠

وقد شمل القسمان الخامس والسادس مصر والمغرب[٩] أما اقليم المشرق فيقع فى آسيا وهو قسمان ، ما وراء النهر وهو شرقى نهر جيحون ويسمى جعيطل وغربى نهر جيحون ويسمى بلاد خراسان[١٠] ، وقد شمل

---

(٩) نفس المرجع السابق ص ٣٢ ـ ٣٤ ٠

اقليم انديثم العديد من المدن العامة وشمل اقليم الرحاب الراق وأرمينية وأذربيجان وشمل اقليم الجبال الرى وهمذان وأصفهان ، وشمال خورستان الذى يعرف بالأهواز العديد من المدن ، فى حين شمل اقليما فارس وكرهان احدى عشر مدينة هامة والأخير يشبه ما قبله ـ أى اقليم فارس ـ وأخيرا اقليم السند الذى شمل خمس مدن • وهذه الأقاليم كلهـا كونت مملكة اسلامية منرامية الأطراف متعددة الشعوب والموارد الاقتصادية واللغـات ، ولم تكن ادارتها سهلة ، غير أن خلفاء العصر العباسى الأول سيطروا عليهـا جميعا • وهو ما يستدعى وقفة للتفسير بالنسبة لأوضاع بلاد السند •

أصبح أبو مسلم الخراسانى ـ مع قيام الدولة العباسية فى نهـاية سنة ١٣٢هـ كما سيأتى ذكر ذلك تفصيلا ـ واليـا على خراسان وحاكما عاما على الولايات الشرقية للخـلافة العبـاسية بما فيهـا بلاد السـند ، قد أرسلو جيشا بقيادة فعلس بن السرى العبـدى الى بلاد السنر لاقامة حكومة عباسية هناك •

وقد سبقت الاشارة أن منصور بن جمهور الكلبى الثائر كان لا يزال يحكم بلاد السند ، وسار فعلس العبدى عن طريق طخارستان حتى وصل مدينة الديبل واشتبك فى قتال عنيف مع حاكمها منظور شقيق منصـور الكلبى ، وقتل منظور فى المعركة ، وتقـدم فعلس العبـدى نحو مدينة المنصورة ـ العاصمة العربية ـ ولما سمع منصور بخبر موت أخيه ، جهز الجيش لمحاربة فعلس ، فخرج من المنصورة ووقع قتال شديد بين الطرفين وانهزم الجيش العباسى ، ووقع فعلس ومن معه من كبار القواد فى الأسر حيث قتله المنصور على الفور •

ـ الخلفاء العباسيون والعلاقات الخارجية

سوف نستعرض انجازات الخلفاء العباسيين فى العصر العباسى الأول . وبصفة خاصة مواقفهم من الأخطار التى هددت الدولة الاسلامية من الفتن والثورات والحروب التى خاضتها وعلاقاتها الخارجية .

١ ـ أبو العباس السفاح (١٣٢ـ١٣٦هـ)

هو أبو العباس عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس . اتخذ مدينة الانبار عاصمة له كأول خليفة عباسى ، أسس دولته على الحزم والقوة ، وخطب يوم اعتلائه للخلافة منددا بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ، ومدح أهل الكوفة لاخلاصهم ، وولائهم ولقب بالسفاح بالرغم من أن أحدا من المؤرخين[١١] القدامى الموثوق بهم لم يذكره بهذا اللقب باستثناء المسعودى الذى نقل عنه المؤرخون المحدثون هذا اللقب . وفى عهده ابتدىء بتنظيم الدولة الجديدة ، فنوطد الأمن فى أنحائها كافة ، وتم استيزار أبوسلمة الخلال ولقبه بوزير آل محمد ، ولم تكن لفظة « الوزارة » قد استقر عليها بعد لأنها أمر جديد لم تعرفه النظم الاسلامية سلفا[١٢] ، وكانت هذه أول مرة يذكر فيها هذا المنصب بشكل رسمى فى العهد العباسى ، ويظهر أن أهل خراسان أخذوا ذلك المنصب من تنظيماتهم الفارسية الساسانية .

وقد سبقت الاشارة أن الشدة التى اتبعها السفاح لم تشمل بنى أمية فقط ، بل امتدت لتشمل وزيره أبا سلمة لاتهامه بالميل الى العلويين . ويعزى استقرار بناء الدولة العباسية الى أبى الخراسانى فى الشرق ، وأبى جعفر المنصور بالعراق وعبدالله بن على بالشام ومصر[١٣] . ومن

---

(١١) مثل الطبرى والمعقوبى وابن قتيبة .

(١٢) على ان هذه الكلمة كانت معروفة من قبل ، فقد وردت فى القرآن الكريم عند قوله تعالى : « واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى » ، كما وردت فى بعض الأحاديث النبوية الشريفة تصف أبا بكر الصديق بانه كان وزير النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى العصر الأموى أطلق اللفظ على الكاتب .

(١٣) راجع فى تفصيل ذلك .

ـ عبد الفتاح السنجاوى . الخلافة العباسية اضمحلالها وسقوطها ، مطبعة عطايا عصر=

اصلاحاته الأولى أنه مسح المسافة بين الكوفة ومكة وأقام(١٤) علامات عند كل ميل ليهتدى بها المسافرون ، وفيما يتعلق ببلاد السند ، فقد تلقى رسالة من أبى مسلم الخراسانى حاكم خراسان والولايات الشرقية بمقتل قائد حملته فعلس العبدى على بلاد السند ، واستأذن أبو مسلم الخراسانى الخليفة فى اختيار موسى بن كعب التميمى قائدا على جيش كبير وتعيينه واليا على بلاد السند .

توجه موسى بن كعب التميمى بجيشه الى مدينة قندابيل بعد أن جمع المعلومات عن أحوال السند ، ونجح فى جلب اهتمام كبار القواد وزعماء قبائل السند فى المنصورة ـ العاصمة العربية هناك ـ وتأييدهم له وأقنعهم بعدم جدوى المقاومة للخليفة العباس وجيوشه الجرارة .

تحرك موسى بن كعب التميمى نحو المنصورة بعد عبوره نهر السند وخرج فى مواجهته منصور بن جمهور بجيشه ، واشتبك الجيشان حيث انهزم جيش موسى ، وقتل موسى ، ودخل موسى بن كعب مدينة المنصورة وأسس حكومة عباسية جديدة ، وقام باصلاحات كثيرة فيها ، كما وسع مسجدها الذى كان قد بناه عمرو بن محمد بن القاسم ، ونظم الأمور الادارية والسياسية فى جميع أنحاء بلاد السند فأخذ البيعة والطاعة من حكام المدن والمناطق عربا وعجما للخلافة العباسية .

٢ ـ ابو جعفر المنصور (١٣٦ـ١٥٨هـ) (٧٥٤ـ٧٧٥م)

هو عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس ، ولد بالحميمة سنة ١٠١هـ ، كان الساعد الأيمكن لأخيه السفاح الذى ولاه امرة الجزيرة وارمينية وأذربيجان ، فوطد أركان الدولة الجديدة فى عهده ، وكان عليه أن يسد ثلاث ثغرات ، الأولى احتدام المنافسة مع عمه عبدالله بن على الذى كان نفوذه قويا فى خراسان والشام والجزيرة والموصل ، وكان طامعا فى الخلافة ، والثانية درء الخطر الذى أخذ يتعاظم من أبى مسلم الخراسانى ، أما الثغرة الثالثة فقد تمثلت فى الطامحين من آل على بن أبى طالب ، الذين

= القاهرة ١٩٥٥ .

ـ الشيخ محمد الخضرى ، محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٧٠ .

(١٤) وقد توفى أبو العباس السفاح سنة ١٣٦ هـ بالانبار .

لا تزال قلوب الناس معهم ، وكان على رأس العلويين محمد بن عبدالله بن الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بذى النفس الذكية .

كلف المنصور أبا مسلم الخراسانى أن يقضى على عبدالله ، ورغم رغبة أبى مسلم فى التخلص من هذه المهمة ، الا أن المنصور أصر على ذلك فاضطر أبو مسـلم لمواجهة عبدالله فى حرب دامت نصف سنة ، وكانت المعـركة الفاصلة سنة ١٣٧هـ ، وهرب عبدالله ، والتجـأ الى أخيـه سليمان أمير البصرة ، فأمنه على نفسه ، وسعى لدى المنصور ليعفو عنه ، فوافق على سجنه ، وظل مسجونا حتى مات سنة ١٤٧هـ .

أما أبو مسلم الخراسانى فلم يكن المنصور راضيا عنه سواء قبل توليه الخلافة أو بعدها حيث لاحظ تعاظم نفوذه واستبداده بالناس ، ومما زاد العلاقات سوءا بين أبى مسلم والمنصور ، أما الأول بعد انتصاره على عبدالله ابن على - كما سبقت الاشارة - فقد أرسل المنصور من قبله رسولا ليحصى الغنائم ويسجلها ، فغضب أبو مسلم من هذا التصرف قائلا : « كيف أؤتمن على الأرواح خائن فى الأموال(١٥) » ، وتأزمت الأمور أكثر عندما عين الخليفة أبا مسلم على مصر والشام ، فرفض أبو مسلم وأصر على بقائه فى خراسان ، رأى المنصور فى أبى مسلم خصما عنيدا وخاصة عندما أرسل اليه يطلب منه مرافقته الى المدائن فلم يستجب له قائلا : « انه لم يبـق لأمير المؤمنين عدو الا مكنه منه ... وقد تروى عن ملوك آل ساسان أنه أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء ، فنحـــن نافرون من قربك ، حيث تقارنها السلامة ، فان أرضاك ذلك فاننا كأحسن عبيدك ، وان أبيت الا أن تعطى نفسه ارادتها نقضت ما أبرمت من عهـــدك ضنا بنفسى عن مقامات الذل والاهانة ... » . وقد رأى المنصور استخدام أسلوب الدهاء مع أبى مسلم فكتب اليه قائلا : « قد فهمت كتابك ، وليست صنعتك أولئـــك الوزراء الغششة الى ملوكهم يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، ... فلم سويت نفسك بهم ، فانه فى طاعتك وبناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، ... وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك ، فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أقرب وأوكد من طبه من الباب الذى فتحه عليك ... » .

وقد أمر الخليفة رسوله الذى أرسل اليه خطابه أن يحدثه باللين ، وأن يمنيه ، فاذا أبى فليهدده ، فلما وصل رسول الخليفة اليه أخذ أبو مسلم الرسالة وقرأها واستشار خاصته فنهوه عن السفر الى المنصور ، فلما هدده رسول الخليفة اضطرب أبو مسلم وأدرك أنه مغلوب على أمره لا سيما بعد أن تمت تولية أبى داود — نائب أبى مسلم — على خراسان طيلة عمره على أن يقطع صلته بأبى مسلم ، فلما قصـــد أبو مسلم المدائن ، ودخل على الخليفة الذى كان قد أمر أن يجىء أربعة من رجاله ويخبئهم وراء السرادق ، ثم سأله عن سبب رغبته فى البقاء فى خراسان فأجاب أبو مسلم : « دع هذا فما أصبحت أخاف أحدا الا الله » ، فلما سمع المنصور كلماته هـــذه صفق ، فخرج الشرطة فقتلوه •

أما موقفه من العلويين ، فقد رأى المنصور أن محمدا وأخاه أحفاد على ابن أبى‌طالب كانا يهـــددان كيان دولته فأخـــذ يعمل على العثـــور عليهما وقتلهما ، وألقى القبض على والدهما ، وعلى أهله ، وزج بهم فى السجن ، ثم نقلهم الى العراق ، وأمر بتعذيبهم فمات أكثرهم فى السجن ، وأخـــذ يهدد محمدا ذى النفس الذكية وبعث اليـــه بجيش ، وانتهت المعـــركة بقتله(١٦) سنة ١٤٥هـ واستسلم جميع العلويين بعد ذلك ، ورفعت الاعلام السوداء فى كل مكان ، وثار أخوه ابراهيم بن عبدالله فى البصرة مؤيدا من جمع غفير من أهل خراسان ، وخاف المنصور مغبة حركته ، فأرسل اليـــه جيشا من الحجاز ، وكان ابراهيم مسيطرا على فارس ، والأهواز ، والتقى الجيشان بجوار الكوفة فهز ابراهيم وقتل •

وبموت محمد وابراهيم حفيدا الحسين بن على بن أبى‌طالب ، فقـــد تخلص المنصور من خصومه الألداء جميعا وخطب أمـــام شيعة خراســـان قائلا : « يا أهل خراسان أنتم شعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وان أهل بيتى من ولد على بن أبى‌طالب تركناهم ، والذى لا اله الا هو ، والخلافة لم تعرض لهم فيها بقليل أو كثير فقام على ، وتلطخ ، وحكم عليه الحكمين ، فافترقت عنـــه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم قام من بعده الحسن فوالله ما كان فيها برجل ، ثم عرضت عليه الأموال فقبلها ، ثم قام من بعده الحسين فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة ، ثم وثب علينو بنو أمية فأماتوا شرفنا ، فصرنا تارة بالطـــائف ـ

(١٦) نفس الرواية وردت فى الطبرى ، الفخرى ، المسعودى •

وتارة بالشام ، حتى أبتعنكم الله لنا شيعة وأنصارا ، فأحيا شرفنا ، وعزنا بكم ، أهل خراسان ، ودفع بحكم أهل الباطل ، وأظهر حقنا ، فلما استقرت الأمور فينا ، وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا ، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ، جهلا علينا وجبنا عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن » .

ويكاد المؤرخون يجمعون أن المنصـــور هو المؤسس الحقيقى للدولة العباسية وشمولها لاقاليم شاسعة انضوت تحت لواء الاسلام ، وهو الذى قضى على الفتن التى اشتعلت فى أماكن متعـددة وهددت قواعد المملـكة ، وهو الـــذى أسس عاصمة جديدة للـــدولة ونظم الجيش وأدار علاقاتهـــا السياسية الخارجية على النحو الآتى :

الجيش ودوره الاسلامى :

اهتم المنصور بتقوية الجيش اهتماما كبـــيرا ، وكان للجيش دوره فى توجيه الدولة والقضاء على روح التمرد والزندقة والفـرق التى ارادت هدم الاسلام والقضاء على كيان العرب وتقليص مجدهم ومن هذه الحركات الهدامة حركة (بهافريد) المتنبىء الفارسى الذى قام فى عهد أبى العباس بثورة عقلية فى نيسابور زعم أنها تكملة لرسالة « زرادشت » ، فاستجاب له كثير من السكان وبخاصة الذين من أصل مجوسى . ومن تلك الحركات الهدامة « حركة الخرمية » وهى طائفة أرجعت مبادىء « دينها » الى مذهب مزدك الاباحى وتفرعت عن هذه الحركة فرقة الخداشية والزرامية ، كمـا ظهرت حركة « الراوندية » بالقرب من أصبهان ، وقد اتخذت مبدأ تقديس الملوك الى درجة الآلهة « وان أبا جعفر المنصور هو الهنا » ، وأن الألوهية انتقلت اليه ، وحلت فيه ، وأن روح الله كانت فى عيسى عليه‌السلام ما تزال تنتقل منـــذ أن حلت فى على ، حتى حلت بابراهيم بن محمد ، ووصلت الى المنصور ، وهناك حركة المقنع الخراسانى الذى اتخذ لوجهه قنـــاعا من ذهب أو من حرير أخضر وادعى الألوهية وأسقط الصلاة والصوم والزكاة والحج عن أتباعه وأباح أموال الآخرين ونكاح نسائهم ، وهناك الكثير من الحركات الالحادية(١٧) التى ضيق عليها جميعا الخليفة المنصور من خلاله

---

(١٧) لمزيد من التفصيل راجع : الشهرستانى ، مصدر سابق ص ٧٥ - ٨٠ ، الطبرى . مصدر سابق ، الجزء الثامن ص ٢٤٠ - ٢٤٩ .

ما قام به الجيش الـذى تكون من فريقين ، الفـريق الأول هو جيش الخراسانيين ومن اليهم من الأعاجم ، والفريق الثانى هو جيش العـرب ، وكان الخليفة يوازن بين الفريقين ، وكان من أشهر قادة الجيش أبو مسلم الخراسانى ، وعمرو بن العلاء ، والمسيب بن زهير الضبى ، والحسـن بن قحطبة الطائى ، ويزيد بن حاتم ، ويذكر الطبرى أن المنصور كان يتفقد جيشه بين وقت وآخر ويصلح ما يكون قد فسد من شئونه ويعتنى بقادته وتنظيمه وتقويته حيث دوره فى القضاء على الفتن الداخلية والحركات الهدامة فضلا عن دوره الخارجى .

فقد كانت الامبراطورية العربية العباسية متاخمة للبيزنطيين ، وكانت وكانت بزور النزاع بينهما قائمة منذ الدولة الأموية ، وورث العباسيون هذه العداوة ، كما ورثوا تقليدا أمويا هو ارسال الجيوش لغزو بلاد الروم كل صيف وشتاء ، وكانت آسيا الصغرى هى مجال تلك الحروب . وقد تم تجديد هذا التقليد فى عهد المنصور بعد أن صمم على توسع الدولة الاسلامية فغزت جيوش المسلمين جيوش الروم سنة ١٣٨هـ ، وتعددت الحروب بين الروم والمسلمين ، ونظرا لأن بغداد عاصمة الدولة العباسية كانت أبعـد من دمشق عاصمة الدولة الأموية ، فقد اكتفى العباسيون بارسال الصوائف والشواتى ، غير أن المنصور جهز جيشا اسلاميا من الخراسانيين والعـرب لمواجهة مناوشـات البيزنطيين بتحصـين حـدوده من جهتهم ، ويذكر البلاذرى(١٨) أن المنصـور أمر فى سنة ١٣٩هـ بتجميع الصناع المهـرة فى كافة الدولة لتحصين الثغور ، وبنى للجنود قلاعا ، وبنى مدينة الرافقة على الفرات سنة ١٥٥هـ استمرارا لتحصين حدوده حيث جعلهـا على نمط مدينة بغداد وأكثر فيها من السلاح والذخيرة لتكون مقر حركاته فى حروبه مع الروم ، ثم اتجه الى حدوده المتاخمة لبلاد الخزر ، فقواها ، وجدد بنـاء مدينة كمخ ، والمحمدية ، وباب واق(١٩) .

وهكذا أخذت الدولة العباسية شكلها من خـلال خلافة أبى جعفر المنصور الذى كان أقوى الخلفاء العباسيين وأطولهم حكما بحيث ظل يحكم ٢٢ عاما ، على نهج يختلف عن النهج السـياسى فى الدولة الأموية حيث

---

(١٨) راجع فى تفصيل ذلك : البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٤٤٠ - ٤٤٥ .

(١٩) ومن ناحية الاهتمام بالعلماء والفقهاء ودورهم فى تقوية كيان الدولة الجديدة ، فقد استعان بنو العباس بالامام الأعظم أبو حنيفة والامام مالك .

خفت فى عهده الخلافات القبلية بين العـرب عامة ، وكان لسياسته أثر طيب على بلاد السند أيضا حيث بدأت العلاقات العلمية بين العرب والسند واستفاد العرب من علوم أهل السند ، كما أفادوهم بالعلوم المختلفة ٠

وفيما يتعلق بالأحوال السياسية فى بلاد السند فى فتـرة خلافة أبى جعفر المنصور ، فحينما علم باشتعال الفتنة القبلية هناك قام بعـزل عيينه بن موسى بن كعب التميمى ، وجهز جيشا بقيـادة عمر بن حفص ووجهه الى بلاد السند للاستيلاء على الحكم فيها(٢٠) ، وانضم أغلبية القادة من السند اليه لتضايقهم من سياسة عيينة وخاصة مع اليمانية من ناحية ومعاداته للخليفة من ناحية أخرى ، واضطر عيينة الى الصلح مع عمر بن حفص الذى أعطاه الأمان ، ولخوفه من عقاب الخليفة فر هاربا نحو سجستان حيث قتلته جمـاعة من اليمانية وحملوا رأسه الى الخليفة المنصـور فى سنة ١٤٢هـ ولم تقم فى فترة حكم عمـر بن حفص - التى استمرت نحو تسع سنوات - خلافات قبلية من جانب العرب ، ولا اضطرابات سياسية من جانب أهل السند حتى عزله الخليعة فى سنة ١٥١هـ لتأييده للعلويين وحركة الشيعة السياسية فى بلاد السند(٢١) ٠

تولى الحكم فى السند هشـام بن عمر التغلبى (١٥١ - ١٥٧هـ) وكان هدف الخليفة من توليته القضاء على زعيم الشيعة السياسية هناك - عبدالله الأشتر ومحاربة ملك السند الذى أيد الشيعة السياسية ، وقد نفذ هشام أوامر الخليفة حيث استولى على مملكة الملك السندى وقتـل عبدالله الأشتر ، كما قام بحملات على بعض المنـاطق الشرقية ، وقضى على الفتنة فيها ، ثم توجه نحو المناطق الغربية وقضى على العرب المتغلبة من الأمويين بمدينة الديبل وما حولها ٠ وفتـح منطقة قندهار « كندهاوة » ، وبعض مناطق كشمير غير أنه لم يوفق فى السيطرة الكاملة على بلاد كشمير وبلاد الهند ٠ واتسم عهده بالاستقرار والطمأنينة حتى فوضه الخليفة المنصـور

---

(٢٠) الطبرى ، تاريـخ الأمـم والملوك ، الجـزء الثـالث ص ١٣٥ - ١٣٩ « حوادث سنة ١٤١ هـ » ٠

- اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، الجزء الثانى ص ٣٦٢ - ٣٦٤ ، ٣٧٢ ٠

- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ص ١٨٥ - ١٨٨ ٠

(٢١) حيث أمر الخليفة بنقله الى حـكم افريقيا وقتل فيها سنة ١٥٤ هـ ، راجع ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، الجزء الخامس ، ص ٣٨٦ - ٣٨٩ ٠

فى ادارة أمور منطقة كرمان الواقعة فى ايـران ، واستطـاع أن يحكم بلاد السند الواسعة مشرفا على حكومة العرب فى الملتان . وشجع اقامة علاقات علمية بين العرب والسند وخاصة فى بغداد والبـلاد العـربية والاسـلامية الأخرى .

وبوفاته فى سنة ١٥٧هـ ولى الخليفة المنصور على تلك البلاد معبـد ابن الخليل التميمى (١٥٧ - ١٥٩هـ) الذى حكم السـند بحزم وأقام بمدينة المنصـورة وشهد وفاة الخليفة المنصـور وتعيين ابنه المهـدى سنة ١٥٨هـ .

٣ - المهدى بن المنصور (١٥٨ - ١٦٨هـ) (٧٧٥ - ٧٨٥م)

هو محمد بن عبدالله المنصور . ولد بالحميمة سنة ١٢٦هـ ، وكان قد تولى قيادة الجيش الى خراسان سنة ١٤١هـ للقضاء على بعض الفتن هناك ، فلما وفق فى القضاء على الفتنة غزا طبرستان . وفى سنة ١٤٧هـ كان أبوه قد بعثه الى الرى ليتمرس على الحكم . ولما تولى الخلافة سنة ١٥٨هـ فقد فضل تغيير سياسة العنف التى كان يسلكها أبوه ، لأن أركان الدولة كانت قد توطدت . وخفت شوكة الثوار والمتمردين الخراسانيين ، ثم اجتذب رعيته بالعديد من الاصلاحات الاجتماعية والادارية والمالية فاستقرت الأوضاع الاجتماعية ، غير أنه استمر فى ملاحقة الزنادقة والملاحدة وفتك بهم ويذكر الطبرى أن الخليفة جدد فى سنة ١٦٨هـ ، فى طلب الزنادقة والبحث عنهم وقتلهم وكان أكثرهم من المانوية ، والاباحيين ، والملاحدة ، والديصانية ، والمرقونية ، وحفلت المكتبة الاسلامية فى عهده بأمهات الكتب الفكرية التى ترد على هذه الحركات الهدامة .

وفيما يتعلق بعلاقاته الخارجية فالملاحظ أن علاقته بالدولة الرومية كانت سيئة ، وقد عمل على التوغل فى بلاد البيزنطيين . وأرسل (الصوائف) و (الشواتى) كل عام للجهاد والغزو ، وبعث بابنه هارون سنة ١٦٣هـ فغزا بلاد الروم وتوغل حتى بلغ تخوم القسطنطينية والبوسفور ، واضطرت الامبراطورية لصالحته وعقدت هدنة لمدة ثلاث سنوات معه . وكان المهدى قد حاول فى سنة ١٥٩هـ فتح الهند ، فبعث عبدالملك بن شهاب المسمعى بجيش من البصرة فى البحر ، قوامه نحو عشرة آلاف رجل ، فقدموا مدينة (باريد) - بهار بهوت - على الساحل الهندى .

وقع قتال شديد بين العرب المسلمين وبين أهل الهند الكفار ، وكان الانتصار للمسلمين الذين تقدموا وحاصروا المدينة وفتحوها بعد أن استشهد[٢٢] ٢٩ شخصا من العرب . ويبدو أن أحد أسباب حملة المهدى ابن منصور على ذلك الجزء من بلاد الهند هو أن أهل اقليم كجرات كانوا قد بدأوا مرة أخرى فى مضايقة التجار العرب وأسرهم نتيجة للاضطرابات

---

(٢٢) ابن الأثير . الكامل فى التاريخ . الجزء السادس ص ٣٠ - ٣٢ .

السياسية التى لم تهدأ فى هذه المنـــاطق الشاسعة وما عكسته أحـــداث الصراع على السلطة بين ملوكها المحليين(٢٣) على الجاليات العــــربية التى وقعت لها أضرار كثيرة ، ولذلك وجه الخليفة المهدى بن منصور فرقة بحرية الى هناك لمساعدة المسلمين وفتح هذه المنطقة ٠

مات أكثر من ألف جندى عربى(٢٤) بسبب انتشار الأمراض الوبائية المسمومة والمعروفة فى شبه القارة الهندية ، مما جعل الـرعب يستولى على قلوب العرب بسبب ذلك الوباء فتوجهوا بسفنهم الى بلاد فارس ، ولسوء حظهم ، عندما اقتربت من ميناء خليج العرب اشتدت الـرياح وغرق معظم الجنود ونجا القليل وواصلوا بصعوبة الى العراق وكان بين النـــاجين قائد الحملة عبدالملك بن شهـــاب المسمعى الذى تعين فيما بعـــد واليا على بلاد السند ، وبعد ذلك لم يفكر الخليفة المهدى فى ارسال حملة أخرى الى بلاد السند ٠ وقد أدى هذا الانفصال بين الخلافة العباسية وبلاد السند الى بدء عهد من الفوضى وعدم الاستقرار السياسى فى هذه البـــلاد حيث تعاقب على حكمها أحد عشر واليا ، وأحيانا كان يصل عــدد الولاة الى ثلاثة فى السنة الواحدة وذلك لضعفهم وكثرة الفتن فى البلاد فضلا عن الخلافات القبلية بين العرب ويمكن تفسير تسلسل هذه الأحداث على النحو الآتى :

اولا :

أمر الخليفة المهدى بتعيين روح بن حاتم لحكم بلاد السند سنة ١٥٩هـ ، غير أنه لم يتمكن من تنظيم الأمور بسبب قيام قوم الزط الغلاظ بالفتن فى الأجزاء الغـــربية من البلاد ، فعــزله الخليفة — رغم كونه من أسرة قيـادية معروفة — وعين أخاه يزيد بن عمرو التغلبى (١٥٩ — ١٦٠هـ) ، ولــكن الخليفة لم يلبث أن عزله لأسباب سياسية رغم أنه تمكن من القضـــاء على الفتن والاضطرابات القائمة فى البلاد من طرف قبائل الزط وكان ناجحا فى ادارة شئون الدولة ، ولا تفسر المصـــادر التاريخية(٤٥) السبب الحقيقى لعزله ٠

---

(٢٣) تذكر كتب تاريخ اقليم كجرات ان الملك « كرشن » أحد أفراد أسره « راشت كوت » كان يحـكم كجرات الجنوبية وان نزاعا قد وقع بين أفراد هذه الأسرة بشأن الحـكم والعرش ، وعلى اثر ذلك قامت الاضطرابات ٠

(٢٤) ومنهم التابعى الجليل الربيع بن صبيح — رحمه الله — ، راجع ٠ ابن الأثير الكامل فى التاريخ ، الجزء الخامس ص ٥٤ — ٥٦ ٠

ثانيا :

أمر الخليفة المهدى بعودة روح بن حاتم مرة ثانية الى ولاية بلاد السند فى سنة ١٦١هـ ، غير أنه لم ينجح فى هذه المرة أيضا فى تدبير الحكم أو القضاء على فتن الزط التى تجددت بسبب ضعف شخصية الوالى ٠
ثم تولى حكم بلاد السند نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعى فى السنة ذاتها ولم يستطع هو الآخر القضاء على الاضطرابات الداخلية وفتن الزط حيث كان يساندهم قوى خارجية وتمدهم بالمال والسلاح فى المناطق الغربية القريبة من حدود بلاد الهند وبلاد كشمير ٠ أما الوالى الثالث والرابع فى نفس العام لبلاد السند فكانا محمد بن سليمان الهاشمى وعبدالملك المسمعى ، وكان الصراع على السلطة فضلا عن عدم استتباب الأمور فى العراق حيث يخضع له ولاة السند - وراء تعيين وعزل هؤلاء الولاة بهذه السرعة والكثرة فى سنة واحدة ٠

ثالثا :

اختار والى العراق زبير بن عباس ليتولى حكم السند فى سنة ١٦٢هـ وكان ينتمى الى أسرة سياسية عريقة ، لكنه لم يكن راضيا عن توليته هذا المنصب ولم تعجبه بلاد السند وأحوالها ، ولذلك لم يهتم بشئونها حتى الغربية القريبة من حدود بلاد الهند وبلاد كشمير ٠ أما الوالى الثالثوالرابع هذه الفتن أن تقضى على سلطة العرب فى تلك البلاد حتى تم عزله ٠

وقع الاختيار على مصبح بن عمرو التغلبى لخبرته الطويلة بشئون بلاد السند حيث كان الشقيق الأصغر لصبح بن عمرو التغلبى . وفى وقت قصير تمكن من القضاء على مواطن الفتن والاضطرابات عند قوم الزط ، غير أن الفتن اشتعلت مرة أخرى - ليس من جانب الزط وأهل السند - وانما من جانب العرب بسبب تجدد الخلافات القبلية واحتدام الخصام والحروب الأهلية بين قبائل النزارية واليمانية ولم يتمكن مصبح بن عمرو بفض هذه المنازعات والقيام بالتالى بواجباته الادارية فاستقال أو عزل(٢٦)٠

- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الخامس ص ٥٤ ٠
- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث ص ٢٠٦ - ٢٠٨ ٠
- الدكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى ، الجزء الأول ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ٠

رابعا :

للمرة الثـالثة يتولى مضر بن محمد بن الأشعث الجزاعى حـكم بلاد السند (١٦٢ ــ ١٦٤هـ) ولا تذكر المصـــادر التـاريخية فترته هـــذه الا باشارات سريعة وغامضة ، وبالرغم من توليته للمرة الثالثة الا أنه فشل فى القضاء على الخلافات القبلية بين العرب فى الوقت الـذى تصاعدت فيه أيضا حدة الاضطرابات الوطنية لأهل السند ، وبوفاته تولى الشقيق الرابع لهشام بن عمر التغلبى حكم بلاد الســـند وكان يقيم فيها منذ مدة طويلة ويبدو أن حكمه كان لفتــرة وجيزة لحين وصـــول الوالى الجديد وهو الليث ابن طريف .

وكان الليث رجلا سياسيا لبقا وقائدا عسكريا موهوبا ، وفور وصوله بدأ بدراسة الأحوال السياسية والاجتماعية ووضع خطة لاصلاح أوضـــاع بلاد السند ونجح فى ذلك الى حد كبير . وكان أول شىء فعله هو استقطابه زعماء القبائل العربية الى جانبه ، وتمكن بالتالى من تنظيم الأمور الداخلية ، غير أن الزط قاموا باضطرابات عنيفة على زعمائهم المفســدين والمشـاغبين وعاد الأمن والاستقرار الى البلاد وتقدمت أحوالها الزراعية والتجارية خلال فترة حكمه التى استمرت نحو ست سنوات(٢٧) .

أما الخليفة المهدى بن المنصور فقد أراد فى سنة ١٦٨هـ الخروج بجيش كبير الى جرجان لقتال المفسدين والمتمردين . فلما وصل الى « باسيذان » أحس بالمرض يشتد عليه ، وتوفى هناك بعد فترة حافلة بالانجازات تجـاه الأمة الاسلامية .

---

(٢٧) وذلك فى الفترة من ١٦٤ ــ ١٧٠ هـ حتى تولى هارون الرشيد الخلافة فعزله مع بعض الولاة سـنة ١٧٠ هـ راجع : ــ اليعقوبى ، تاريـخ ليعقوبى ، الجزء الثانى ص ٤٠٨ ــ ٤١٠ .

٤ - من الهادى بن المهدى (١٦٩ - ١٧٠ هـ) (٧٧٥ - ٧٧٦ م)
الى الرشيد بن المهدى (هارون الرشيد) (١٧٠-١٩٣هـ) ٧٨٦-٨٠٨م)

لم يطل عهد الهادى . ومع ذلك فينسب اليه تضييقه على الزنادقة ، وسار فى ذلك سيرة أبيه فى الفتك بهم ، وتخليص الاسلام من شرورهم وتحريق كتبهم .

وفى عهده خرج الحسين بن على بن الحسن سنة ١٦٩هـ من المدينة ، وكان والى المدينة عمر بن عبدالعزيز بن عمر بن الخطاب . وتذكر المصادر أن سبب خروجه أن والى المدينة عمر ، أخذ ينكل بالعلويين ومنهم الحسين ابن محمد النفس الذكية ، وزجهم بالسجن . فاعترض الحسين لامتهان كرامة أهله ، وقصد مع أتباعه دار الامارة فى المدينة ، غير أن الوالى تحصن بها فكسروا السجن . وأخرجوا من فيه ، وبويع الحسين .

غير أن المصادر تتضارب فى ذكر تاريخ ثورة العلويين وهل كانت فى عهد المهدى بن منصور ، أم فى عهد خلفه الرشيد بن المهدى (١٧٠-١٩٣هـ) (٧٨٦-٨٠٨م) . والأرجح أن هذه التمردات العلوية قد امتدت فى عهد العباسيين من خليفة لآخر ، فقد لقوا اضطهادا كبيرا فى عهد السفاح وصولا الى عهد الرشيد حيث ثار فريق من الشيعة وهزموا فى « فخ » بالقرب من مكة ، ونجا من هذه الوقعة يحيى بن عبدالله بن الحسن ابن الحسن وفر الى مكة ، ونجا من هذه الوقعة يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن وفر الى وقد أغضب ذلك الرشيد ، وتمكن الطرفان من المصالحة . وقد حاول الرشيد أن يسلك مع متيرى الفتن سبيل السلم واللين وأن يستميلهم فأمر باخراجهم من السجون ، غير أن هذه السياسة لم تؤت ثمارها المرجوة فثار عليه . ففى سنة ١٧٨هـ خرج الوليد بن طريف أحد الخوارج فى نصيبين من أرض الجزيرة ، ففتك بعاملها ، وهزم الجيش العباسى ، وأخذ سلطانه يتسع حتى بلغ أرمينية وأذربيجان ، وأخذ يهدد العراق ، فبعث الرشيد اليه جيشا تمكن من القضاء على الفتنة(٢٨) .

كانت الشام هى الأخرى مسرحا للفتن والتمردات الداخلية بسبب

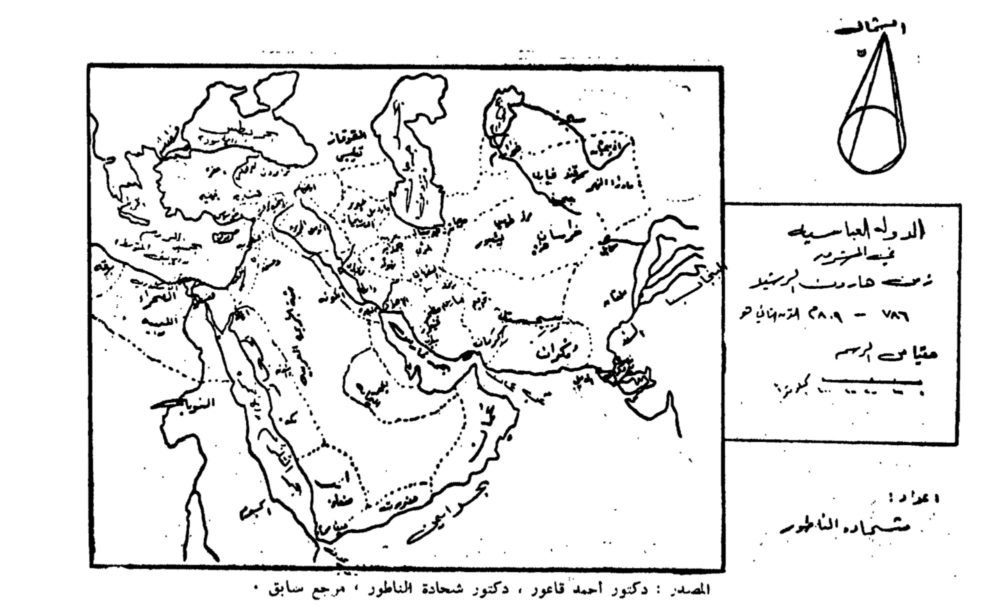
الانقســامات القبلية بين العــدنانية والقحطانية . واضطربت الطــرق التجــارية ، وفى سنة ١٧٦هـ حدثت فتنة بين اليمانية والنزارية زعزعت الاستقرار فى البلاد ولم يستطيع عامل الشام موسى بن عيسى اخماد هــذه الاضطرابات فارسل الرشيد جيشا ، وتمكن موسى من اعادة الهدوء والصلح بين الطــرفين ، غير أن الأحــداث تصــاعدت بين النــزارية والقحطانية سنة ١٨٠هـ ، وبعث الرشــيد جعفر بن خالد البرمكي ليقضى على هــذه الثورة .

وفى اليمن قامت فتنة قوية ضد الدولة العباسية سنة ١٧٩هـ ، حيث ثار الناس على واليهم حماد البربرى الذى كان شديد الجور ، فقام الرشيد بعزله(٢٩) .

واهتم الرشيد اهتماما بالغا بالثغور الاسلامية المتاخمه للبلاد البيزنطية لنشر النفوذ الاسلامى وتقوية حدوده ، ولم تخلو سنة من سنوات حــكم هارون الرشيد من غزو أو صحائف أو شات يشنه على الروم البيزنطيين . ومع ذلــك فلم تكن لديه - على الأرجح - خطة مرسومة لفتح بلاد الروم لكثرة الفتن والمشكلات الداخلية فى عهــده ، ويذكر الطبرى وابن الأثير تفصيل هذه الأحداث التى قامت فى الفتــرة ١٧٠ - ١٨٦هـ(٣٠) ، وفى سنة ١٨١هـ بلغ جيش الرشــيد أنقرة ، وفتح الرشــيد بنفسه حصن الصفصافة . وحصل أول تبادل للأسرى بين الروم والمسلمين ، كذلك قبل الرشيد أن يعقــد صلحا مع الامبراطورة رينى فى سنة ١٨٣هـ ، ويذكر الطبرى أن عيسى بن موسى مات فى أرض الروم بعــد أن نجح فى حصار حسنى قــرة وســنان ، وأن خطــابا ورد الى الرشــيد ممــا استفزه واغضبه ، ورد على نقفور امبراطور الروم ملقبــا اياه بكلب الروم ، وسار الرشيد بنفسه لقتاله وهزم الجيش الرومى هزيمة منكرة ، وقبــل نقفور أن يدفع الجزية ، وكان تبــادل آخر للأسرى فى سنة ١٨٩هـ حيث لم يبق بأرض الروم مسلم الا فودى « الطبرى ١٠ - ٩٧ » ومرة أخرى فقد نقض نقفور العهد مستغلا انشغال الرشيد بحوادث الفتنة فى خراسان ، فذهب اليه الرشيد بجيش قوامه ١٣٥ ألف ففتح هرقله وسبى أهلهــا ووقع فى أيدى المسلمين عدد كبير من الأسرى ، فاضطر نقفور أن يعــرض الصلح

---

(٢٩) الطبرى ، الجزء العاشر ص ٦٥ .



المصدر : دكتور أحمد قاعور ، دكتور شحادة الناطور ، مرجع سابق .

ويدفع الجزية عن رأسه وسار على ذلك أهم بلده . وفي سنة ١٩١هـ ولى الرشيد هرثمة على خراسان . ويذكر ابن الأثير أن الرشيد كان قد عزل(٣١) واليها على بن عيسى بن ماهان .

أما علاقات الرشيد الخارجية فقد أحرزت الدولة الاسلامية في عهده تقدما لم تشهده من قبل بالعلاقات السياسية الاسلامية مع الفرنجة وايفاد بعثة من الملك شارلمان - ملك فرنسا - اليه وأهداف الرشيد من ضرورة اقامة علاقات ودية معه مما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة(٣٢) أما العلاقات التجارية والفكرية مع الهند والصين في عهد الرشيد ، فالملاحظ أنها توطدت أكثر حيث بعث ملك الهند الى الرشيد بالعديد من الهدايا الرمزية القيمة ، وكان للبرامكة فضل كبير في ارساء دعائم العلاقات الفكرية والاقتصادية والسياسية مع الدولة العباسية حيث أطلق الرشيد لهم العنان الى أن فتك بهم سنة ١٧٣هـ وكان الرشيد أول من عهد الى يحيى بن خالد البرمكي بالوزارة وكان يحيى عالما كاتبا عاملا حازما نهض بأعباء الدولة على خير وجه ، واهتم الرشيد بحفظ الأمن في العاصمة والأقاليم وقام بتنظيم موارد الدولة المالية ، وكلف قاضي القضاة الامام أبو يوسف بمسئولية ترتيب أمر بيت المال ، فألف كتابه المشهور « الخراج » الذى يعتبر مصدرا أمينا لدراسة الشئون المالية والحسابية في هذه الفترة .

وعموما فقد ازدهرت الدولة الاسلامية عامة ، والعراق خاصة في عهد الرشيد في نواحي العلم والفكر والفن ومجالات الحضارة وصارت بغداد قبلة الباحثين عن العلم . وكفى بشرف دولته أن اجتمع ببابه الوزراء ، والأمراء ، والقواد ، والعلماء ، والفقهاء ، والأدباء ، والخطباء ، والمحدثين ، والشعراء ، ما لم يجتمع على باب خليفة غيره ، وكان هؤلاء أو معظمهم من الأئمة الذين يرجع اليهم الفضل في تدوين كتب العلم والفن ، التى أصبحت مراجع الحضارة العربية الاسلامية ، كما ازدهرت في عهده الحركات العقلية الفلسفية ، وعلى الصعيد الاجتماعي توافرت لسواد الشعب حياة مقبولة ، وهو ما يستدل عليه مما ورد في كتاب الأغاني ، لأبى الفرج الأصفهاني ،

---

(٣١) راجع تفصيل أسباب هذا القول في ابن الأثير ، مصدر سابق ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

(٣٢) حول العلاقة بين المسلمين والفرنجة في عهد الرشيد راجع : - ابن الأثير ، مصدر سابق ، دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثاني ، مرجع سابق ص ١٠٤ - ١٠٨ .

وكتاب ألف ليلة وليلة ، وكتاب الفهرست لابن النديم ، وجمع عصر هارون الرشيد بين العقل والعلم ، والسياسة والعناية بشئون الدولة والجهاد فى سبيل الاسلام ورفع شأن الخلافة ٠

شئون بلاد السند :

لم يحدث تغيير سياسى مهم فى بلاد السند فى عهد الخليفة الهادى بن المهدى ، أما فى عهد هارون الرشيد فقد انعكست مظاهر الرخاء ونهضة البلاد العربية على الولايات التابعة للخلافة العباسية فى المجالات العلمية والسياسية والتجارية ٠ غير أن الخلافات القبلية العربية ظلت مستمرة فى بلاد السند رغم الجهود الجبارة التى بذلها الخليفة للقضاء عليها ، غير أن وقوع البلاد السندية فى أماكن نائية عن مقر الخلافة فضلا عن ضعف الولاة الذين حكموها فى الماضى القريب ٠ كل ذلك جعل جهود الخليفة تذهب سدى ٠ وقد شهدت فترة خلافة الرشيد تولية عدد من الحكام على بلاد السند بدءا بسالم التونسى (١٧١ — ١٧٤هـ) الذى حاول نشر الاستقرار والأمن وجمع شمل القبائل العربية وقد تمكن من الحكم لمدة أربعة سنوات بدون مشكلات سياسية أو اجتماعية ٠ ثم اسحق بن سليمان الهاشمى (١٧٤هـ) ولكنه لم يعش كبيرا ليستفيد أهل السند من خبرته حيث توفى فى نفس عام توليته قام الخليفة بعدها بتولية طيفور بن عبدالله الحميرى (١٧٥ — ١٧٥هـ) ولكونه يمنيا فقد تجددت الخلافات القبلية بين العرب فور حضوره الى بلاد السند ، ولما اشتدت هذه الخلافات بين الثمانية والنزارية قام الخليفة بعزله(٣٣) ٠

تولى جابر بن الأشعث الطائر (١٧٥ — ١٧٦هـ) حكم بلاد السند ، ولكنه فشل فى ادارة البلاد فتم عزله ، ويلاحظ اليعقوبى خلال تلك الفترة انفصال بعض المناطق التى تقع فى الجهة الشرقية لنهر السند عن الحكم العربى مثل برهمنا باد ، والور وقيام حكومات محلية سندية بها ، ويعزى اليعقوبى ذلك لانشغال العرب بالخصومات القبلية ، فى حين كانت المدن والمناطق الواقعة فى الجهة الغربية لنهر السند كلها تقريبا فى أيدى العرب٠

أما كثير بن مسلم بن قتيبة (١٧٦ — ١٧٩هـ) فقد تمت توليته من

خلال أخيه سعيد بن مسلم بن قتيبة والى العراق ، لكنه انشغل بنفسه ولم يعمل لمصلحة بلاد السند اعتمادا على منصب أخيه فعزل وأعقبه محمد ابن عدى التغلبى (١٧٩ - ١٨١هـ) الذى أثار العصبية القبلية بين العرب وخشى على نفسه من البقاء فى العاصمة المنصورة ، وأراد التوجه الى مدينة الملتان باقليم البنجاب فمنعه أهلها ، واستمرت العصبية القبلية بين اليمانية والنزارية حتى عزله الخليفة هارون الرشيد الذى اختار رجلا اسمه عبدالرحمن (١٨١ - ١٨٢هـ) وفشل فى القضاء على الخلافات القبلية فتم عزله وأمر الخليفة بتولية أيوب بن جعفر (١٨٢ - ١٨٤هـ) وحاول جهده عقد صلح بين القبائل العربية ، غير أنه فشل ووصلت الحروب القبلية بين العرب فى المنصورة عاصمة بلاد السند الى درجة خطيرة وبحث الخليفة عن شخصية قوية ، ووقع اختياره على المغيرة بن يزيد الهلبى (١٨٤ - ١٨٥هـ) غير أن أهل المنصورة سدوا الأبواب فى وجهه ومنعوه من دخول المدينة حيث أنه من اليمانية وسوف تثور العصبية القبلية باضطهاده النزارية وهو ما حدث بالفعل ، حيث كتب الى أخيه داود بن يزيد المهلبى الذى دخل مدينة المنصورة بالقوة وطرد وسجن الكثير من النزارية ، غير أن هذا الحزم كان ضروريا لاستتباب الأمن طوال فترة ولاية داود بن يزيد التى استمرت عشر سنوات نشطت فيها أيضا العلاقات المختلفة بين أهل السند والعرب فى ميادين الطب وعلوم الرياضة والفلك ٠

وبانتهاء خلافة هارون الرشيد التى اتسمت بالتقدم والرخاء وتولى كل من الأمين والمأمون والمستقيم الخلافة من بعده فقد تدهورت الأحوال السياسية فى عهده على الصعيد الداخلى وبين الأسرة الحاكمة ذاتها مما عكس تأثيراته على الصعيد الخارجى تجاه الولايات الاسلامية فى آسيا بصفة خاصة على نحو سيتم التعرض له تفصيلا فى موضع لاحق ٠

الفصل الثاني

الفتن الداخلية وانعكاساتها الخارجية

- من الأمين بن الرشيد ١٩٣ – ١٩٨هـ الى المأمون ١٩٨ – ٢١٨هـ والمعتصم ٢١٨ – ٢٢٧هـ
- الفتن وأحداث التمرد والعصيان في عهد المأمون
- العلاقات الخارجية في عهد المأمون
- المعتصم بن الرشيد ٢١٨ – ٢٢٧هـ
- العلاقات الخارجية في عهد المعتصم
- شئون بلاد السند حتى سنة ٢٤٠هـ

من الأمين بن الرشيد (١٩٣ - ١٩٨ هـ) (٨٠٨ - ٨١٣ م) الى المـأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) ، والمعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ) (٨٣٣ - ٨٤٢م)

يرتبط عصرا الأمين والمأمون ابنا هارون الرشيد ارتبـاطا وثيقا ، والدتهما مختلفتان ، لكنهما ولدا في سنة واحـدة ، وبدأت الفتن بينهما بسبب تولية الأمين الخلافة لتدخل أمه ، خلع الأمين أخاه من ولاية العهد وولى ابنه موسى ، فلما علم المأمون ذلك قطع صلته بأخيه ، وأخذ يستعد للدفاع عن خراسان بجيش من الفرس وأهل خراسان ، في حين اسـتعد الأمين بجيش من العرب ، ومن هنا احتدم النزاع بين الفرس والعرب ، غير أن جيش الأمين قد هزم ، في حين تقدم جيش المأمون يستولى على الأقاليم ، اقليما اقليما حتى وصل الى بغـداد وحاصرها سنة كاملة هدمت خلالهـا الأسوار ، وخربت المباني وانتشرت المجاعات ، ونفذت أموال الأمين وكانت شخصيته تتسم بالمجـون ، فصمم قادة جيش المأمون على اقتحام بغـداد واحتلالها ، ونصح الحلفاء الأمين بالتنازل لأخيه عن الخلافة ، لـكنه قتل وأرسلت رأسه الى أخيه المأمون ، وانتهى عصره الذى استمر خمس سنوات من الفتن والاضطرابات وعدم الاستقرار السياسى ، ويعزى المؤرخون مغزى هذه الفتنة بين الآخرين الى أسباب عديدة أدت الى نتائج وخيمة .

كان هارون الرشيد قد كتب عهدا لأولاده ، يصفه المؤرخون بأنه عمل غير طبيعي لأن استقلال المـأمون بخراسان والولايات الشرقية استقلالا تاما يعنى تمتعه بخيرات هذه البلاد ، والسيطرة عليها ، واحتمال الانفصال عن سلطة الخليفة في بغداد ، وكان سلطـان الخلافة ينحصر في بقعة محددة بجنوب العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ومصر ، ومع ما ينبغى أن يتوفر للخليفة من سلطات وقوة في عهـد الرشيد ، فلم يكن طبيعيـا أن تنتقص الدولة الاسلامية من سيادتها الشاملة على أقاليمها .

هناك نتيجة أخرى أدت اليها الفتنة التى مزقت وشـائج صلة الرحم بين الأخوين ، حيث انتهز الفرس هذه الفتنة ، وخاصة من جانب المـأمون - ابن أختهم - لأن أمه فارسية ، فتـذكر المصادر(١) أن الفضـل بن سهل

---

(١) الجهشيارى ، محمد بن عبدوس الكوفى المتوفى سنة ٣٣١ هـ . كتاب الوزرا والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ الشلبى - مكتبة مصطفى البا

شجع المأمون على الوقوف فى وجه أخيه لأنه ، نازل فى أخواله ، وبيعته فى عنقهم ، أما الأمين فان جماعته كانوا من الهاشميين والعرب بصورة عامة وقد أدت أطماع ذوى الطموح السياسى للوصول الى السلطة فى اتباع الفرقة بين الأخوين وتقطيع أوصال امارة المأمون ، فالفضل بن الربيع كان من أبرز هؤلاء الطامعين فى السلطة من خلال افساد ملك بنى العباس ، فهو الذى أوقع بين الرشيد والبرامكة ، وبين الأمين والمأمون أيضا ثم تخلى عن الأمين بعد ذلك ، فلما استقر الأمر للمأمون عاود سيرته فى نفاقه والتقرب اليه ٠

وعلى صعيد مطامع الخلفاء العباسيين فى نقل الخلافة الى أولادهم من بعدهم وليس لأصحاب الحق فى ولاية العهد ، فقد كان هذا سببا آخر فى تصعيد الفتن والاضطرابات التى أضعفت من سلطة الدولة المركزية ، ويلاحظ أحد المؤرخين(٢) أن أيا من خلفاء بنى العباس كان له ولد ، فانه كان يسعى حثيثا لخلع صاحب الحق سواء أكان عما أو خالا أو أخا أو ابن عم ، ثم وضع ابن الخليفة فى غير موضعه غير مراع فى ذلك خير الأمة الاسلامية ٠

وكان لهذه الفتنة نتائج مادية ومعنوية ، لعل من أهمها أنها أضعفت تمويل بيت المال فضلا عن الضرر الذى لحق بالسكان وأحيت نار العصبية بين أهل خراسان من الفرس وبين العرب بصورة عامة وانعكس ذلك على الاسلام والعروبة ، ومع ذلك فان الآثار الأدبية الرائعة كانت نتاجا لهذه الفترة من جانب أعلام المؤرخين أمثال الطبرى واليعقوبى وابن الأثير وابن طباطبا وغيرهم ممن تركوا تراثا اسلاميا رائعا فى الأدب السياسى والشعبى لا يزال - وسيظل - منهلا للدارسين والباحثين ٠

- الفتن وأحداث التمرد والعصيان فى عهد المأمون :

سواء تعلق الأمر بثورة الطالبيين أو فتنة بغداد فقد قام هرثمة ابن أعين بدور بارز فى القضاء على هاتين الحركتين . فقد خرج محمد ابن ابراهيم بن اسماعيل بن الحسن بن الحسن بن على بالكوفة ، قام بأمر أحد رجال هرثمة بن أعين وهو أبو السرايا بن منصور الشيبانى ، فأرسل الحسن بن سهل والى العراق من قبل المأمون جيشا بقيادة زهير بن المسيب ، فهزمه أبو السرايا وتمت تولية محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين ابن سهل جيشا ، لكن النصر كان حليف أبى السرايا فارتفع شأن الطالبيين - أنصار على بن أبى طالب - ، ثم وجه الحسن بن سهل هرثمة بن أعين الى أبى السرايا ، فانتصر عليه ، وقتله وأعاد الكوفة الى سلطة الدولة . وعندما علم أتباع أبى السرايا فى مكة بقتله ، اجتمعوا ، حول محمد ابن جعفر الصادق ، وبايعوه بالخلافة ، وسموه أمير المؤمنين ، فأرسل المأمون اليهم هرثمة لتخليص مكة منهم ، وانتصر الجيش على العلويين ، وطلب محمد بن جعفر الأمان ثم خرج من مكة لتدخلها الجيوش العباسية .

عقب انتهاء هرثمة من القضاء على فتنة العلويين ، أراد أن يذهب الى مرو عاصمة خراسان ليطلع المأمون على دسائس الفضل بن سهل ، غير أن الفضل تمكن أن يوغر صدر المأمون عليه باتهامه بأنه وراء كل الفتن ، ولم يصغ هرثمة الى نداء المأمون بتوليته الشام ، وعند دخوله مدينة مرو ، لم ينصت المأمون لحججه ، بل عذب ، وسجن ، ثم قتل ، فلما علم أهل بغداد ثاروا على الحسن بن سهل ، وطردوه من بغداد ، وولوا منصور ابن المهدى أمر بغداد ولم يكن لديه جيش قوى ، وعمت الفوضى البلاد ، وأخفى الفضل بن سهل عن المأمون هذه الأخبار ، وفى هذه الأثناء اختار المأمون لولاية العهد على الرضى بن موسى بن جعفر الصادق وهو الثامن من أئمة الشيعة الامامية الاثنا عشرية ، وسماه الرضى من آل محمد ، ويعزى المؤرخون(٣) ذلك لتربية المأمون بين أهل خراسان والبرامكة ، غير أن أهل بغداد اتهموا الفضل بن سهل بذلك ، واجتمع العباسيون واتفقوا على

---

(٣) دكتور احمد قاعور ، دكتور شحاده الناطور . تاريخ الدولة العربية حتى نهاية

مبايعة ابراهيم المهدى عم المأمون بالخلافة وكان ذلك فى سنة ٢٠٢هـ ، ولكن على الرضى أخبر المأمون بأحداث فتنة بغداد ، وبانجازات الفضل بن سهل ، ومع ذلك فقد قتله المأمون وتترك ابن الأثير(٤) ليسرد أحداث وظروف هذه الفتنة : ففى سنة ٢٠٢هـ سار المأمون من مرد الى العـراق واستخلف على على خراسان غسان بن عباده ، وكان سبب مسيره أن على بن موسى الرضى أخبر المأمون بما الناس فيه من الفتنة والقتال ، منذ قتل الأمين ، وبما كان الفضل بن سهل يستتر عنه من أخبار ، وأن أهـل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء ، وأنهم يقولون : مسحور ، مجنون ، وأنهم قد بايعوا ابراهيم ابن المهدى بالخلافة » .

« فقال له المـأمون : لم يبايعوه بالخلافة ، وانما صـيروه أميرا يقوم بأمرهم على ما أخبر به الفضل ، فأعلمه أن الفضـل قد كذبه ، وأن الحرب قائمة بن الحسن بن سهل وابراهيم ، والناس ينقمون عليه مكانه ، ومكان أخيه الفضل ، ومكانى ، ومكان يبقيك لى من بعدك » . « فقال : ومن يعلم هذا ؟ قال : يحيى بن معـــاذ ، وعبدالعزيز بن عمران ، وغيرهما من وجوه العسـكر فأمر بادخالهم ، فدخلوا ، فسألهم عما أخبره به على بن موسى ، ولم يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل أن يعـرض اليهم . فضمن لهم ذلـك ، وكتب لهم خه به ، فأخبروه بالبيعة لابراهيم بن المهـــدى ، وأن أهل بغـداد قد سموه الخليفة السنى ، وأنهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان على بن موسى فيه ، وأعلموه بما فيه النـاس ، وبما موه عليه الفضل من أمر هرثمة ، وأن هرثمة انما جاءه لينصحه ، فقتله الفضل ...... » .

ويستطرد ابن الأثير قائلا : « فلما تحقق ذلك أمر بالرحيل ، فعـلم الفضل بالحال ، فبغتهم ، حتى ضرب بعضهم ، وحبس بعضهم ، ..... فقال على بن موسى للمأمون فى أمرهم ، فقـــال : أنا أدرى ، ثم ارتحل ، فلما أتى سرخس وثب قوم بالفضـل بن سهل ، فقتلوه فى الحمـام ... وهربوا ... فجاء بهم العباس بن الهيثم الدنيورى ، فقـالوا للمأمون : أنت أمرتنا بقتله ، فأمر بهم ، فضربت رقابهم » .

أما فتنة الزط فقـــد شكلت هى الأخرى ازعاجا وتوترا شـــديدا للمأمون ، ويعرف الزط بالنور ، وينتسبون الى هنود آسيا وكانوا يسكنون

شواطئ الخليج العربى ، واستولوا على الطريق الى البصرة خلال فتنة الأخوين الأمين والمأمون ، فلما استقرت الأمور للمأمون أرسل اليهم عيسى ابن يزيد الجلودى سنة ٢٠٥هـ غير أنه لم يحرز انتصارا يذكر ، وفى سنة ٢٠٦هـ أرسل اليهم المأمون داود بن ماسجور ، ولم يحقق هو الآخر انجازا يذكر ، واستمر أمرهم حتى سنة ٢١٩هـ فى عهد المعتصم الذى أرسل اليهم عجيف بن عنبة بعد أن عاثوا فسادا بالقرب من البصرة ، فحاصرهم وأسر وقتل الكثيرين ، ثم انقطعت أخبارهم حتى عادوا للظهور فى أيام المتوكل .

وقد واجه المأمون أيضا فتنة بابك الخرمى الذى خرج ٢٠١هـ (٨١٦م) من شمالى ايران فى « مازندران » بالقرب من أذربيجان ، فأعلن تمرده على الاسلام ، واحياء دين مزدك والدعوة الى دين الفرس(٥) . وقد ظهر بابك بحركته ، والبلاد لم تكن قد استقرت بعد فى عهد المأمون ، ولما كثر أنصاره ودخل المأمون بغداد ، بعث يحيى بن معاذ لمحاربتهم عدة مرات ، غير أنه فشل فى أسر بابك الذى أخذ سلطانه يقوى فى أذربيجان وهمذان ، وأصفهان ، وماسبذان حتى مات المأمون وفتنة بابك فى قمتها وكان المأمون قد أوصى أخاه المعتصم(٦) بالقضاء على الخرمية .

---

(٥) شرح ابن النديم فى كتاب الفهرست ، والبندارى فى كتابه الفرق بين الفرق ما دعا اليه بابك وان الخرمية أو الخرمدينية (الأولون) ويسمون أيضا الحمره ، وصاحبهم مزدك أباح التابعية تناول الملذات ومزاولة الشهوات ، والمشاركة بين الناس فى الطعام والحرم والمال ، وتحريم القتل وقد حاربهم الملك كسرى أنوشروان ، وقتل صاحبهم ، وقد أطلق عليهم فيما بعد لفظ « البابكية » نسبة الى بابك الخرمى وكان يقول انه آلة وانه يجدد دين المحمرة ويبيح لأتباعه قتل مخالفيهم .

راجع : دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثامن ص ١٥١ — ١٥٢ .

- العلاقات الخارجية في عهد المأمون :

لم تستأثر الشئون الخارجية باهتمام المأمون فى أول عهده ، ولكنه بعد عودته الى بغداد جدد سياسة اعادة غزو الروم فتوجه سنة ٢٠٥هـ لغزوهم ، مارا بالموصل فانطاكية وطر طوس باعتبارها ثغرا قويا حيث عبأ قواه وسار الى بلاد الروم ففتح حصن قره ٠ وأعتق أسرى المسلمين بعد شرائهم تم فتح قواده حصون سندس وسنان ، ثم قفل راجعا الى الشام ، وكان ملك الروم تيوفيل بن ميخائيل قد هجم على طرطوس والمصيصة(٧) . فعاد المأمون وقاتله وأخضعه ، وافتتح عددا من الحصون(٨) وهدم القلاع وطلب تيوفيل الصلح مع المأمون نظير عدة شروط لم يوافق عليها المأمون حيث جدد غزوه سنة ٢١٧هـ لبلاد تيوفيل ، وعاود الغزو سنة ٢١٨هـ حيث جمع جيشا من العواصم والثغور فى العراق والشام ومصر وخراسان وبلاد العرب استعدادا لحرب طويلة ، ويصف اليعقوبى هذه الاستعدادات قائلا : « استعد المأمون لحصار عمورية ، وقال أوجه الى الغرب ، فآتى بهم من البوادى ، ثم أنزلهم كل مدينة مفتوحة حتى أخرب القسطنطينية ، فلما بلغ امبراطور الروم ذلك طلب هدنة بينهما رفضها المأمون ، وقصد بلاد الروم ، ونزل طرطوس ، يستعد لحملة الحرب الكبرى ، غير أن المنية وافته ٠

وفى تقويم المأمون بشأن ادارة علاقاته الخارجية عموما ، يقول المسعودى : « كان حسن التدبير ، لا تخدعه الأمانى ، ولا تجوز عليه الخدائع ، ولم يكن يعاب فى حكمه بشىء سوى تهاونه بالأمر بعد استخلافه فترة ، وتركه السلطة لآل سهيل يفعلون ما يريدون ، كما يعاب عليه تقريبه الأعاجم وتبعيده للعرب(٩) » ٠

أما ابن الأثير فيقول : « تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا ، وقال :

---

(٧) راجع فى تفصيل ذلك : ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمى المغربى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ، تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مؤسسة الأعلمى ، بيروت ١٩٧١ ٠

(٨) راجع فى تفصيل ذلك : اليعقوبى ، الجزء الثالث ص ١٩٢ ، الطبرى ، الجزء العاشر ص ٢٨١ ٠

يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام ، كما نظرت لعجم خراسان ، فقال له : أكثرت على ، والله ما أنزلت قيسا من ظهـــور خيلها الا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتهـا ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فساداتها تنتظر السفيانى حتى تكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على ربها منذ بعث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنـــان الا وخرج أحدهمـا سائسا أعرف مثل الله بك ... » ، ويستدل من قول هذين المؤرخين العملاقين أن السياسة الأعجمية قد غلبت على المـأمون على حساب العرب ، ومع ذلك فان عصر المـأمون يعتبر خاتمة للدولة العباسية القوية فى المشرق ، وفترة ازدهار عربية اسلامية ، وهو ما نصح به المأمون ولى عهده المعتصم بشـــأن محافظته على نسل على بن أبى طالب قائلا :

« ... هؤلاء ولد عمك من أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئتهم ، واقبل من محسنهم ، وصلاتهم ، فلا تغفلها كل سنة عند محلها ، فان حقوقهم تجب من وجوه شتى ... » .

وتكتمل الصورة الاسلامية المشرقة فى عهد المأمون عنـد استعراض الأحوال الادارية ، والحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية فى عهـده . فقد كانت الوزارة فى عهده الأول وزارة تفويض من خلال تواجده فى مرو ، فقد فوض أمرها الى الفضل بن سهل . الذى كان له الفضل فى ايصاله الى الحكم ، فأطلق يده فى الدولة وسماه ذا الرياستين ، رياسة الحرب ورياسة التدبير . وفى تقويم هذا التفويض يرى طلس(١٠) أن بقاء المأمون فى خراسان وتقليم أظافر العرب فى ديارهم وتقوينه مخالب الفرس ، لم يكن فى حقيقته سوى تأييد للسياسة الفارسية ، واحيـــاء للدولة الكسروية ، وفى أواخر أيامه استعان المأمون بوزير كفء هو ابن سويد حيث اطمأن اليه ، وقد سار المأمون فى الأمور المالية من خراج ، وجباية ، وضرائب على سيرة أبيه مستنيرا بكتاب الامام القاضى ابن يوسف ، فازدهرت البلاد اقتصاديا فى عهده ، وقد شهد ابن خلدون فى تاريخه وثيقة قيمة ذكرها فى المقدمة نقلا عن كتاب جراب الدولة عدد الاقاليم الاسلامية فى عهـــد المأمون ومقـدار جبايتها(١١) .

---

(١٠) الدكتور محمد سعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثانى ، مرجع سابق ص ١٥٧

اما الحياة الفكرية والعقلية فقد ازدهرت ، ويعتبر عصر المأمون العصر الذهبى الرائع للحضارة الاسلامية ، وهو عصر الازدهار بالفعل حيث نقب عن المخطوطات الاغريقية والأجنبية فجمعها وعمل على ترجمتها وأغدق على المترجمين ، وبلغت العلوم الاسلامية ذروتها ونبغ علماؤها فى الفقه ، والأصول ، والحديث ، والكلام ، واللغة ، والأدب ، والشعر ، ونقل الفلاسفة السوريون فى حران وانطاكية علوم الأولين الى العربية ، وجمع المأمون فى دار كتبه المسماة بيت الحكمة كنوز العلم وآثاره من اسلامية ، وغير اسلامية ، وكان المأمون منفتحا على الثقافات المختلفة فلم يؤثر مذهبا أو عرقا خاصا فأباح الاستخدام فى مناصب الحكومة لجميع المتعلمين على اختلاف أديانهم ، كما أنشأ مجلسا استشاريا للدولة يتألف من ممثلى جميع الطوائف من مسلمين ويهود ومسيحيين وصابئين على حد سواء ٠

واستمرت الحياة الاجتماعية كما كانت فى عصر سلفه الرشيد ، لولا أن الفتنة بين الأخوين (الأمين والمأمون) قد تركت بصماتها لفترة فأفسدت مظاهر الحياة الاجتماعية الى حد ما ، فى حين انتعشت الحياة الاقتصادية كثيرا فى عصره وهو ما انعكس على الزراعة والتجارة والصناعية ، ومهما يكن من شيء ٠ فقد كان المأمون خليفة عظيم الشأن ، ولو طال أجله لكان شأنه أعظم ٠

- المعتصم بن الرشيد (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) - (٨٣٣ - ٨٤٢ م) :

شهدت فتـــرة خلافة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) (٨٨٣-٨٤٢م) العديد من الفتن الداخلية والتمردات ثم الحروب مع الروم • ففى عهده تمرد محمد بن القاسم بن على من الزيدية . فى خراسان . والتف حوله الناس ، فأرسل اليه عبدالله بن طاهر أمير خراسان الجيوش الى أن هزمه ، وأسره ، وأرسل الى المعتصم حيث سجن فى سامراء سنة ٢١٩هـ •

وفى عهده قوى الزط ، وهم قوم من أخلاط الشعوب الآرية والسامية وأخذوا يعيثون فى الأرض فسادا ، ويقطعون على السابلة طريقهم • بين البصرة ، وواسط ، وبغداد ، حتى انقطع عن بغداد جميع ما كان يحمل اليها من السفن(١٢) ، وقد حاربهم المعتصم حتى استأمنوا له • كما واجه المعتصم ثورة مازيار الكارين آخر الأمراء القارنيين الذى أخرجه شهريار ابن شيرويه من طبرستان ، فالتجأ الى المأمون ، وأسلم على يديه ، غير أن اسلامه كان سطحيا(١٣) • ولما قوى أمره أعلن استقلاله عن الخليفة الذى كان قد ولاه على طبرستان وما والاها ، فأعان عصيانه . واستولى على أملاك العرب ومواليهم ، وأغرى فلاحى تلك البلاد على قتل أصحاب الأراضى من العرب قائلا : « انى قد أبحتكم منازل أرباب الضياع ، وحرميم ، فاقتلوا أرباب الضياع جميعهم قبل ذلــك ، ثم خذوا ما وهبت لكم من المنـازل والحرم(١٤) » •

ويرى طلس أن تمرد أو ثورة مازيار كانت فارسية ، خرمية ، ترمى الى هدم الدين الاسلامى والخلافة العربية ، وقد اعتنق كثير من الايرانيين أفكار مازيار ، واضطر الخليفة أن يبعث اليهم الحسن بن الحسين ، وحيان ابن جبلة ، ومحمد بن ابراهيم ، لمعاونة عبدالله بن طاهر فى القضاء عليهم ، واستطاع الجيش الاســلامى أسره ، وارساله الى سامراء حيث صلب الى جانب بابك سنة ٢٢٤هـ وهو ما يستدعى وقفة للتفسير •

---

(١٢) راجع : البلاذرى ، فتوح البلدان ، مصدر سابق ص ٣٨١ - ٣٨٤ •

(١٣) راجع : المسعودى ، البلاذرى ، البغدادى ، الطبرى وذلك لمزيد من التفصيل •

فقد سبقت الاشارة أن المأمون أوصى المعتصم قائلا : « والخرمية فاغزهم ذا ضرامة وصرامة ، جلدا ٠٠٠ فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك » ، فلما قويت شوكة بابك الخرمي وكاد يسيطر على بلاد فارس ، لولا أن الخليفة المعتصم اختار لحرب بابك قائدا كبيرا هو حيدر بن كاوس الأشروسني الملقب بالأفشين ، وبعثه اليه في سنة ٢٢٠هـ ، وتمكن هذا القائد من أسره بابك وأسرته واحضاره الى سامراء ، وما لبث أن قتل وصلب على نحو ما سبقت الاشارة اليه . ويروى الطبري أن عدد من قتلهم بابك في عشرين عاما بلغ ما يزيد على ربع مليون مسلم ، في حين يقول المسعودي « ان من أدركه الاحصاء ممن قتله بابك في ٢٢ سنة من جيوش المأمون والمعتصم من الأمراء . والقواد ، وغيرهم من سائر طبقات الناس في القول المقلل خمسمائة ألف . وقيل أكثر من ذلك ٠٠٠ » ، وترجح المصادر العربية(١٥) تقدير الطبري باعتباره أقرب الى الصواب لأنه كان يطلع على الوثائق الرسمية .

أما الأفشين ذلك القائد الذي أسر بابك ، فقد قام هو الآخر بفتنة حيث طمع في الاستقلال بأشروسنة ، فساءت ظنون الخليفة به ، وهرب الأفشين الى أرمينية عبر طريق الموصل ، وقام بمؤامرة لقتل الخليفة نفسه ، لكنه فشل في تحقيقها . وعقد المعتصم محكمة للأفشين(١٦) ، واعترف بذنبه . فسجن حتى مات سنة ٢٢٦هـ .

---

(١٥) دكتور محمد اسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثاني ص ١٨٢ .

(١٦) راجع تفصيل محاكمة الافشين في الطبري ، مصدر سابق .

— العلاقات الخارجية فى عهد المعتصم :

لم يثق المعتصم فى جنود بغداد ، فأحضر الأتراك وأسكنهم بغداد وأعجبته شجاعتهم ، واستغنى عن جيوش العرب ، وأسقطهم من الدواوين ، واستكثر من الفراغنة ، والأشروسنية ، فكثر جيشه . ولما تعاظم خطرهم ورأى المعتصم أنهم سيثيرون له المشكلات ، بنى لهم مدينة أسماها سامراء سنة ٢١٩هـ ، ونترك ابن الأثير ليحكى ظروف هذه المدينة(١٧) قائلا :

« فى هذه السنة خرج المعتصم الى سامراء لبنائها ، وكان سبب ذلك أنه قال : انى أتخوف هؤلاء الحربية أن يصيحوا صيحة فيقتلوا غلمانى ، فأريد أن أكون فوقهم ، فان رابنى منهم شىء ، أتيتهم من البر والماء ، حتى آتى عليهم ، فخرج اليها ، فاعجبه مكانها » .

« وقيل كان سبب ذلك أن المعتصم كان قد أكثر من الغلمان الأتراك ، فكانوا لا يزالون يرون الواحد بعد الواحد قتيلا ، ذلك أنهم كانوا جفاة ، يركبون الدواب ، فيركضونها الى الشوارع ، فيصدمون الرجل والمرأة والصبى ، فيأخذهم الأبناء على دوابهم ، ويضربونهم ، وربما هلك أحدهم فتأذى به الناس » .

ويضيف ابن الأثير قائلا :

« ثم ان المعتصم ركب يوم عيد ، فقام اليه شيخ ، فقال له : يا أبا اسحق ! فأراد الجند ضربه ، فمنعهم وقال : يا شيخ مالك ، مالك ؟ قال : لا جزاك الله عن الجور خيرا ، جاورتنا ، وجئت بهؤلاء « العلوج » من غلمانك الأتراك ، فاسكنتهم بيننا ، فأيمت صبياننا ، وأرملت به نسواننا ، وقتلت رجالنا ، والمعتصم يسمع ذلك ، فدخل منزله ، ولم ير راكب الى مثل ذلك اليوم ، فخرج فصلى بالناس العيد ، ولم يدخل بغداد ، بل سار الى ناحية القاطول ، ولم يرجع الى بغداد .

« .... ولما خرج المعتصم الى القاطول استخلف ببغداد ابنه الواثق ،

وكان المعتصم قد اصطنع قوما من أهـــل الحوف بمصر ، واستخدمهم ، وسماهم المغاربة ، وجمع خلقـــا من سمرقند ، واشروسنة ، وفـرغانة ، وسماهم الفراغنة ، فكانوا من أصحابه ، وبقوا بعده • وكان ابتداء العمارة بسامرا سنة احدى وعشرين ومائتين » •

وقد انعكست هذه الظروف على علاقاته الخارجية خاصة وهو يحارب الـروم ، حيث الفتن الداخلية عاقتـه عن الاستمرار فى حربهم ، وتذكر المصادر أن بابك قال لملك الروم : ان ملك العرب قد وجه أعظم جيشه الى ، ولم يبق على بابه أحد ، فاغتنم الفرصة ، فلم يلبث ميخـائيل بن تيوفيل حتى خرج فى جيش عظيم فأتى « زيطرة » فقتـل أهلهـا وسبى نسـاءها وأحرقها ، ثم مضى الى ملطية ، فأغار على أهلها ، وبلغت هذه الأخبار مسامع المعتصم ، فسأل : أى بلاد الروم أعظم أو أمنع ؟ ، فقالوا له : (عمورية) ، وهى مسقط رأس تيوفيل ، فجهز جيشـا وسار بنفسه عليـه ، وانتصر عليه ، وسار الى أنقرة ودخلها ، وسار الى عمورية سنة ٢٢٣هـ ، واشتد القتال بينه وبين الروم ، واقتحم المسلمون المدينة وغنموا مغـانم كثيرة ، ويذكر المسعودى أن المعتصم أراد المسير الى (القسطنطينية) وفتحها برا وبحرا ولكنه ما لبث أن غادرها بعد أن اكتشف مؤامرة لقتله واستخلاف العباس ابنه مكانه ، فسجن العباس وقتل القادة المتآمرين •

وهـكذا ارتبط الجيش بالوقعـات الخارجية وخاصة فى بلاد الروم ، فالمعتصم نفسه كان عسكريا ، وقد سبقت الاشارة الى استكثاره من الموالى الأتراك وعدم وثوقه فى أهل خراسان وأقصى العـرب عن الجندية ، واهتم بمدينة سامراء اهتماما كبيرا حتى صارت قلعـة عسكرية تعتبر من أعظم الحواجز الاسلامية • غير أن عهـــده قد بدأ به بما يسميه المؤرخون بعصر الضعف والتفكك فى الدولة العباسية ، كما ينسب الفضل فى محافظته على الأسرى المسلمين الى الواثق بالله ابنه حيث كتب ملك الروم اليـــه يطلب منه تبادل الأسرى ، فاستجاب الواثق لطلبه ، وتم تبادل الأسرى على نهر اللامس وكان عدد الأسرى من المسلمين ٤٦٠٠ ومن أهل الذمة ٥٠٠(١٨) •

---

(١٨) الخضرى . تاريخ الأمم الاسلامية ص ٢٥٣ •

- شئون بلاد السند حتى سنة ٢٤٠هـ :

كان والى بلاد السند داود المهلبى لا يزال يحكمها حين تولى الخليفة الأمين ، ورغم الاضطرابات التى سادت دار الخلافة وبعض ولاياتها الاسلامية - على نحو سبقت الاشارة اليه تفصيلا - فان الأوضاع كانت هادئة ومستقرة فى بلاد السند ، وبمقتل الخليفة الأمين سنة ١٩٨هـ ، وتولى شقيقه المأمون الخلافة قرابة عشرين عاما ، فقد نشطت العلاقات الثقافية والتجارية مع بلاد السند ٠

تولى بشر بن داود المهلبى (٢٠٥ - ٢١٢هـ) ولاية بلاد السند وكانت أسرته قد بلغت حدا من القوة والنفوذ والسيطرة فى هذه البلاد ما جعله يشعر بالغرور ولم يهتم بدار الخلافة وامتنع عن دفع الخراج فقرر الخليفة عزله(١٩) وعين مكانه حاجب بن صالح سنة ٢١٢هـ ، وقد حدثت خلافات مع شقيق بشر حاكم اقليم مكران ، وكان على حاجب أن يتوجه الى العاصمة المنصورة وهو ما جعله يخشى الأخوين معا ، فتقاعس وفشل فى مهمته ، وعندما علم الخليفة بقوة بشر بن داود الجبارة فى بلاد السند ، وقع اختياره على قائد كبير من نفس قبيلة بشر « آل المهلب » يسمى غسان ابن عبادة المهلبى ، ولما وصل غسان الى بلاد السند ، قدم له بشر واعتذر على ما حدث من التباس مع حاجب ، كما أبدى اعتذاره لتأخره عن دفع الخراج لدار الخلافة وسلم اليه حكم بلاد السند والذى سلمه بدوره الى ابن يحيى البرمكى(٢٠) كتعليمات الخليفة ٠

تسلم موسى بن يحيى بن خالد البرمكى زمام الحكم فى المنصورة ببلاد السند واستمر فى الفترة ٢١٦ - ٢٢١هـ ، وفى عهده تم اخماد اضطرابات وفتن انفصالية حيث نشبت معركة بين الجيش العربى والجيش السندى وتمت هزيمة الأمير السندى حيث أمر الوالى بقتله ، واستطاع

---

(١٩) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الثالث ص ١٠٩٨ - ١١٠١ ٠
- البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٤٢ - ٥٤٥ ٠

(٢٠) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الخامس ص ١١٤ - ١١٦ ٠

موسى البرمكى توطيد العلاقات التجارية والتعليمية بين العرب وأهل السند رغم قلة الخراج الذى أرسلته الى دار الخلافة .

وفى عهد موسى البرمكى قام الفضل بن ماهان أحد حكام العرب بحملة على مدينة سندان الهندية القريبة من بلاد السند . وفتحها وظل يحكمها مستقلا ، وكان هذا بمثابة انجاز كبير للعرب وشجعه الخليفة ، وبموت الفضل بن ماهان تولى ابنه محمد زمام الأمور فى هذه الدولة العربية الاسلامية الصغيرة ، ونجح فى توسيعها بمنطقة مجاورة حيث فتح مدينة قالى الهندية - بالقرب من سندان - غير أن أخاه ماهان استولى على حكم سندان خلال تغيبه ، وكتب الى الخليفة المعتصم راجيا المساعدة ، ولكن ماهان استطاع الحصول على تأييد أهل السند المقيمين هناك وغدر بأخيه وقتله ، وقد انتهز حكام بلاد الهند فرصة الفرقة بين الأخوين وقاموا بهزيمة جيوش ماهان ثم قتلوا ماهان نفسه وهكذا زالت هذه الدولة الاسلامية الصغيرة فى تلك البقعة الهامة من بلاد الهند .

أما فى عهد الخليفة المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧هـ) فقد حدثت فتنة هددت دولته وهى فتنة السند المعروفين بالزط الذين كانوا يسكنون بالبطائح بين البصرة وواسط بالعراق منذ عهد الخلفاء الراشدين حيث قام الزط بقطع الطرق ونهب أموال التجار والمسافرين ثم استولوا على طريق البصرة وفرضوا المكوس الجائرة ، وحالوا دون وصول المؤن الى بغداد حتى تمكن الخليفة من هزيمتهم ونفيهم(٢١) الى آسيا الوسطى بحملة عجيف ابن عنبة أحد قواد العرب .

تولى عمران البرمكى ولاية بلاد السند بعد وفاة والده موسى سنة ٢٢١هـ واستمر فى الحكم حتى سنة ٢٢٦هـ ، ولم تمض أيام قلائل على استلامه الحكم حتى قامت القبائل الزطية السندية بالفتن والاضطرابات ضد العرب فى كل مكان وخاصة فى المناطق الغربية لنهر السند ، وقد قاتلهم عمران البرمكى وانتصر عليهم ونشر الأمن والاستقرار هناك ، ثم بنى مدينة فى منطقة بوقان أسماها « البيضاء » وهى بمثابة حصن منيع كى يراقب الجنوب العرب هؤلاء الزط . ثم تكررت الفتن من أهل قندابيل

---

(٢١) وقد ظلوا هناك حتى اسرهم البزنطيون سنة ٢٤١ هـ . راجع : الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، الجزء العاشر ص ٢٥٤ - ٢٥٧ .

وحاكمها العربى « محمد بن الخليل » ، فقاتله عمران وانتصر عليه وفتح المدينة ، وشبت فتنة ثالثة من قوم الميد المنافس لقوم الزط فهزمهم عمران ، أما الفتنة التالية فجاءت من العرب أنفسهم ومن داخل المنصورة عاصمة بلاد السند وهى تجديد العصبية القبلية بين الفريقين والخصمين اللدودين : النزارية واليمانية حيث عمل النزارية على اسقاطه والقضاء عليه وكان قائدهم عمر بن عبدالعزيز الهبارة حفيد أحد النوار العرب العظماء ، وبالفعل تمكن من قتل عمران البرمكى سنة ٢٢٦هـ .

عكست هذه الفتن والاضطرابات آثارها السيئة على استمرار الأوضاع فى بلاد السند وتشتت شمل العرب وهو ما انتهزته قبائل الزط والميد للقيام بالفتن ضد العرب الذين ازدادوا فرقة ، فى حين استقل بعض الحكام العرب والسند بقلاعهم ومناطقهم(٢٢) .

تولى عنبة بن اسحق الضبى(٢٣) حكم بلاد السند الذى اهتم بتهدئة الخلافات القبلية بين عرب المنصورة ، لكنه لم يعاقب عمر بن عبدالعزيز الهبارى على قتل عمران البرمكى ، وربما يرجع ذلك الى تلك القوى البشرية الهائلة التى وقفت وراءه واختارته زعيما لها مما أدى الى سكوت الخليفة والوالى الجديد معا . وينسب الى عنبة بن اسحق الضبى أنه قضى على نفوذ حكام الاقاليم وزعماء القبائل العربية وزعماء القبائل السندية وبنى سجنا كبيرا للمتمردين منهم فى مدينة الديبل الشهيرة وفى موقع حصين سنة ٢٣٤هـ وبذلك استطاع نشر الأمن والاستقرار فى بلاد السند(٢٤) .

ترك عنبة الضبى ولاية بلاد السند بعد تولى الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) وتم تعيين هارون بن خالد المروزى حكم البلاد فى الفترة ٢٣٥ الى ٢٤٠هـ ، وتجددت الخصومات بين النزارية واليمانية حتى قتل هارون نفسه فاستولى عمر بن عبد العزيز الهبارى زعيم النزارية على الحكم فى المنصورة سنة ٢٤٠هـ ، وأبدى اخلاصه وولاءه للخليفة المتوكل على الله فوافق على توليته حكم بلاد السند ، غير أنه - أى عمر بن عبدالعزيز

---

(٢٢) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، الجزء الثانى ص ٥٨٤ - ٥٨٦ .
(٢٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٤٢ - ٥٤٥ .
(٢٤) المصدر نفسه ص ٤٣٥ - ٤٣٨ .

الهبارى - سلك سياسة جديدة تهدف الى استقلال حكم تلك البلاد عن دار الخلافة ونجح فى ذلك لأن الظروف ساعدته . وظل أبناؤه من بعده يرثون حكم دولته - التى كانت عاصمتها « المنصورة » - لمدة أكثر من قرن فى تبعيتهم للخليفة العباسى . وبذلك ظهرت حكومة عربية جديدة فى المنصورة .

وتجدر الاشارة الى قيام دولة عربية ثانية فى الملتان باقليم البنجاب باسم الدولة العربية فى الملتان ، ومعنى ذلك أن الحكم العربى ببلاد السند قد انقسم الى حكومتين شبه مستقلتين عن الخلافة العباسية منذ سنة ٢٤٠هـ ، وهو ما سوف يتم التعرض له فى اطار الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية فى موضع لاحق من الدراسة .

الفصل الثالث

من عصر الانحلال الأول إلى بروز الولايات الإسلامية الانفصالية في آسيا

- خلفاء عصر الانحلال الأول
- شئون الخلافة
- بروز الولايات الاسلامية الانفصالية الاستقلالية

١ ـ الدولة الصفارية	٢٤٧ـ٢٨٩هـ
٢ ـ الدولة الطاهرية	٢٠٥ـ٢٥٩هـ
٣ ـ من الدولة السامانية	٢١٦ـ٣٨٩هـ
الى الدولة الغزنوية	٢٥١ـ٥٨٢هـ
٤ ـ دولة آل بوية	٣٣٤ـ٤٤٧هـ
٥ ـ العيدانيون	٣٩٣ـ٤٠٣هـ
٦ ـ من الدولة الزيادية	٢٠٣ـ٢٥٣هـ
الى الدولة الزيدية	٢٥٠ـ٣٥٥هـ
٧ ـ الدولة الهبارية	٢٤٠ـ٤١٦هـ
٨ ـ الدولة الملتانية	١٥١ـ٤٠٤هـ

الفصل الثـالث

من عصـــر الانحـلال الأول الى بروز الولايات الاسلامية الانفصالية فى آسيا

لعل الهزات التى تعرض لها العالم الاسلامى ابتداءا من القرنين الثالث والـرابع الهجريين ، ـ قد أثرت سلبيا على حـــركة التـاريخ الاســلامى ، فالأحداث الخطيرة والمتلاحقة أضعفت الدولة العبـــاسية ، بل وصلت الى درجة الانهيار فى الفترات اللاحقة سواء تعلق ذلـك بالتطورات السياسية أو الاجتماعية أو الدينية والعقائدية ٠ وقد شهدت الدولة العباسية مراحل انحلالها ثم سقوطها ، حتى القنـــاع الدينى قد سقط هو الآخر ، فقوى المتمردون وانسلخوا عن جســـد الدولة السياسى بأقاليمهم ، وخاصة فى آسيا وهو ما يتعلق بمجال هذه الدراسة ، فاليمن انسلخت بقيـــادة يعفر ابن عبـــد الرحيم ، كما انفصلت سجستان على يد الأسرة الصـــفارية ، واستقلت خراسان ، وما وراء النهر بزعامة الطاهريين ، والســامانيين ، وآلت الموصل ، وشمال الشـــام وديار بـكر الى زعامة بنى حمـــدان ، وفى فترات لاحقة سيطر الهوبهيون والسلاجقة ثم المغول على مركز الخلافة ذاتها ٠

ولـما كانت هـــذه الدراسة تجمع بين المنهجين التـاريخى والتحليلى فسوف يتم استعراض خلفاء العصر العباسى الثانى بتسلسلهم ، ثم نستعرض فى اطار المنهج التحليلى السمات البارزة التى مرت بها هـــذه الفترة بدءا بالانحلال الأول ٢٣٢ـ٣٢٠هـ بما شملته بمجالات الانحـلال التى أمسكت بالجسد السياسى ، أى الدولة ، مرورا بنتـــائج هـذا الانحلال والتى كان أهمها الحركات الانفصالية وظهور العديد من الدويلات فى آسيا (الطاهرية ، الزيادية ، الزيدية ، الصفارية ، السامانية ، الساجية) وانتهاءا بعصرى الانحلال الثانى ٣٢٠ـ٤٢٢هـ ثم سقوط الدولة العباسية نهائيا سنة ٦٥٦هـ نتيجة لما عكسته الأوضـــاع الداخلية على علاقاتها الخارجية من ناحية وعلى صعيد العلاقات السياسة الاسلامية ـ وهذا هو الأهم من ناحية أخرى ـ لتفسير وتحليل فـكر أصحاب الدعوات المخـــالفة لمذهب الخـلافة مثـل الاسماعيلية والقرامطة والحركات « العقائدية » الأخرى غير أننا نبدأ أولا فى هذا الفصل بخلفاء عصر الانحلال الأول ٠

ـ خلفاء عصر الانحلال الأول :

تتفق المصادر[١] أن الخليفة في هذه الفترة كان أسيرا في يد الأتراك فان شاءوا أبقوه ، أو خلعوه ، أو قتلوه . ويعتبر المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم (٢٣٢ — ٢٤٧هـ) (٨٤٧ — ٨٦١م) هو بداية ما اصطلح المؤرخون على تسميته بدور الانحلال[٢] في الدولة العباسية ، وكان المتوكل يكره العلويين ، وأمر في سنة ٢٣٧هـ بهدم قبر الحسين بن علي بكربلاء ، وفي عهده تصاعدت غارات الروم على الثغور الاسلامية وقاموا بنهبها وأسر الكثير من سكانها ، كما قوى نفوذ الأتراك في عهده وامتد ليشمل جميع مرافق الدولة حتى تآمروا عليه وقتلوه .

تولى ابنه محمد المنتصر الخلافة بعد مقتل والده ، وفي عهده (٢٤٧ — ٢٤٨هـ) ٨٦١م زادت هيمنة الأتراك وسيطرتهم على الدولة فعزلوه ، وبايعوا المستعين أحمد بن المعتصم سنة ٢٤٨هـ ولم يلبث الأتراك أن استولوا على أمور الدولة كلها ، وتولى أحد القواد الأتراك الوزارة ، وبعد مضى أربع سنوات ، اضطروا المستعين أن يخلع نفسه ثم قتلوه سنة ٢٥٢هـ وفي عهده اضطربت الأحوال على الثغور ، واجتاح الروم البلاد قتلا ونهبا في عهد خلفه المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥هـ) (٨٦٦ — ٨٦٩م) حيث قتل ، ويصف ابن طباطبا هذه الفترة قائلا : « لم يكن المعتزبالله بسيرته وعقله بأس ، الا أن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في يدهم كالأسير ، ان شاءوا أبقوه ، وان شاءوا خلعوه ، وان شاءوا قتلوه . ولو جلس المعتز على سرير الخلافة ، قعد خواصه ، وأحضروا المنجمين ، وقالوا لهم : انظروا كم يعيش ، وكم يبقى في الخلافة ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء ، فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ، فقالوا له : فكم تقول أنه يعيش وكم يملك ؟»

---

(١) راجع على سبيل المثال . دكتور حسن على ابراهيم ، تاريخ الاسلام السياسي . القاهرة ١٩٧٣ ، دكتور على حسني الخربوطلي . الدولة العربية الاسلامية . البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٠ .

(٢) دكتور محمد أسعد طلس . تاريخ العرب ، الجزء السادس ، عصر الانحلال ، مرجع سابق ص ٨ وما بعدها حيث اعتمدنا على تحليلاته القيمة .

قال : مهما أراد الأتراك ، فلم يبق فى المجلس الا من ضحك(٣) » .

ثم تولى المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦هـ) (٨٦٩ — ٨٧٠م) الخلافة حتى خلعه الأتراك ، وكان متدينا ناهجا نهج الخلفاء الراشدين ، وروى ابن طباطبا أنه قال : « انى أستحى من الله أن لا يكون فى بنى العباس مثل عمر ابن عبدالعزيز فى بنى أمية ... » .

وتجدر الاشارة أن الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية قد ظهرت فى هذه الفترة ، ثم تصاعدت حدتها ، نتيجة الفوضى والاضطراب فى العاصمة ، ففى سنة ٢٤٩هـ ثار عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن على فى الكوفة ، واجتمعت اليه الزيدية ، ودعا الى « الرضا من آل محمد » . وفى سنة ٢٥٠هـ ثار الحسن بن زيد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد ابن على فى طبرستان ، فتملكها ، كما تملك جرجان الى سنة ٢٧٠هـ ، ثم قام أخوه محمد بن زيد من بعده فضم اليه مملكة الديلم أيضا ، وبقى يحكمها الى أن قضى عليه السامانيون سنة ٢٨٧هـ ، وفى سنة ٢٥٥هـ كانت ثورة صاحب الزنج التى أقلقت الخليفة ، وأضعفت أركان الدولة ، وكاد الثوار أن يفوزوا على جيش الخليفة لولا أن أخا الخليفة الموفق طلحة قد تمكن من القضاء على هذه الثورة سنة ٢٥٠هـ — ٨٨٣م بعد أن استمرت أربع عشرة سنة ، وتركت آثارا مخيفة من التدمير والفساد(٤) .

تولى المعتضد الخلافة فى الفترة ٢٧٩—٢٨٩هـ — ٨٩٢—٩٠٢م عقب وفاة أخيه المهتدى ، وفى عهده ثار العرب فى جزيرة الفرات لكنه تمكن من القضاء على هذه الثورة ، ثم ظهرت فتنة حمدان بن حمدون الذى سيطر على قلعة ماردين ، غير أن المعتضد استطاع أن ينتصر عليه واحضاره الى بغداد(٥) ، كما ظهر هارون الشارى الخارجى ، فأرسل عليه الحسين بن

---

(٣) راجع : ابن طباطبا ، صفى الدين محمد بن على ، المتوفى سنة ٧٠٩هـ ، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م .

(٤) دكتور محمد اسعد طلس ، تاريخ العرب ، الجزء السادس ، المجلد الثانى ، مرجع سابق ص ١٠ نقلا عن كارل بروكلمان ، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكى ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٥ ص ٥٥ .

(٥) ابن الجوزى ، أبو الفرج عبد الرحمن بن على المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، الجزء الخامس ، حيدر آباد ، الهند ١٣٥٨ هـ ص ١٢٦ — ١٢٨ .

حمدان الذى انتصر عليـــه وأحضره أســيرا الى بغــداد ، وظهر القرامطة بالبحرين والعراق والشام وكانوا من القوة بحيث استمروا فترة من الزمن يقلقون المسلمين والخلافة كما سيأتى تفصيل ذلـــك فى موضع لاحق من الدراسة ، وفى عهد المعتضد خرج عليه رافع بن هرثمة ، واحتل نيسابور وأعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوى ، فقضى عليه عمرو بن الليث وأرسل كتابا الى المعتضد مع رأس رافع . وكان رافع قد طالب أن يوليـــه الخليفة بلاد ما وراء النهر وعزل اسماعيل بن أحمد السامانى ، ووقعت مناوشات عديدة انتهت بوضع الشرق كله تحت حكم الأسرة السامانية كما سيأتى تفصيل ذلك .

ولما مات المعتضد سنة ٢٨٩هـ . تولى الأمر ابنه المكتفى بالله ، وتصفه المصادر بأنه من أفاضل الخلفاء ، وأراد اعادة مجد الخلافة الاسلامية ، ولكنه فشل ، ففى عهده ازدادت فتنة القرامطة اشتعالا ، ولقى الاســـلام بلاءا جسيما ، كما استقر الأمر للدولة السامانية فى بلاد خراســان وفارس ، فاقتطع جزء كبير من دولة الخلافة وخاصة حول بغداد والبصرة وفى سوريا واليمن . وعقب موت المعتضـــد تولى الأمر ابنه المقتـــدر ، وكان فتى لم يتجاوز الثالثة عشرة ، وقد أثار توليه الخلافة بعض الاضطرابات بل أهل الرأى والفقهاء . وما لبث أن عزل ، ليتولى عبدالله بن المعتز الذى لم يلبث سوى يوما ، استطار أنصار المقتدر اعادته الى الخلافة ، وفى عهده ٢٩٥ - ٣٢٠هـ - ٩٠٨-٩٣٢م ، تدخلت النساء فى أمور الدولة وازداد نفوذهن ، والأهم من ذلك أن القرامطة قوى شأنهم كثيرا عن ذى قبل ، وضعف شأن الخلافة ضعفا لم تشهده الخلافة الاسلامية من قبل . وكان مواليه من الأتراك يديرون أمر الدولة ، ويصف المؤرخون فترة حكمه بأنها أسوأ فترة مرت بالدولة العباسية منذ تأسيسها . ومن سوء حظ الأمة أن عهده دام خمسة وعشرين عاما تقريبا استشرى الفســـاد خلالهـا ، وانتشرت الفتن داخل وخارج البـــلاد حتى مقتـــله سنة ٣٢٠هـ - ٩٣٢م حيث طغت على الدولة العباسية موجة من الاضطرابات والفتن والجراح التى لم تلتئم الا بعـــد فترة طويلة ، أما الفترة التـــالية حتى سنة ٣٢٢هـ - ٩٣٤م فقد شهدت هى الأخرى المزيد من الفتن فى عهـــد القاهربالله حيث ثار عليه الجنود ، وقام كبار رجال دولته بعزله وحبسه حتى مات سنة٣٣٩هـ(٦) .

---

(٦) القلقشندى ، ابو العباس أحمد بن على المتوفى سنة ٨٢١ هـ ، صبح الأعشى

– شـــئون الخلافة :

سبقت الاشارة أن الخليفة العباسى فى العصر الأول كان رأس الدولة ومصدر السلطة ، ومرجعا لـكل شـــئون الدولة ، وقد أحيطت شخصيته بالرهبة ، فضلا عن العظمة ، مما دفع الخلفاء الى عـــدم امامة الناس فى الصلاة ، أو خطبة الجمعة كما كان يفعل الخلفاء الراشدون ، وتلقب الخليفة العباسى بلقب امام ، مما حمل فى مضمونه تأكيد المعنى الدينى فى الخلافة وأنهم الأئمة ،

هنـــاك نقطة أخرى جديرة بالملاحظة وهى مركز الوزير حيث اتخذ العباسيون منصب الوزير من نظام الحـكم الفارسى . فكان الوزير سـاعد الخليفة الأيمن ، يقضى فى جميع شـــئون الدولة باسمه ، وكان له الحق فى تنصيب العمال وصرفهم ، والاشراف على كافة شئون الدولة ، الى جانب نصح الخليفة ومساعدته ، غير أن هـــذه الوظائف جعلت المخاطر محفوفة بمركز الوزير ، وقد سبقت الاشارة أن أبا سلمة الخلال لقى حتفه على يد السفاح ، وكذلك يحيى البرمكى وأسرته على يد هارون الرشيد .

وعلى الرغم من الهيبة التى كان الوزراء يظهرون بها فى أعين الناس ، الا أن ضعف الوزراء لدى الخلفاء كان أمرا طبيعيا ، فضلا عن أن المنصب نفسه قد تطور بالتالى فى فترة الانحلال الأولى حيث كان اطمئنان الخلفـاء الى العنصر التركى فى مناصب الاستيزار والمناصب العامة الأخرى ، وكان من نتائج ذلك تسلط هذا العنصر على مرافق الدولة واهمال أصول الدعوة العباسية من سياسة ، وادارية ، وثقافية ، ودينية ، وحين انقسم الأتراك فضعف أمرهم أراد خلفاء الدولة العبـــاسية فى فترة الانحـلال استيزار عناصر جديدة من رجال العـــلم أمثال بنى خاقان ، وبنى الفرات ، وبنى وهب ، وبنى قيله ، وبنى مخلد ، غير أن المنافسات بينهم لتـولى المراكز القيادية ألحقت فسادا بالدولة لا يقل عن الفساد الذى ألحقه الأتراك .

وتذكر المصادر ما ردده الخليفة الراضى بشـــأن سوء أحوال الخلافة قائلا : « وكأنى بالناس تقول : رضى هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركى حتى يتحكم فى المال ، وينفرد بالتدبير ، ولا يدرون أن هذا الأمر قد فسد قبلى ، وأدخلنى فيه قوم بغير شهوتى ... » .

وقد استخلص زعيم القـــادة الأراك وظيفة امارة الأمراء ، وصـار بموجبها أكبر رئيس فى الدولة الاسلامية تاركا المظاهر الشكلية للخليفة ، وقد اتفق ابن رائق آمر الجيش مع القـــادة الكبار أن يتولى بنفسه - فى سنة ٣٠٤هـ - ادارة الدولة ورئاسة الجيش معـــا ، وصار منصب الخليفة شرفيا فقط حيث يتسلم راتبه الشهرى ، ومع ذلك فقد بقيت بعض المزايا الخاصـــة بالخليفـــة رمزية على الأقل ، وحرص أمير الأمراء التركى أن يحفظ للخليفة هـــذه المظاهر الشكلية بما لا يجرح شعور العـــامة ، فالمراسيم والقوانين تصـــدر باسم الخليفة ، وهو مرجعهم الدينى الذى يلجأون اليه فى الشدائد « ويتوسلون به الى الله » ،

وكان لتدهور أوضاع الخلافة أن قوى أيضا منصب الوزارة ومع ذلك كان الخليفة يقصى الوزيـر عن منصبه أو يقتله اذا ارتاب فى تصرفاته ، وكان هذا المعنى هو السائد فى الفترة الأولى للدولة العباسية ، أما فى فترة انحلال الدولة فقـــد تبوأ منصب الوزير درجة عالية من الأهمية ، وربما نافس الوزير صاحب السلطة العسكرية نفسه ، أى أمير الأمراء ، بل لقد أصبحت الوزارة فى مرحلة لاحقة وراثية فى بعض القبـــائل ، مثـــل آل الفرات ، وبنى وهب ، وبنى متلة كما سبقت الاشارة ٠

- بروز الولايات الاسلامية الانفصالية الاستقلالية :

أما نتائج هذا الانحلال فقد عكست تأثيراتها بشـــدة ، على انقسام الدولة العباسية الى دويلات ، ومن ناحية أخرى فقـــد قوى أمر أصحاب المذاهب والتيارات المخالفة لمذهب الخلافة ، فكان طبيعيا أن تتجزأ الدولة الى دويلات ، أو بمعنى أبسط ، فقد نجحت الدعوات الانفصالية من النـاحية الواقعية ، مع الابقاء اسميا على الخلافة كرمز ، وكانت هذه الدويلات التى استقلت فى آسيا استقلالا حقيقيا عن دولة الخلافة على النحو الآتى :

١ - الدولة الصفارية : (٢٤٧ - ٢٨٩هـ)

تتعارض المصادر(٧) فى فترة حكم هذه الدولة التى تأسست على يد يعقوب بن الليث الصفار الذى أغار على الدولة الطاهرية فى خراسان والتى كان قد أسسها طاهر بن الحسين فى عهد المأمون سنة ٢٠٥هـ • ففى حين تذكر احدى الدراسات أن هذه الدولة قد امتـدت من سنة ٢٤٧ الى سنة ٢٨٩هـ ، فان مصادر أخرى تذكر أنها شملت الفترة من ٢٥٤ - ٢٩٠هـ ، والواقع أن الخوارج حينما ثبتوا أقدامهم فى سجستان منذ زمن أبعد من ذلك ، ومن الأرجح أنهم منذ أوائل القرن الثالث الهجـرى قد أغاروا على السكان فى قسوة ، ولم تتمكن الدولة العباسية من اخضاعهم ، لدرجة أنهم استولوا على العاصمة نفسها لسجستان •

شهدت الفترة ٢٤٧ - ٢٥٣هـ أحداث غارات متعددة وقتـــال تجاه الخوارج انتهت باستيلاء يعقوب بن الليث على هراة ، وبوشنج ، ثم قاتل أمراء الترك ، والديالم المتـاخمة لسجستان حيث أذعن لـــه هؤلاء الأمراء ومعهم أمراء الملتان ، وذابلستان ، والســـند ، ومكران ، وفى سنة ٢٥٦هـ استولى على كرمان ، بعـــد أن ضم اقليم فارس اليه ، وفى سنة ٢٥٩هـ

---

(٧) قارن : المسـعودى ، مروج الذهب ، الجزء الرابع ص ٢٠٣ - ٢٠٥ ومن المراجع الحديثة ، دكتور محمد أسعد طلس ص ٢٨ ، دكتور أحمد قاعور ، دكتور شحادة الناطور ص ١٨٦ •

استولى على نيسابور قاعدة الطاهرية(٨) . وحارب الحسن بن على مؤسس الدولة العلوية فى طبرستان وهزمه ، وكتب يعقوب الى الخليفة العباس أن يوليه شرطة بغداد فأجابه أخ الخليفة الى ما طلب ، غير أن يعقوب أراد أن يهاجم بغداد نفسها ، ففشل ، وأخذ يحارب بعض ولاة الخليفة واستولى على الأهواز .

توفى يعقوب بن الليث سنة ٢٦٥هـ ، وخلفه أخوه عمر بن الليث ، حيث استقرت له بلاد المشرق وطمع فى بلاد ما وراء النهر ، وطلب من الخليفة المعتضد أن يوليه اياها ، فكانت تلك الولاية سببا فى القضاء عليه ، حيث ولاه الخليفة بالفعل هذه البلاد ، ويذكر الطبرى أن كتاب الخليفة بعزل اسماعيل بن أحمد السامانى عن ما وراء النهر قد قرىء فى بغداد وأن عمرا قد تولى مكانه ، فلما جاء رسول الخليفة الى عمرو يخبره بذلك قال عمرو : ما هذا ؟ فقال الرسول : هذا الذى سألت ، فقال عمرو ، وما أصنع به ؟ فان اسماعيل بن أحمد لا يسلم الى ذلك الا بمائة ألف سيف ، فقال الرسول : أنت سألته ، فشمر الآن لتتولى العمل فى ناحيته ، وتذكر المصادر أن السامانيين(٩) قد حاربوا عمرا فى ربيع سنة ٢٨٧هـ وهزموه شر هزيمة . وحملوه أسيرا الى بغداد . وتولى الحكم بعده حفيده طاهر بن محمد بن عمرو لكنه قبض عليه هو الآجر وأرسل ، مع أخيه الى بغداد ، وكان هذا ايذانا بانتهاء هذه الدولة التى ظلت دولة قوية قرابة النصف قرن ، وبالرغم من أنها كانت حركة انفصالية فى ظاهرها ، الا أن أمراءها لم يقطعوا كل الصلات مع الخليفة ، وان كانوا قد استمتعوا بالاستقلال وذكرت أسماؤهم مقرونة باسم الخليفة على المنابر ، وكانوا شديدى الحرص على بيت المال وضبط موارده ، وكان عمرو عادلا فى حكمه مساويا بين رعيته ، على جانب من الدهاء وحسن الادارة .

(٨) كما سيأتى تفصيل دولة الطاهرية فى موضع لاحق من الدراسة .

٢ - الدولة الطاهرية : (٢٠٥-٢٥٩هـ) (٨٢٠-٨٧٢م)

أسس هذه الدولة الأمير طاهر بن الحسين بن مصعب الخراساني ، وهو أحد قواد المأمون ، وأدى دورا هاما في الفتنة بين الأخوين ، الأمين والمأمون . ويرجع اليه الفضل في فوز المأمون على أخيه . فكافأه المأمون بتوليته الجزيرة وجانبي بغداد ، ثم ولاه أمر خراسان ، وما اليها الى أقصى الشرق ، ومن الأرجح أن الثقة التي وثقها المأمون بطاهر جعلته يطمع في الانفصال عن الدولة العباسية ، وبالفعل أعلن عصيانه على الخليفة سنة ٢٠٧هـ مما جعل الأمور تسوء بينهما ، ولكن الخليفة أدرك قوة سلطان طاهر في اقليمه ، فأحجم عن الاضرار به(١٠) ، ويظهر أن المأمون قد سلط عليه فيما بعد من دس السم ، فهلك . ويتابع ابن طباطبا تطور العلاقات بين الخليفة المأمون وطاهر الخراساني قائلا(١١) : « كان المأمون ، لما ولى طاهر بن الحسين خراسان ، استشار فيه أحمد بن أبي خالد الأحول وزيره ، فضرب أحمد الرأى في توليته طاهر ، فقال المأمون لأحمد : انى أخاف أن يغدر ويخلع ، ويفارق الطاعة ، فقال أحمد : الدرك في ذلك على ، فولاه المأمون ، فلما كان بعد مدة ، أنكر المأمون عليه أمورا ، وكتب اليه كتابا يتهدده ، فكتب طاهر جوابا أغلظ فيه للمأمون ، ثم قطع اسمه من الخطبة ثلاث جمع ، فبلغ ذلك المأمون ، فقال لأحمد : أنت الذى أشار بتولية طاهر ، وضمنت ما يصدر عنه ، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطبة ومفارقة الطاعة ، فوالله لئن لم تتلطف لهذا الأمر وتصلحه كما أفسدته ، والا ضربت عنقك . فقال أحمد : يا أمير المؤمنين طب نفسا ، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه ... » ، ويضيف صاحب الفخرى قائلا : « ثم ان أحمد أهدى لطاهر هدايا فيها كوامخ مسمومة - طعام فيه بهارات - ، وكان طاهر يحب الكامخ ، فأكل منها فمات من ساعته » .

وكان عبدالله بن طاهر هو أبرز أمراء آل طاهر ، وقد ولاه المأمون محاربة شبث بن ربعى ، ثم ولاه شرطة بغداد ، ثم بعث به الى مصر لتوطيد الأمن هناك ، وفى سنة ٢١٣هـ تولى عبدالله بن طاهر خراسان وما اليها من

---

(١٠) ابن الأثير ، الجزء السادس ص ٢٥٥ .

(١١) ابن طباطبا ، الفخرى في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ١٩٨ - ٢٠٠ .

بلاد المشرق ، فثبت أركان ودعائم حـكم الأسرة الطـاهرية فيهـا ، والتى توسعت حدودها حتى بلغت تخوم الهنـــد . ونقلت العاصمة من مرو الى نيسابور ، وظلوا فى الحكم حتى استيلاء الصفاريين على بلادهم ، كما سبقت الاشارة ، غير أن الدولة الطاهرية رغم هذا التوسع وتوطيد أركانها ، فانها كانت تدين اسميا لدولة الخلافة . أما من النـــاحية الفعلية فقد استقلت بالبـلاد ، واعتبرت أولى الدول الفارسية المنفصلة عن الدولة العباسية ، وكان تعاقب الطاهريين على الحكم كالآتى : طاهر بن الحسين (٢٠٥ـ٢٠٧هـ) وطلحة بن طاهر (٢٠٧ـ٢١٣هـ) ، عبدالله بن طاهر (٢١٣ـ٢٣٠هـ) ، وطاهر بن عبدالله (٢٣٠ـ٢٤٨هـ) ، ومحمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر (٢٤٨ـــ٢٥٩هـ) .

٣ — الدولة السامانية (٢١٦ — ٣٨٩ هـ) (٨٧٤ — ٩٩٩ م)
والدولة الغزنوية (٣٥١ — ٥٨٢ هـ) (٨٦٢ — ١١٨٦ م)

تنتسب الدولة السامانية الى أسرة فارسية ، وكلمة « سامان » هي لقب ديني لجد هذه الأسرة الذى كان كاهنا ثم أسلم فى العصر الأموى على يد أسد بن عبدالله القسرى والى خراسان ، واتصل به ، وسمى ابنه الأكبر باسمه ، وكان لأسد بن سامان أربعة بنين وهم : نوح ، وأحمد ، ويحيى ، والياس ، وقد ارتفعت مكانتهم فى دولة المأمون ، فولاهم والى خراسان ، غسان بن عباده تلبية لأمر الخليفة ، على بعض الأقاليم ، فكان نوح أميرا على سمرقند ، وأحمد أميرا على الشاش ، وأشروسنة ، والياس على هراة ، وعاش أحمد أكثر من اخوته ، فصار اليه حكم سمرقند ، وهراة ، والشاش ، وأسروشنة اضافة الى بلاد فرغانة . وأخذ سلطانه يتسع حتى امتد الى بلاد الصغد ، وفى سنة ٢٦١هـ خلعه ابنه نصر ، وكان أول حاكم استقل عن الدولة ، ومقره سمرقند ، واضطر الخليفة المعتمد أن يبعث اليه تقليدا بولايته على كافة بلاد ما وراء النهر .

وتضطرب المصادر حول ذكر أسماء حكام هذه الدولة الذين توارثوا السلطة ، غير أن اسماعيل بن أحمد بن أسد هو الذى اشتهر وخلف أباه على سمرقند ثم بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦١هـ وكانت هذه الجهود المثمرة أساسا فى تكوين هذه الدولة . وفى سنة ٧٢١هـ اضطربت بخارى ، وطلب أهلها من نصر أن ينقذهم ، فبعث اليهم أخاه اسماعيل فوطد الأمن فيها ، وحكمها بالنيابة عن أخيه ، وفى سنة ٢٧٢هـ عهد الخليفة المعتمد بولاية كافة بلاد بخارى والمشرق الى نصر ، الذى تمكن بمساعدة اسماعيل من القضاء على الثورات والفتن المحلية ، غير أن الفتنة نفسها امتدت الى الأخوين نصر ، واسماعيل حيث تغلب جيش هذا الأخير على جيش نصر ، وتم أسره ، لكن الأخوين تصافيا ، وصار نصر حاكما على سمرقند الى أن مات سنة ٢٧٩هـ .

برز نجم اسماعيل فى الفترة التالية ، فوطد أركان دولته ، والتى اتسعت حتى بلغت أقصى حدود المشرق ، وقضى على عمرو بن الليث الصفار امير خراسان ، كما قضى على محمد بن يزيد العلوى صاحب طبرستان ، وبموت اسماعيل سنة ٢٩٥هـ فى مدينة بخارى ، فقد تعاقب الأمراء على

حكم هذه الدولة حتى سنة ٣٨٩هـ ، وهو ما يستدعي وقفة لتفسير أحداث هذه الفترة ، لما عكسته من تأثير على أحوال الاقاليم الاسلامية فى آ سيا .

فقد تولى الحكم بعده اسماعيل ابنـــه أحمد ، وأمره الخليفة على ولاية أبيه ، واستطاع أحمد القضاء على الدولة الصفارية ، كما سبقت الاشــارة الى ذلك ، ثم ضم(١٢) الأقاليم التى كانت لها ، غير أنه توفى فى سنة٣٠١هـ وتوسعت الدولة السامانية أكثر فى عهد أبو الحسن بن نصر فضمت قزوين وقم ، وهمذان ، ونهاوند ، والدينور ، وفى عهد نوح بن نصر بدأ النزاع بينه وبين بنى بويه ، واستطاع نوح أن يسترد الـرى ، وبلاد الجبل من بويه ، لـكن الفتن ما لبثت أن اشتعلت مع البـويهيين وأدت الى حـروب عديدة بينهما انتهت بالصلح ، ثم تعرضت الدولة السامانية لأزمة أخـرى بعـد عـام ٣٦٦هـ حيث ثار القـادة على أميرهم ، فاستنجد بآل سبكتكين الغزنوية — أصحاب غزنة — وانتصرت جيوش السامانيين بالقرب من هراة . واستعاد الأمير نوح الثانى بن منصور اقليم نيسابور وولى عليه وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين ولقبه سيف الدولة ، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة ، ولما توفى نوح بن منصور سنة ٣٨٧هـ قام بعده ابنه منصور ابن نوح ، وفى عهده وقع الخلاف بينه وبين محمود بن سبكتكين الغزنوى الذى ثار عليه وقضى ابن سبكتكين الغزنوى على الدولة السامانية لكى تقوم الدولة الغزنوية . والواقع أن هذه الفترة قد شهدت أيضـــا تعاظم نفوذ الحرس التركى الذين تدخلوا فى السياسة وأسقطوا هيبة هذه الدولة ، وكان ظهور آل بويه فى الغرب ، والأتراك القرخانيين فى الشرق بقبائلهم الطورانية النازحة من آســيا الوسطى ، ايذانا بسيطرتهم على العـــالم الاسلامى وهو ما يستدعى التعرض للغزنويين وبنى بويه والتى ظهر فيها أقطاب الأدب والعلم المسلمين أمثـــال الخوارزمى ، والفارابى ، والمتنبى ، وابن سينا ، والطبيب الفيلسوف الرازى وغيرهم .

ان تقويم أوضاع الدولة السامانية ، وما عكسته من بصمات واضحة فى تاريخ العلاقات الاســلامية السياسية يتضح حينما تمكن ألب تـكين التركى ، أحد قواد السامانيين أن ينفصل عن جســـد الدولة السامانية سنة ٣٥١هـ — ٩٦٢م ويؤسس دويلة مستقلة عن غزنة ، وخلفه سبكتكين

سنة ٣٦٦هـ — ٩٧٧م فأعلن ولاءه للسامانيين ، وفى سنة ٣٨٤هـ — ٩٩٤م استطاع ابنه محمود إخماد فتن السامانيين ، وسمى بأمير خراسان ٠

مد سبكتكين سلطانه فى الشرق ، واتخذ من مدينة بيشاور(١٣) ، ثم استولى على خراسان ، فولاه عليها نوح بن سامان سنة ٣٨٤هـ ، ثم استولى على جزء كبير من الهند وعلى كابول فى أفغانستان ، وقد استقل سبكتكين فعليا عن السامانيين ، غير أنه من الناحية المظهرية كما يعترف لهم بالسيادة ، ولما تولى ابنه اسماعيل زمام الأمور ، فقد اتسم عهده بالصراع على السلطة مع اخوته ، ولم يلبث أخوه محمود أن سيطر على الحكم فاستولى على غزنة ، وخراسان سنة ٣٨٧هـ — ٩٩٧م ، وأرسل اليه الخليفة القادر لينعم عليه بلقب يمين الدولة وأمين النقود مقترنا باسمه بالقابه الجديدة ، وانتهز محمود فرصة اشتعال الاضطرابات والفتن فى الدولة السامانية ، فخلص خراسان من حكمهم وجعل نيسابور مقرا له ، وقضى حياته فى الجهاد فى سبيل الاسلام ، ونشره فى بلاد الهند ، فقام بعدة غزوات من سنة ٣٩١هـ — ١٠٠٠م ، وارتفعت راية الاسلام فى مناطق شاسعة من قلب آسيا وكتب الى الخليفة فى بغداد عن أخبار فتوحاته الاسلامية وتمكنه من بسط نفوذ الدولة الاسلامية على جزء كبير من البنجاب وبلاد الأفغان ، وبعد وفاته بدأ الضعف يتسلل الى الدولة حتى كانت نهايتها سنة ٥٧٨هـ على أيدى السلاجقة بزعامة طغرلبك ٠ وفى تقويم الدولة الغزنوية يمكن القول أنها كانت دولة سنية ، متشددة ، وربما يعزى نجاحها فى نشر الاسلام فى قلب آسيا والهند وأفغانستان الى طبيعة حكم أمرائها الذين كان بأيديهم جميع الأمور ، فضلا عن فعالية النظام الادارى وأساليب الحكم فى الأقاليم الخاضعة لها ، ومما يجدر ذكره ما قامت به من حملات ناجحة على طائفة الاسماعيلية ، وهو ما جعل الخليفة العباسى راضيا عنها ٠

وفيما يتعلق بالحركة الفكرية والثقافية ، فقد شهدت هذه الفترة نشأة الأدب الفارسى ، ففيه نظم الفردوسى (الشاهنامة) ، وفيه نقل الوزير

---

(١٣) عاصمة الاقليم الشمالى الغربى من باكستان وتقع على الحدود الأفغانية وتبعد عن كابول عاصمة أفغانستان بحوالى ٩٠ كيلو مترا ، وكانت بيشاور تابعة لأفغانستان حتى القرن التاسع عشر كما سيأتى تفصيل ذلك فى موضع لاحق من الدراسة ، راجع القرمانى ، أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقى ، المتوفى سنة ٦٨٥ هـ ، أخبار الدول وآثار الأول ، مكتبة المثنى ،

العالم البلعمى كتاب تاريخ الطبرى الى اللغـــة الفارسية ، ويصف كارل بروكلمان هذه الحركة الفكرية والثقافية قائلا(١٤) : « .... وفى هـــذا الوقت ، تفتح الوعى القومى عند الفرس من جديد ، بعـــد أن استعبدتهم سياسة العرب السياسية والدينية زمنا طويلا ، ومع أن الفـرس تفوقوا على العرب فى ادارة الدولة وفى النواحى الثقافية ، منـــذ ابتداء الدولة العباسية ، فقد كانت خدماتهم ذات فائدة للعرب فيما بعد ، اذا لم يعد من الممكن اقصاء لغة التنزيل عن الشئون العـامة وعن الأدب ، غـير أن الفرس تذكروا شرف لسانهم القومى وعظمته ... وعلى الـرغم من أن الشعب لم ينس فن انشاء الشعر . ، ... ، فقـــد لمع رودكى أول شاعر غنـــائى فارسى ... ، وعلى الرغم من أن شعره لم يخل من الكلمات العربية ، وأن الأوزان التى ابتكرها كانت مشابهة لشـــعراء الفرس ومفرغة من القوالب العربية ، - على الرغم من ذلك - فقد دعا أودكى فى منظومته الى فلسفة فى الحياة ، بعيدة عن الهم ، والغم ، فأسس بذلـك ملحمة تعليمية هى من أخصب فروع الأدب الفارسى » . ويضيف بروكلمان قائلا : « ... وبلغت الجغرافية العربية ذروتها حيث ألف الوزير الجيهانى كتابا فى وصف البلدان المجاورة ، ووضع زيد البلخى مصـــورا جغرافيـــا ، وجعـــله ذيلا لأطلس اسلامى » .

وفى تقويم الدولتين السامانية والغزنوية معا فقد سبقت الاشارة الى الى الدور الـــذى قام به سبكتكين وابنه محمـــود فى وقف سيل الأتراك الفرخانيين عنـــدما أرادوا التسرب الى الـدولة السـامانية ، واستطاع الغزناويون بعد ذلك توطيد أقدامهم فى جيحون حتى خراسان بصد مؤازرة الأتراك للغزناويين وغزوهم الهند والتوغل داخل البنجاب ولاهور وملتـان والعراق وخراسان وطخارستان وبلخ وما وراء النهر وسجستان ، واتخاذ « غزنة » مقـــرا لهم ، وقد توسع ابن الأثير(١٥) فى سرد أحداث الفترة اللاحقة على سنة ٣٦٦هـ ، ثم الاستيلاء على قلب آسيا سنة ٤٢٢هـ .

غير أن الصراع على السلطة بين أبناء سبكتكين على السلطة ، قد أضاع هيبة الدولة الغزناوية ، ثم انقسمت الى امارات ، وفى مرحلة لاحقة تمكن

---

(١٤) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسـلامية ، ترجمة نبيه فارس ، منير البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٥ .

(١٥) راجع : ابن الأثير ، الجزئين الثامن ص ٢٢٥ - ٢٢٨ ، التاسع ص ٤٥ .

الأجانب منها مثـل التركستان وسلاجقة فارس - كما سـيأتي تفصيل ذلك - ، واستطاع الغوريون أصحاب أفغانستان توجيه ضربة قاصمة الى الغزنويين فقضوا عليها سنة ٥٨٢هـ - ١١٨٦م ٠

والواقع أن هذه الدولة لا تختلف عن الدولة السامانية ، أو الدولة الصفارية من حيث أساليب الحكم التى لا تعتمد الا على القـوة ، ثم يدب الضعف في جسد الدولة حتى تنهار ، حدث هذا للدول الثلاث : الصفارية ، والسامانية ، والغزنوية ، غير أن ظهور وبروز هذه الأخيرة كان بمثابة أول نصر للعنصر التركى على العنصر الايرانى فى ميدان زعامة العالم الاسـلامى في حين انتقلت أهمية العنصر العربى تماما من مركز الدائرة الى محيطها ، وتذكر المصادر علو شأن العلماء ، والحكماء ، والفلاسفة ، والشعراء وأبرزهم - فى هذه الفترة - المؤرخ العربى « العتبى » والمؤرخ الفيلسوف العـالم أبوالريحان محمد البيرونى الذى قام بعدة رحلات علمية الى أقاليم الهنـد الشاسعة ليحيط بهـذه الثقـافة الفنية ويسجلها فى مؤلفيه القيمين : « تحقيق ما للهند من مقولة » ، و « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ٠

٤ ـ دولة آل بويه (٣٣٤ـ٤٤٧هـ) (٩٤٥ـ١٠٥٥م)

ينتسب البويهيون الى أبى شجاع بويه الذى ينتهى نسبه الى يزدجرد من آل ساسان ملوك الفرس ، وقد سكنت هذه الأسرة(١٦) فى الديلم فى الجنوب الغربى من بحر قزوين ، وتسمى هـــذه البلاد أيضا بلاد جيلان ، وسكانها قسمان : الجيل ، وهم ســكان السهول ويسمون أيضا الجيــلان ، والديلم ، وهم ســكان الجبــال ، وكانت أهم أقاليمهــا روزبار ، والجيــلان والديالمة ليسوا فرسا . وانما هم عنصر خاص ، وقد فتحت بلادهم فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولـمـا ظهر الحسن بن على الأطروش فى بلاد طبرستان دعا الديالمة الى الاسلام ، فاعتنقه معظمهم ، وامتد سلطان الزيدية ـ كما ستأتى الاشارة ـ من طبرستان الى بلاد الديلم ·

كان لأبى شجاع ثلاثة أولاد هم : أبو الحسن على ، وأبو على الحسن ، وأبو الحسين أحمد ، وقد عمل الثلاثة فى خدمة جيش مرداويج بن زيار الذى اعتمد عليهم لكفاءتهم العسكرية ، فولى أبا الحسن على مدينة « كرج » ـ بين أصفهان وهمذان ـ سنة ٣١٩هـ ـ ٩٣٠م ، وهاجم أصبهان واحتلهــا سنة ٢١هـ ـ ٩٢٣م ، ثم اســتولى على أرجان ووجه أخوية لاحتــلال الاقاليم المجاورة ، فتم الاستيلاء على كازرون ، وسجتان ، وشيراز ، وبذلــك سيطر بنو بويه على بلاد فارس ، وتذكر المصادر أن أبا الحسن أرســل الى الخليفة الراضى(١٧) بالله بالطاعة والمطالبة أن يعهــد اليه بما فى يده من البــلاد ، وبعث اليه بألف ألف ـ مليون ـ درهم ، فأجيب الى طلبه ، فلما بلغ ذلــك

---

(١٦) وتنسبهم بعض المؤرخين الى بهـدام جور أو سابور الملك الساسانى ، راجع : ابن الجــوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ص ٢٧٠ ، وراجــع أيضـــا : ابن خلكان شمس الدين ، أبو العباس احمد بن خلطان الشافعى ، المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة . ابن الأثير ، الجزء الثامن ص ١٩٧ ·

(١٧) راجع : العينى ، أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد الحنفى ، المتوفى سنة ٨٥٥هـ ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، أو تاريخ العينى « مخطوط » ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ص ٢٨١ ـ ٢٨٤ ·

مرداويج بن زيار ، غضب وسار الى أصبهان ثم الى اصطخر للاستيلاء عليها وتم له النصر فى الأهواز فصالحه ابن بويه سنة ٣٢٢هـ ، ثم فكر مرداويج فى السير الى بغداد ، والقضاء على الدولة العباسية ، وانشاء مملكة فارسية ، ساسانية مركزها « طيسفون » وهى عاصمة الدولة الكسروية قبل الفتح الاسلامى . ويذكر ابن الجوزى(١٨) قول مرداويج : « أنا أرد دولة العجم ، وأبطل ملك العرب » ، غير أن تخطيطه فشل وعاجلته المنية سنة ٣٢٣هـ - ٩٣٥م ، فاستولى بنو بويه على ما كان تحت يده(١٩) .

ضعفت الدولة العباسية وأنهكتها الاضطرابات والفتن فطمع على أبو الحسن فى احتلال بغداد ، فسير جيشا الى الأهواز فتملكها ثم سيطر على بغداد سنة ٣٣٤هـ - ٩٤٥م فخلع عليه الخليفة المستكفى بالله ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه أبا الحسن عليا عماد الدولة ، وأمر أن تضرب ألقاب الأخوة على النقود ، وهكذا سقط السلطان العباسى سقوطا رسميا على حد قول طلس(٢٠) ، وأصبح الخليفة رئيسا دينيا فقط ، ولم يعد له وزن ولا هيبة . وكان بنو بويه يدينون بالمذهب الشيعى وهو ما أوجد خصومة مستمرة مع الخليفة العباسى الذى أصبح فى خطر منهم ، لا سيما وأن بنى بويه كانوا يعتبرون العباسيين مغتصبين للسلطة من أصحابها الشرعيين ، أى العلويين ، فلما أصبح منصب الخليفة رمزيا فقط ، استمر بنو بويه يسيطرون على الحكم فى بغداد ، وكان عضد الدولة أعظم شخصية فى بنى بويه ، فقد ورث ملك عمه معز الدولة وملك أبيه الحسن الذى توفى سنة ٣٦٦هـ - ٩٧٦م ، وملك عمه عماد الدولة الذى توفى سنة ٣٣٨هـ - ٩٥٠م ، ووحد المملكة البويهية تحت سلطانه ، وبلغت فى عهده أوج عظمتها حيث سار الى بغداد سنة ٣٦٧هـ وخلع ابن عمه بختيار ، ثم سار نحو الموصل فطرد أبا تغلب الحمدانى منها ، واستولى على ملك الحمدانيين ، وبث جنوده فى طلب أبى تغلب فهرب هذا الأخير الى بلاد الروم ، وسيطر عضد الدولة على ديار ربيعة وديار بكر ، وديار مضر ، وهكذا امتدت سيادته لتشمل ايران ، والعراق ، والجبال ، والرى ، والحجاز ، وما اليها ، ومات عضد الدولة سنة ٣٧٢هـ ببغداد .

---

(١٨) ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الجزء السادس ص ٢٦٨ .

(١٩) الصولى ، أبو بكر محمد بن يحيى ، المتوفى سنة ٣٣٥ هـ ، أخبار الراضى بالله والمتقى بالله ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٩ ص ٢٠ .

تولى العديد من بنى بويه السلطة بعـــد عضد الدولة بدءا بصمصام الدولة ومرورا بشرف الدولة ، وبهاء الدولة ، وفى عهده عاود الأتراك والديلم التصادم مع بعضهم البعض ، كما خلع الخليفة العباسى الطائع وولى القادر الخلافة بدلا منه ، ويشيد بن الأثير وابن خلكان بمآثر عضد الدولة الفكرية ، فلما مات خلفه ابنه سلطـــان الدولة الذى انتزع منـــه شرف الدولة الحـكم ثم خلفه جلال الدولة حيث شهد بنو بويه فى عهده تردى أوضاع الحكم الى درجة كبيرة حيث سيطر الأكراد على البـــلاد ثم خلفه ابن أخيه أبو كاليجار المرزبان ، فأبى نصر فيروز الملقب بالملك الرحيم والـــذى أقام ملكا الى سنة ٤٤٧هـ حين قدم السلطان طغرل بك السلجوقى مستوليا على بغداد ، وهكذا زالت الدولة البويهية التى حكمت قـــرابة قـــرن وسيطرت على العـــراق ، وفارس ، واتخذت شـــيراز عاصمة لها ، وبغـــداد مقرا لأمرائها[٢١] ، والتى بلغت أوجها فى عهد عضد الدولة ، الذى سيطر على أرجاء واسعة فى آسيا واعتنق سكانها الاسلام .

---

(٢١) راجع : الخطيب البغدادى ، أبو بكر أحمد بن على ، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة بمصر ، القاهرة ١٩٣١ ص ١٠٤ - ١٠٦ .

٥ - الحمدانيون (٢٩٣ - ٤٠٢هـ)

تداخلت دولتا بنى بويه والحمدانيين فى فترتى حكميهما ورغم اختلاف واختلاط أماكن حكمهما فى نفس الوقت ، فقد شهد القرن الهجرى الرابع أزهر عصور الاسلام فى العلم والأدب والحياة الفكرية عموما فى ظل الدولتين . فقد ذكر يعقوب الحموى أن أبا القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى ، الفقيه الشافعى ، أسس دارا للعلم فى بلده ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم . كما تحدث(٢٢) ابن النديم عن انشاء دارى كتب احداهما بالقصر ، والأخرى برامهرمز وكان فى الثانية أستاذ يدرس الكلام على مذهب المعتزلة ، وفى حلب جعل سيف الدولة من جامعها ، ومن قصره دارى علم ، يجتمع فيهما أئمة الأدب والدين فى عصره ، وذكر أبوالفداء(٢٣) أن سيف الدولة أجرى على أبى نصر الفارابى الفيلسوف الذائع الصيت ، أربعة دراهم كل يوم ، وروى ابن خلكان(٢٤) أن ابن خالويه النحوى كان خشنا ، فوقع بينه وبين المتنبى كلام فى مجلس سيف الدولة ، فوثب ابن خالويه على ابن الطيب ، وضرب وجهه بمفتاح كان معه ، فخرج من المجلس ودمه يسيل على وجهه ، وكان أبو الطيب المتنبى من أشهر الأدباء والشعراء فى بلاط الحمدانيين والذى ضم الكثيرين ممن ذاع صيتهم أمثال أبوالفرج الأصفهانى ، وابن نباته الفارقى ، ومن الأئمة أبوالفتح بن جنى الموصلى ، والشاعر أبوبكر محمد بن أحمد الصنوبرى الانطاكى ، والأمير الفارس أبى فراس الحمدانى .

والحمدانيون أنفسهم كانت لهم امارتان ، امارة الموصل وامارة حلب ، وينتسب الحمدانيون الى حمدان بن حمدون الذى يرجع نسبه الى قبيلة تغلب التى هاجرت من نجد فى الجزيرة العربية الى الجزيرة الفراتية ، وبرز حمدان حينما ثار على الخلافة العباسية ، واستولى على قلعة ماردين سنة ٢٨٣هـ - ٨٩٥م ، غير أن الخليفة المعتضد قضى على تمرده وزجه فى

---

(٢٢) ابن النديم ، محمد بن اسحق أبو الفرج ، المتوفى سنة ٢٣٥ هـ ، الفهرست . دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٨ ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(٢٣) أبو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن محمد عمر ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ المختصر فى أخبار البشر ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٥٦ ص ٤٥٨ .

(٢٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ص ٦٤ - ٦٦ .

السجن(٢٥) ، وتذكر المصادر(٢٦) بروز نجم هذه الأسرة فى عهـــد الخليفة المكتفى بالله الـــذى عين عبدالله بن حمدان أميرا على الموصل ، وما يليهـــا سنة ٢٩٢هـ - ٩٠٤م ، وقد تعرضت امارة الموصل للعـــديد من مؤامرات الأتراك وبنى بويه على السواء ،لكن الحمدانيين صمدوا وخاصة فى عهـــد ناصر الدولة الحسن بن عبدالله بن حمدان ، واستمرت هذه الامارة الحمدانية حتى قضى عليها بنو بويه سنة ٣٦٨هـ(٢٧) - ٩٧٩م - كما سبقت الاشارة - وتزخر الفترة من سنة ٣٣٣هـ الى سنة ٤٠٢هـ بغزو الحمدانيين لبلاد الروم والتوغل فيها وهزيمة الروم فى وقعات كثيرة وخاصة فى عهد سيف الدولة ، وحين خلفه ابنه سعد الدولة فانه لم يقم بعمل يذكر ، أما أبو الفضائل سعيد الدولة ابن ســعد الدولة فقد كان صغير السن ، فتولى الأمر مولاه لؤلؤ ، فطمع الخليفة العزيز الفاطمى بتمــلك حلب ، وجهز جيشا ، واستنجد لؤلؤ بملك الروم فأنجده بجيش كبير ، لكن قائدى الجيشين فضلا الصلح فى حين رفضه الخليفة العزيز الفاطمى ، ووصلت الدولة الحمدانية الى درجة كبيرة من الضعف والتفــكك حتى كانت نهايتهــا على أيدى الفــاطميين سنة ٣٩٣هـ - ١٠٠٢م ، وأصبحت حلب جزءا من الدولة الفاطمية .

وفى تقويم هذه الدولة ، يمكن القول بقـــدر معقول من الثقة ، أنها كانت دولة عربية خالصة بعيدة عن العناصر الأعجمية وقضت وقتــا طويلا تؤثر القتال فى سبيل الاسلام على الرغم من أن أمراءها كانوا يتبعون المذهب الشيعى ومع ذلك فانهم لم يفرضوه على رعاياهم ، بل تركوا لهم حرية الدين والمذهب وهو ما يوضح ما سبقت الاشارة اليه من النهضة الفكرية الاسلامية الشاملة فى عهدها .

---

(٢٥) ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم . الجزء الخامس ص ١٤٧ .

(٢٦) الدكتور أحمد قاعور ، الدكتور شحاده الناطور . تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولى ، مرجع سابق ص ١٩١ .

(٢٧) أبو الفداء ، الجزء الثانى ص ١٠٢ - ١٠٣ .

٦ - من الدولة الزيادية ٢٠٣-٢٥٣هـ الى الدولة الزيدية ٢٥٠-٣٥٥هـ والدولة الساجية ٢٦٦-٣١٨هـ

فى تتبع مرحلة انحلال الدولة العباسية ونتائجه من حيث انقسامها الى دويلات ترتبط بها اسميا ، لابد من التعرض الى دولتين احداهما فى اليمن والأخرى فى الكوفة ، والاثنتـــان تتشابهان فى ظروف انفصالهما رغم أن الدولة الزيادية لم تستمر سوى ما يقرب من نصف قرن ، فى حين استمرت الدولة الزيدية أكثر من قرن من الزمان ·

فقد كان أهل اليمن منذ نشأة دولة بنى العباس لا يقرون بها ، لأنهم يميلون الى آل على ، ويرون أن آل العباس قد ظلموا العلويين ، وفتكوا بهم ، وقد انعكست عليهم هـــذه الأحـداث ، فلم يخضعوا خضـوعا تاما لحـكم العباسيين ، وكانوا يتحينون الفرصة المواتية لتأسيس دولة علوية مستقلة ، ولم تهدأ ثورات أهل اليمن حتى بعث اليهم الخليفة المأمون بقائد عربى قوى هو محمد بن ابراهيم الزيادى أحد أبناء زياد بن أبى سفيان ، وولاه اليمن سنة ٢٠٣هـ ونجح فى اخضاعها جميعا ، وتصاعدت سلطته ونفوذه ولـكنه استمر فى ولائه للعباسيين ، وطال حكمه لليمن ، وآل الحكم من بعده الى أبنائه . وأحفاده حتى سنة ٢٥٣هـ ، وكانت هـــذه الدولة هى الأولى فى الحركات الانفصالية عن بغـــداد فى جزيرة العرب حيث لم تسيطر الدولة العباسية على اليمن منذ ذلك الحين فى فرض مذهبها ، وقامت بعـــد الدولة الزيادية دول علوية الهوى ، زيدية المذهب الى أيام الفتح العثمانى ·

أما فيما يتعلق بالدولة الزيدية والتى استمرت فى الفتـرة من سنة ٢٥٠هـ الى ٣٥٥هـ ، فشأنها شأن ظروف قيـام الدولة الزيادية حيث كان العلويون ينتهـــزون أى فرصة للتمرد على الدولة العبـاسية لحقهم هم فى الخلافة ، ففى أيام الفتنة بين الأخوين - المـأمون والأمين - قاموا يطالبـون بحقوقهم ، ويعلنون الثورة على العباسيين ، وكانت لهم حركات تمرد وعصيان أخرى ، وأهمها حركة أبى السرايا السرى بن منصور ، الذى ثار بالكوفة ، ومعه ابن طباطبا سنة ١٩٩هـ وهو محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم ابن الحسن ، وامتد نفوذه حتى بلغ الحجاز ، ولولا موت(٢٨) ابن طباطبا ،

ثم موت أبي السرايا نفسه سنة ٢٠١هـ ، لكان لهذه الحركة العلوية شأن آخر على حد رأى طلس(٢٩) ، غير أن الحركة العلوية شهدت ثورة محمد ابن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على فى الكوفة خلال فترة حكم المعتصم ، وذاع صيت محمد بن القاسم فى خراسان ، وهو يدعو (الرضا من آل محمد) واستقطب الكثيرين حوله ، ووقعت بينه وبين أمير خراسان عدة وقعات ، ثم أسر محمد وسيق الى المعتصم ، فحبسه فى سامراء سنة ٢١٩هـ ، غير أنه تمكن من الهرب ، ولم يعلم أحد عنه شيئا بعد ذلك ، وأثار غيابه فجأة اعتقاد الكثيرين بأنه حى ، لكنه غائب ، وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلا .

وفى أيام المتوكل ، الذى كان يعلن عداءه لآل على ، وشدة كراهيته لهم ، وهدم قبر الحسين وما حوله ، ثار يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد ابن على بن الحسين ، فتمكن المتوكل منه ، وحبسه فى بغداد ، غير أن يحيى تمكن هو الآخر من الفرار ، واستقطب الكثيرين حوله ، ولكنه لم يوفق فى الوصول الى هدفه ، وقضى سهل بن هارون على حركته ، ومع ذلك فقد تمكن من الاستيلاء على الكوفة وبلغت دعوته بغداد ذاتها أيام خلافة المستعين ، حيث قوى سلطان يحيى كثيرا وانضم اليه الكثيرون ، فبعث المستعين بجيش قضى عليه ومثل بجثته ، فلما بلغت أخباره الحسن بن زيد بن محمد ابن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن ، ثار بطبرستان واستولى على عاصمتها آمل ثم على سائر أقاليمها ، وعلى الديلم ، واستطاع الحسن بن زيد أن يؤسس دولة قوية دامت نحو قرن ، تولى فيها فى الفترة ٢٥٠ - ٢٧٠هـ ثم أعقبه محمد بن زيد المعروف بالقائم بالحق فى الفترة ٢٧٠ - ٢٧٨هـ وتمكن خلالها من ارسال دعاته لنشر دعوته الزيدية فى أقاليم متعددة من آسيا ، حتى تغلب السامانيون عليه ووطدوا أركان الدولة السامانية (كما سبقت الاشارة) .

وفى سنة ٣٠١هـ تمكن الحسن الأطروش بن على بن الحسين بن على

= ومؤلف الكتاب الشهير الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية والذى أشرنا اليه فى العديد من الحواشى .

(٢٩) دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثانى ، مرجع سابق ص ٢٧ . حيث استعرض تفصيلا أيضا ظهور العديد من الدويلات الجديدة فى المغرب العربى وتونس

ابن عمر بن زين العـــابدين أن يعيــد سلطان الزيدية من جديد على بلاد طبرســتان والديلم ، وظل الى سنة ٣٠٤هـ ، ثم خلفه الحسن بن القــاسم ابن على ابن عبدالرحمن ، ومعــه أولاد الأطروش فى الفترة من سنة ٣٠٤هـ الى ٣٠٥هـ حين انتهى أمر الدولة الزيدية ٠

وفى آسيا قامت فى أذربيجان سنة ٢٦٦هـ حـركة تمرد أخرى بقيادة يوسف بن أبى الساج عامل أرمينية وأذربيجان فى عهد المقتدر حيث قوى مركز يوسف ٠ فثار على بغداد وأعلن انفصاله عنها ، ولم تفلح جهود المقتدر فى القضاء على هذه الحركة ، وتمكن ابن أبى الساج من القضــاء على جيش الخليفة ، فأرسل هذا الأخير جيشا آخر ، ومع ذلك تمكن ابن أبى الساج من فرض ارادته ، وتقوية نفوذه فى أرمينية ، وأذربيجان ، والرى ، واستمر حكم هذه الأسرة على بلاد أذربيجان الى سنة ٣١٨هـ ٠

٧ - الدولة الهبارية (٢٤٠ - ٤١٦ هـ)

هى دولة عربية قامت فى المنصورة ببلاد السند ، فى الفترة من سنة ٢٤٠ الى سنة ٤٢٦هـ وتنتسب الى صحابى جليل هو هبار بن أسود أحد قبيلة بنى أسد المتفرعة من قبيلة قريش الذائعة الصيت ، وقد أسلم هبار فى سنة ٨ للهجرة ، وقدم حفيده المنذر بن زبير الى بلاد السند فى معية الحكم بن عوانة الكلبى الوالى الأموى على بلاد السند فى سنة ١١٢هـ (كما سبقت الاشارة) .

ويعتبر عمر بن عبد العزيز الهبارى مؤسس الدولة الهبارية(٣٠) العربية وقد شغل مناصب مرموقة فى الدولة الأموية ثم فى الدولة العباسية وقد استفاد من الخلافات القبلية بين العرب المقيمين فى السند حتى تزعم الحجازية ، واستولى على حكم المنصورة بالقوة بعد نجاحه فى قمع الاضطرابات القبلية (أحداث مقتل عمران البرمكى سنة ٢٢٦هـ ، أحداث قتل هارون المروزى سنة ٢٤٠هـ) ، وقد كان تابعا اسميا للدولة العباسية واستمرت معها العلاقات الطيبة فى المجالات السياسية والثقافية والتجارية حتى أن الخليفة المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ) قد وافق على ولاية عمر بن عبد العزيز الهبارى كأمر واقع فى بلاد السند لقوة نفوذه هناك ، وبالمثل حينما تم تعيين أخيه حاكما عاما على الولايات الشرقية سنة ٢٦١هـ .

وتذكر المصادر التاريخية الشيء الكثير عن ولاية عمر الهبارى لبلاد السند سوى دخول أحد الهند ملوك الاسلام واهدائه جواهر نادرة له حيث قام بدوره باهدائها للخليفة العباسى ، كذلك فقد وحد عمر الهبارى بلاد السند برمتها ونشر فيها الأمن والاستقرار حتى توفى سنة ٢٧٠هـ .

وبوفاته أصبح الحكم وراثيا فى الأسرة الهبارية ، وكان الخليفة يوافق مضطرا ، وبذلك انقطعت سلسلة مجىء الولاة من العراق الى بلاد السند(٣١) .

---

(٣٠) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثانى ص ٣٢٧ .

(٣١) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، الجزء الاول ، مرجع سابق ص ٢٩٨ .

فقد تولى عبدالله بن عمر الهبارى (٢٧٠ - ٣١٠هـ) أمور بلاد السند ووقعت فى فترة ولايته حادثتان كبيرتان ، الأولى ان ملكا سنديا (مهروك بن رائك) بعث اليه مستفسرا عن تعاليم الاسلام ، فأرسل اليه عبدالله عالما عراقى الأصل أقام عنده ثلاث سنوات يلقنه تعاليم الاسلام وتفسير القرآن الكريم باللغة السندية حتى أسلم الملك وأمر بكتابة التفسير باللغة السندية وهو ما يعتبر أول تفسير للقرآن الكريم باللغة السندية فى بلاد السند . أما الحادثة المروعة الثانية فقد حدثت بمدينة الديبل التى كانت لها أهميتها الاستراتيجية عند العرب باعتبارها قلعة الاتصال بين بلاد السند والبلاد العربية ، ففى سنة ٢٨٠هـ خسفت الشمس وانتشر الظلام منذ النهار ، وفى نفس الوقت حدث زلزال عنيف دمر منازل الديبل كلها ، وبلغ عدد الموتى مائة وخمسين ألفا مما أفقد المدينة نشاطها التجارى ، وأمر الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) بمساعدة[٣٢] سكان المدينة . وقد ظل عبدالله ابن عمر الهبارى يحكم بلاد السند نحو ثلاثين عاما استطاع خلالها أن يقر الأمن وينشر الرخاء ويقوم بتبليغ واسع للاسلام .

وبعد وفاة عبدالله الهبارى فى سنة ٣٠٠هـ تولى الحكم ابنه عمر الثانى ابن عبدالله الهبارى (٣٠٢ - ٣٣٠هـ) وقد كتب المؤرخ الاسلامى الذائع الصيت أبو الحسن على المسعودى فى مؤلفه القيم « مروج الذهب ومعادن الجوهر » يصف أحوال الوزراء والاستقرار والأخبار المختلفة عن المنصورة وأن عائلات عربية تنتمى الى على بن أبى طالب تقيم هناك ، وأن عمر الثانى قد فتح من جديد بعض المدن الكبيرة حول المنصورة مثل مدينة الور ، وفى سنة ٣٧٥هـ كتب المقدسى البشارى يصف الناحية المذهبية للسكان وأنهم سنيون يتبعون مذهب أبى حنيفة ، وأن المذهب الظاهرى الداودى بدأ ينتشر بين بعض العلماء هناك[٣٣] ، ويفسر الطرازى[٣٤] ذلك قائلا : « ومعنى ذلك أنه لم يكن قد ظهر بعد أثر واضح للشيعة فى المنصورة حين زارها المقدسى ... » .

---

(٣٢) السيوطى (المتوفى سنة ٩١١ هـ) جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الطاعة ، القاهرة ١٣٥١ هـ ص. ٣٧٩ - ٣٨٤ .

(٣٣) البشارى (المتوفى سنة ٣٨٨ هـ) شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسى البشارى ، احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٤٧٩ .

(٣٤) الدكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية، الجزء الأول ص ٣٠١ .

غير أنه وصل رجل شيعي من طرف الامام عبيد الله المهدى وكان بمثابة أول داع شيعي يصل الى بلاد السند وأجرى اتصالات مع علماء السند المسلمين لنشر المذهب الشيعي ، ومن الأرجح أنه لم ينجح ، فانتقل الى اقليم الملتان ونجح هناك وبدأ الدعاة الشيعيون يفدون الى المنطقة حتى استطاعوا بعد قرن من اقامة دولتهم فى الملتان ثم فى المنصورة فيما بعد ، واختار الخليفة العباسي عالما سنيا كبيرا وأسرته بهدف الوقوف على التيارات الفكرية والسياسية الجديدة للشيعة فى بلاد السند واستطاعت هذه الأسرة خدمة الدين الاسلامى . وفى أحداث سنة ٤١٦هـ ذكر ابن[٣٥] الأثير أن سكان المنصورة قد دخلوا فى المذهب الشيعي منذ سنوات قليلة ، ويؤكد الطرازى أن الشيعة لم يستولوا على الحكم بالمنصورة فى الفترة من ٣٧٥ الى ٤٠١هـ حيث طرد السلطان محمود الغزنوى حكام الشيعة من الملتان ، ومن الأرجح - والرأي للطرازى[٣٦] - بأن الشيعة الذين طردوا من الملتان أو هربوا منها ، قد جمعوا شتاتهم واستولوا على المنصورة سنة ٤٠١هـ حيث كانت الدولة الهبارية قد ضعفت وظهرت تيارات سياسية عديدة فى بلاد السند.

وفى الفترة التى برز فيها محمود الغزنوى ، فانه حاول القضاء على سلطة الشيعة التى استمرت فى الفترة من سنة ٤٠٢ الى سنة ٤١٦هـ وذلك عند عودته من بلاد الهند بعد أن فتح سومنات وعاد الى غزنة حيث سار فى طريقه الى الملتان ومنها الى المنصورة ، غير أن جيشه تعرض لغارات حكام المنصورة ومع ذلك تمكن السلطان محمود الغزنوى من اسقاط دولة الشيعة بعد أن قتل الكثيرين منهم وغرق آخرون فى نهر السند ، وانتقل الحكم منذ سنة ٤١٦هـ الى أيدى الحكام الغزنويين التابعين للدولة الغزنوية ، وخرجت بلاد السند والملتان من أيدى الحكام العرب لتنتقل الى الحكام الغزنويين فى أوائل القرن الخامس الهجرى .

---

(٣٥) ابن الأثير . الكامل فى التاريخ . الجزء التاسع ص ٢٤١ - ٢٤٤ .

(٣٦) دكتور عبد الله مبشر الطرازى . موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية . الجزء الأول ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

٨ - الدولة الملتانية (١٥١ - ٤٠١ هـ)

نسبة الى مدينة الملتان باقليم البنجاب ، وقد سبقت الاشارة الى أن أول من فتح الملتان من العرب هو القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفى فى عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك الأموى وكان والى العراق هو الحجاج ابن يوسف الثقفى فى سنة ٩٤هـ بعد فتحه لبلاد السند سنة ٩٢هـ .

وكان أول حاكم مسلم لاقليم الملتان هو داود بن وليد العمانى من محمد بن القاسم الثقفى ، ولا تذكر المصادر التاريخية اسم اقليم الملتان لمدة خمسة وخمسين عاما بعد ذلك لكون هذا الاقليم اقليما كبيرا منفصلا عن اقليم السند ، ومن الأرجح أن داود العمانى قد استقل بحكم اقليم الملتان لنفسه اثر الاضطرابات السياسية التى قامت بعد مقتل محمد بن القاسم الثقفى ، وبذلك انقطع الاتصال المباشر بين العرب فى اقليم السند ، وبين العرب فى اقليم الملتان ، وظلت حكومة الملتان فى أيدى الحكام العرب حتى أواخر العصر العباسى ، ولكنها لم تكن تابعة لحكم والى المنصورة ببلاد السند وان كانت تظهر ولاءها - اسميا - للخلافة الأموية ثم العباسية وتدعو لها فى الخطب .

شهدت الفترة من سنة ١٥١ الى ٣٣٥هـ تولى عدد من الولاة على الملتان ففى سنة ١٥١هـ أشار بعض رجال الدولة على هشام بن عمرو التغلبى باعادة الوحدة بين السند والملتان وقد سبقت الاشارة أن هشام عاد الى منطقة قندهار(٣٧) للقضاء على الاضطرابات بدلا من مواصلة السير نحو بلاد الهند ، ولا يتحدث المؤرخون لمدة ثلاثين عاما من هذا الحدث عن الملتان ويبدو أن الحالة فيها كانت مستقرة .

خاف أهل الملتان من اقامة محمد بن عدى التغلبى فى مدينتهم نظرا لاحتمال اشتعال العصبية القبلية هناك مثل المنصورة ، ويذكر الطرازى(٣٨)

---

(٣٧) راجع ص

(٣٨) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ،

أن المصادر التاريخية لا تذكر شيئا لمدة تسعين عاما أخرى ، ثم اهتم المؤرخون والجغرافيون العرب بأخبار الملتان فى أواخر القرن الثالث الهجرى عند انتقال الحكم من أسرة داود العمانى الى حكام جدد يقال لهم « بنو سامة » وتوالت زيارات المؤرخين العرب لهـذه المدينة وكتبوا عن حكامها وتطورات الأوضاع فيها مثل المسعودى الذى زارها سنة ٣٠٣هـ ، والاصطخرى الذى زارها سنة ٣٤٠هـ ، وابن حوقل الذى زارها سنة ٣٦٧هـ وكتب ان حكامها هم بنو منبه واهلها على مذهب أهل السنة ، ثم البشارى المقدسى الذى زارا سنة ٣٧٥هـ وذكر أن حكام الملتان أصبحوا من الشيعة(٣٩) .

تضطرب المصادر التاريخية حول ذكر الفترة الزمنية التى استولى الشيعة فيها على الحكم فى الملتان ، ويرجح الطرازى(٤٠) من خلال الاشارات السريعة التى وردت فى المصادر التاريخية أن الخليفة الفاطمى الثانى بمصر العزيز بالله (٣٧٥ — ٣٨٦م) هو الذى أسقط الدولة العربية السنية هناك بواسطة جلم بن شيبان الذى حكم الملتان فى سنة ٣٧٥هـ وأسس الدولة الشيعية فى الملتان وقام بتنظيم شئون الدولة اداريا وسياسيا والدعوة للمذهب الشيعى ، ثم تولى الحكم من بعده الشيخ حميد الذى عقد صلحا مع السلطان سبكتكين سلطان غزنة سنة ٣٨١هـ .

وكان السلطان سبكتكين قد قام بحملة على لاهور فى سنة ٣٨٠هـ فهزم أميرها وتم الصلح بين الطرفين ، لكن أمير لاهور خالف شروط الصلح ، وتعقبته جيوش سبكتكين حتى نهر السند وهزمته .

وقد سبقت الاشارة الى أن السلطان محمود الغزنوى الذى خلف

---

(٣٩) راجع : ابن حوقل (المتوفى سنة ٣٦٧ هـ) — أبو القاسم محمد بن على بن حوقل النصيبى البغدادى . المسالك والممالك . لندن ١٨٠٠ م (باب السند) .
— المسعودى . مروج الذهب . الجزء الأول ص ٣٧٦ .
— البشارى (المقدسى) . أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . مصدر سابق ص ٤٨٠ — ٤٨٢ .
— الإصطخرى (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ) أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى الأصطخرى مسالك الممالك . لندن ١٨٧٠ م .
(٤٠) دكتور عبد الله مبشر الطرازى . موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية . الجزء الأول ص ٣٠٩ — ٣١١ ، نقلا عن : أبى ظفر ندوى . تاريخ السند . أعظم كدة الهند ١٩٦٧ ص ٢٥٦ (بالأردية) .

السلطان سبكتكين انشغل فور توليه الحكم بمشاكل خراسان ، ثم بدأ الحملة على بلاد الهند سنة ٣٩٢هـ وفتح منطقة مجاورة لقندهار وكانت تابعة لأمير لاهور .

تولى أبوالفتوح داود بن نصر بن حميد الشيعى حكم الملتان سنة ٣٩٦هـ ، وحدثت مناوشات على حدوده بين حاكم لاهور والسلطان محمود الغزنوى الذى انتظر مساعدة حاكم الملتان حسب نصوص معاهدة الصلح التى كانت بين الدولة الغزنوية ودولة الملتان ، غير أن حاكم الملتان أساء التصرف تجاه السلطان محمود الغزنوى وجيشه فى الخفاء ، مما اضطره الى مفاجأة حاكم الملتان والقضاء على الشيعة الذين أصبحوا خطرا على الدولة الغزنوية ذاتها ، وأصبحت حدود المناطق التابعة لحكم السلطان وحدود الملتان متصلة ببعضها ، وأصبحت الملتان تابعة للدولة الغزنوية .

غير أن الشيعة فى الملتان سرعان ما تمردوا على السلطان محمود الغزنوى ، الذى قام بحملة عنيفة على داود بن نصر بن حميد حاكم الملتان وقضى عليه وعلى الدولة الشيعية هناك وعين عليها حاكما سنيا سنة ٤٠١هـ وهكذا سقطت الدولة العربية السنية فى الملتان باقليم البنجاب فى سنة ٣٧٥هـ لتقوم مكانها الدولة العربية الشيعية ، وفى سنة ٤٠١هـ زالت الدولة الشيعية على أيدى الغزنويين . وصارت الملتان جزءا من الدولة الغزنوية .

وقد حدث تطور آخر فقد استولى الشيعة الذين طردوا من الملتان بواسطة الغزنويين على المنصورة ببلاد السند سنة ٤٠٢هـ ، ومنها زحف الغزنويون الى المنصورة واستولوا عليها وخرجت بلاد السند والبنجاب من أيدى الحكام العرب .

الفصل الرابع

عصر الانحلال السياسي وتعاظم دور الفرق الإسلامية

- الخلفاء

- الفرق الاسلامية وتاثيراتها

٢ ـ تجمع الفرق فى حركات معقدة

٣ ـ الشيعة

٤ ـ المرجئة

٥ ـ القدرية والجبرية

٦ ـ المعتزلة

٧ ـ الاسماعيلية

٨ ـ القرامطة

- الفرق الاسلامية فى بلاد السند والبنجاب

ـ الخلفـــاء

سبقت الاشارة الى ما أفرزه عصر الانحلال الأول من حركات انفصالية استقلت عن الخلافة العباسية بشكل أو بآخر ، والواقع أنه سواء تعـلق الأمر بهـــذا العصر أو بالعصر الذى يليه فان هـــذه الحركات الانفصـــالية ـ بالرغم من اختلافها سواء فى قياداتها أو فى دوافعها ـ قد ارتبطت فيما بينها بتسلسل الفتـــرة الزمنية والتى جعلت الدولة العباسية تتآكل حتى فنائها • وتأسيساً على ذلـك فقد عالجنا ظهور وبروز العـــديد من هـــذه الدويلات وكأنما هناك علاقة وثيقة بينها على نحو ما سبقت الاشـــارة اليه حيث تداخل الفتـــرات الزمنية : آل بويه (٣٣٤ـ٤٤٧هـ) ، ودولـــة الحمدانيين (٢٩٣ـ٤٠٢هـ) ، والدولة الغـزنوية[1] (٣٥١ـ٥٨٢هـ) ، والدولة الهبارية (٢٤٠ـ٤١٦هـ) ثم الدولة الملتانية (١٥١ـ٤٠١هـ) •

وفيما يتعلق بخلفاء هذا العصر ، فان تصاعد موجة الفتن التى طغت على جسد الدولة أصبحت بمنـــابة جرح لم يلتئم أودى بالعبـــاسيين الى الانهيـــار تماما ، فقد سبقت الاشـــارة الى تضعضع شأن الخـلافة بمقتل المقتدر ، واستخلاف أخيه أبى منصور محمد القاهربالله ، وكان محبا لسفك الدماء ، وعم الفساد ، وساءت أحوال الدولة أكثر ، وخلعه الأتراك وحبسوه الى أن مات فى سنة ٣٣٧هـ ، وخلفه أبو العبـــاس محمد الراضى بالله بن المقتدر ، وكان سياسيا حازما ، وأراد اعـــادة مجد الخلافة العبـــاسية ، وقد وصفه ابن طباطبا قائلا[2] : « ختم الخلفـــاء فى أشياء منها أنه آخر خليفة انفرد بتـــدبير المـــلك ••• وآخر خليفة وصل اليه العلماء ، وآخر خليفة كانت مراتبه ، وخدمه ، وحجابه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين » ومع ذلك فقد كان جوهر السلطة فى أيدى القادة والوزراء ، ولم يستطع منفردا تدبير أمور الدولة ، فتقسمت البلاد ، واسترجع الروم عامة الثغور ، فأفســـدوا دولتـــه ، وفرقوا كلمتـــه ، ويؤكد طلس[3] أن أمور الدولة

---

(١) لاحظ تداخل العنوات الزمنية فى هذه الدويلات وهو ما سبقت الاشـــارة اليه تفصيلا ص

(٢) ابن طباطبا ، تاريخ الفخرى ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ •

(٣) دكتور محمد اسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثانى ، ص ٨٨ نقلا عن اراد ابن دحية ، النبراس فى تاريخ بنى العباس •

قد فسدت فى عهده ، وقد تجلت مظاهر هذا الفساد فى أمور منها ، أن ابن قيلة وزيره كتب الى يحكم التركى بطمعه(٤) فى الاستيلاء على بغداد ، ومنها أنه فى سنة ٣٢٢هـ استفحلت خطورة مرداويج صاحب أصفهان ، فعـزم على ازالة الدولة العباسية ، غير أنه قتل ، ومنهـا أن أمراء الأقاليم قد قطعوا كل صلة لهم بالعاصمة ، فبـلاد فارس كانت تحت سيطرة على ابن بويه ، فى حين سيطر الحمدانيون على الموصل ، وديار بـكر ، وديار ربيعة ، ومضر ، أمام مصر والشام فقد كانت تحت سلطان ابن طغج ، وبلاد خراسان والمشرق تحت سيطرة نصر بن أحمـد السامانى ، وقد سبقت(٥) الاشارة تفصيلا الى هذه الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية .

خلف اسحاق ابراهيم المتقى بالله أخاه الراضى الذى توفى سنة ٣٢٨ ، وكان عازفا عن أمور السياسة والحكم ، فازدادت البلاد اضطرابا وفوضى وقوى نفوذ الأتراك ، والديالمة ، واستولى توزون الديلمى على العـاصمة ، فهرب الخليفـة الى الموصل ، غير أن توزون تمكن منـه وخلعه . وكان الحمدانيون قد سيطروا على الجزيرة والشام ومصر ، وخلفه أبوالقاسم عبـد الله المستكفى بن المكتفى سنة ٣٣٣هـ ، وكان الديالمة مسيطرين على الدولة ، بل ان ابن بويه قدم لاحتلال بغداد ، واستقبله الخليفة الذى لقب بمعز الدولة وأخوه المطيع بعمـاد الدولة ، وانتشر نفوذ الديالمة البويهيين فى بغداد حيث عانى سكانها من ظلمهم ، وقد تم خلع الخليفة ليحل محله عماد الدولة ، مع أن السلطة الفعلية كانت بيـد أخيه معز الدولة ، وفى أيام عمـاد الدولة رد القرامطة الحجر الأسود الى الكعبة — كما سوف يرد تفصيلا فى موضع لاحق — كما استقل كافور الاخشيدى بالشـام ومصر ، وفى سنة ٣٦٣هـ بويع ابن عمـاد الدولة بالخـلافة حيث زاد امتهان البويهيين للخليفة وخلعوه مستخلفين أبا العباس أحمد القادر بالله ، وظلت السلطة على ما هى عليه بأيدى البويهيين ، ومع ذلـك فقـد رجع للخلافة العباسية بعض رونقها ، وارتفع قدر العلم ، وتصفه(٦) المصادر بأنه آخر خليفة من بنى العباس صحب العلماء ، ورفض الدنيا ، وظهرت العرب فى عهده ، وقام الاسلام أكثر اشراقا ، وكذلك فتحت السند والهند فى عهده على يد آل سبكتكين — كما سبقت الاشارة — غير أن السلاجقة قد استولوا

---

(٤) وقد علم الخليفة الراضى لذلك فقطع يده ، ثم قطع لسانه .

(٥) راجع ص ١٨٤ — ٢٠٦ .

(٦) ابن طباطبا ، الفخرى ص ٢٥٤ .

على الخلافة ، وكانت أيام هذا الخليفة بمثابة صحوة ما قبل « موت » الدولة العباسية ، هذا الموت الذى سبقته العديد من مظاهر الوهن والضعف الذى أنهك جسد هذه الدولة لفترة طويلة من الزمن ثم الفساد الذى استشرى فى رأس هذا الجسد ، ونعنى به الخلافة ذاتهـــا والتى كان من الطبيعى أن تنهار انهيارا مزريا وخاصة فى أيام البويهيين •

ويلاحظ طلس ظهور وانتشار ظاهرة سمل عيون الخلفاء وتكحيلهم ، ويفسر سر ذلك أن من شروط الخلافة عـــدم النقص البدنى ، والعمى نقص بدنى ، فمتى سمل الخليفة أصبح غير صالح لخلافة المسلمين ، ويجب خلعه ، وكان بنى بويه ، شيعة ، زيدية ، لا يعترفون بحكم العباسيين الغاصبين من وجهة نظرهم ، فالغوا منصب الوزير ، واكتفوا بتسميته « كاتب الخليفة » وصار لهم اتخاذ القرار فى بيت المال ، وسواء تعلق الأمر بجوهر الخلافة أو شكلها ، فقد استأثر آل بويه بجميع الصلاحيات والسلطات ، بل طمعوا فى الخلافة ذاتها وقد سبقت الاشارة الى ظهور دولتهم وبروزها فى الفترة من ٣٣٤ ــ ٤٤٧هـ (٩٤٥ ــ ١٠٥٥) ، بالاضـــافة الى دولة الحمـــدانيين ٢٩٣ ــ ٤٠٢هـ ، ودولة الغـــزنويين فى الفتـــرة ٣٥١هـ ــ ١١٨٦م بمـــا شملته فلسفة هذه الدولة بعناصرها المتباينة ، وقوة أمر أصحاب العقـــائد المناهضة لمذهب الخـــلافة بدءا بالفترة بعد قتل عثمـــان وتولية على بن ابى‌طالب ومرورا بالدولة الأموية والدولة العباسية فى عهدها الأول وانتهاءا بأفول هذه الدولة وتمثلت هذه الحركات فيما عكسته الفرق الاسلامية على اختلاف مذاهبها وتوجهاتها حول الخلافة وهو ما يقتضى التعرض لهـــا فى تفصيل غير قليل •

- الفرق الاسلامية وتأثيراتها :

اشتد الخلاف بين المسلمين حول مسألة الخلافة ، وتعددت وجهات النظر عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث لم يعين من يخلفه أو يبين كيفية اختياره . وأسرع الأنصار قبل وفاته الى عقد اجتماع في سقيفة بني ساعده للتشاور في الأمر ، وحضر هذا الاجتماع أبوبكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم ، واختلفت الآراء ، رأى يقول أن تكون الخلافة من الأنصار لأن النبي صلى الله عليه وسلم عندما هاجر الى المدينة آمن به الأنصار ونصروه في حين أن قوم مكة قد آذوه ، في حين رأى فريق المهاجرين أن تكون الخلافة فيهم لأنهم من قريش ، والعرب لا تدين الا لهم ، واقترح فريق ثالث التوفيق بين الرأيين بمعنى أن يكون منهم أمير ، ومن المهاجرين أمير ، ورفض المهاجرون هذا الاقتراح وتمت بيعة أبي بكر الصديق التيمي القرشي .

لم يوافق علي بن أبي طالب - الذي لم يكن حاضرا للاجتماع - حيث كان مشغولا باعداد العدة لدفن الرسول صلى الله عليه وسلم - لم يوافق أبي بكر ، ولم يرض عنها ، ومنذ تلك اللحظة وقد تكون رأى رابع وهو أن تكون الخلافة في بيت النبي وأن عمه العباس بن عبدالمطلب ، وابن عمه ابن أبي طالب هما أولى الناس ، وأن كفة علي بن أبي طالب ترجح ، فهو أول الناس اسلاما ، وزوج فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لا يمكن انكار جهاده وعلمه ، ويفسر ابن أبي الحديد في نهج(٧) البلاغة هذا الموقف قائلا : ان عليا سأل عما حدث في سقيفة بني ساعده قائلا فماذا قالت قريش ؟ قالوا : احتجت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال علي : « احتجوا بالشجرة(٨) » ، و « أضاعوا الثمرة ! » - يعني أن يحتج بأنه وأهل بيته ، الثمرة ، وقريش الشجرة ، والثمرة غير ما في الشجرة .

---

(٧) ابن ابن الحديد ، نهج البلاغة ، الجزء الثاني .

(٨) يعني ان المهاجرين احتجوا بأنهم من شجرة النبي صلى الله عليه وسلم فأولى بالاحتجاج من يجمعهم والنبي بأنهم من ثمرة قريش ، راجع : احمد امين ، فجر الاسلام - دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٧٩ .

ويرى أحمد أمين(٩) في هذا التعبير صدقا عما في نفس على ابن أبي طالب ، وقد أيده بعض بني هاشم والزبير بن العوام وبعض الأنصار ، وكانت محصلة ذلك أن عليا(١٠) لم يبايع أبا بكر الصديق واستمرت النظرية بأولوية على في عهد أبي بكر وعمر ، غير أنها خمدت نتيجة لعدل أبي بكر وعمر وعدم اثارتهما للعصبية القبلية فضلا عن انشغال المسلمين بالفتوحات الاسلامية - على نحو ما سبقت الاشارة اليه وما سوف يتم التعرض له تفصيلا - مما جعل الناس لا يثيرون الفتن .

زاد تبرم أنصار على عندما تولى عثمان بن أبي عفان - وهو أموى - وتشجيعه للعصبية القبلية حيث بث الشعور بأنه العرب وحدة وحرك عوامل العداء القديم الجاهلى بين بنى هاشم وبنى أمية ، وانتشرت الحركات السرية في آخر عهده تدعو الى خلعه ، ومن أشهر هذه الحركات أو الجمعيات السرية عبد الله بن سبأ - وكان من يهود اليمن وأسلم والذى تنقل بين البصرة والكوفة والشام ومصر قائلا : « انه كان لكل نبى وصى ، وعلى وصى محمد ، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصيه ! » وكان عبدالله بن سبأ من أكبر الذين ألبوا عليا على عثمان حتى قتل عثمان .

بايع كثير من المسلمين عليا ، وأيده كبار المهاجرين ، وخرج عليه طلحة والزبير ومعاوية يلصقون به أن له ضلعا في قتل عثمان ، أو على أقل تقدير ان كان في استطاعته رد الناس عنه ، واحتج بعضهم أنه - وقد بويع - فقد لزم عليه الاقتصاص من قتلة عثمان . ولم تبايع طائفة من كبار الصحابة عليا كما لم تبايع غيره ولم تشترك في الجدل المثار وفضلت العزلة ومن أشهر هؤلاء الصحابة : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأسامة ابن زيد ، وسعد بن أبي وقاص ، الذى قال : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى اذا اختلف الناس أن أخرج بسيفى فأضرب به عرض أحد ، فاذا تقطع أتيت منزلى فكنت فيه لا أبرحه حتى تاتينى يد خاطئة أو منية قاضية .

---

(٩) المرجع نفسه ص ٢٥٣ .

(١٠) غير ان واقع الأحداث التاريخية يدل على ان عليا قد بايع أبا بكر ، ولكن بعد تلكؤ ، كما بايع على عمر وعثمان من بعده . ومع ذلك فان عليا كان يرى انه كان اولى بالأمر منهم .

قتل الطلحة والزبير بعد انهزامهما فى وقعة الجمل ، أما معاوية فكان أصعب مراسا اذ كان لديه جند الشام - كما سيأتى تفصيل ذلك - وكانت وقعة صفين ، ولما أحس معاوية بأن الدائرة كادت تدور عليـــه أوعز الى جنوده برفع المصاحف على رءوس الرماح ، وطلب التحكيم الى كتـاب الله - وبالرغم من هذه المقـــدمة التاريخية الموجـزة لا ترتبط بمجال هـــذه الدراسة - الا أن هذه الظروف التاريخية قد رافقها تأسيس أكبر الفـرق الاسلامية وهى الخوارج والشيعة والمرجئة ٠

١ - الخوارج

تعرض على بن أبى‌طالب لكثير من مضايقات الناس بعبارة : « لا حكم الا لله » التى سرت سير البرق من خلال تشجيع معاوية ، وكان على كلما خطب فى المسجد وجد من يقاطعه قائلا : « لا حكم الا لله » ، وخرج أناس خطب أحدهم قائلا : « أما بعد ، فوالله ما ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينيبون الى حكم القرآن ، أن تكون هذه الدنيا ... آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقول بالحق ، وان من وضر .... فاخرجوا بنا اخواننا ، من هذه القرية الظالم أهلها الى بعض كور الجبال .... » ، ثم خرجوا الى قرية قريبة من الكوفة وسموا بـ « المحكمة » - أى الذين يقولون لا حكم الا لله - وهمان اسمان يطلقان على الخوارج الذين أمروا عليهم رجلا منه اسمه عبد الله بن وهب الراسبى ، أما اسم الخوارج فقد جاء نتيجة لخروجهم على على وصحبه ، وسموا أيضا « الشراة » - بمعنى الذين باعوا أنفسهم لله » ، وقد حاربهم على فى وقعة النهروان وهزمهم ولكنه لم يتمكن من القضاء على فكرتهم ، وزادتهم الهزيمة كرها فى على حتى قلته أحدهم[١١] .

ظلت الخوارج شوكة أيضا فى جنب الدولة الأموية ، قاموا بتهديدها ومحاربتها باستمرار فى شجاعة حتى كادوا فى بعض مواقفهم القضاء على الدولة ، وانقسموا فريقين : فريق بالعراق وما حولها قرب البصرة وكانت لهم اسهاماتهم فى الفتوحات الاسلامية باستيلائهم على كرمان وبلاد فارس ، واشتهر منهم نافع بن الأزرق ، أما الفريق الثانى فكان بجزيرة العرب وهؤلاء كانت لهم أيضا اسهاماتهم فى الفتوحات الاسلامية باستيلائهم على اليمامة وحضرموت واليمن ومن أشهرهم أبو طالوت ، ولم يتمكن الأمويون من التغلب على هذين الفريقين الا بعد حروب طويلة استمرت طوال حكم الدولة الأموية .

تتلخص تعاليم الخوارج وآراؤهم فى صحة خلافة أبى‌بكر وعمر ،

---

(١١) وهو عبد الرحمن بن ملجم الخارجى . وكان زوجا لامرأة قتل كثير من أفراد أسرتها فى موقعة النهروان

وبصحة خلافة عثمان فى سنواته الأولى ، فلما تغير وجب عزله ، كما أقرت الخوارج بصحة خلافة على ولكنه أخطأ بقبوله التحكيم ، فحكموا بكفره لما حكم ، وطعنت الخوارج فى أصحاب الجمل : طلحة والزبير وعائشة ، كما حكموا بكفر أبى موسى الأشعرى ، وعمرو بن العاص • وبحث الخوارج فيمن يستحق أن يكون خليفة ومن لا يستحق ، ومن يكون مؤمنا ومن لا يكون وقاموا بتشريح أعمال(١٢) الخلفاء وأنصارهم ، وتفسير نظرية الخلافة عندهم هو وجوب أن تكون الخلافة باختيار حر من المسلمين ، واذا اختير الخليفة فلا يصح أن يتنازل ، وليس بالضرورة أن يكون قرشيا ، بل يصح أن يكون من غير قريش ولو كان عبدا حبشيا ، فاذا تم اختياره صار رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع الخليفة تماما لأمر الله سبحانه وتعالى والا وجب عزله •

ويختلف الخوارج عن الشيعة الذين يرون بانحصار الخلافة فى بيت النبى : على وآله ، واهل السنة القائلين ان الخلافة فى قريش ، وقد جعلتهم هذه النظرية – أى الخوارج – خارجين عن خلفاء بنى أمية ثم العباسيين لاعتقادهم أنهم ظالمون وغير عادلين ولا تنطبق عليهم شروط الخلافة ، واصطبغت نظرية الخوارج بالصبغة السياسية فى أول عهدهم ، وفى عهد عبد الملك بن مروان مزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث لاهوتية ، حيث قرروا أن العمل بأوامر الدين – من صلاة وصيام وصدق وعدل – جزء من الايمان ، وليس الايمان هو الاعتقاد وحده ، فمن اعتقد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو كافر •

اتسم الخوارج بالطبيعة البدوية العربية ولم يكونوا كتلة واحدة ، وكعادة البدو فسرعان ما يختلفون وينضمون تحت ولاءات مختلفة يضرب بعضهم بعضا وهى سمة ظلت لاصقة بالبدو طوال فترات التاريخ ، ولو كان الخوارج قد توحدوا لكانوا قوة لا يستهان بها ضد الدولة الأموية ، واذا ما عدنا الى نظريتهم فى الخلافة وتفسيرها ، نلاحظ أن بعضهم يرى أنه لا حاجة للأمة الى امام ، وانما يجب على الناس أن يعملوا بكتاب الله من انفسهم ، وينقل عن على رضى الله عنه قوله عندما سمعهم يقولون : «لا حكم الا لله » ، قال : كلمة حق يراد بها باطل • وتفرقت فرقهم الى

---

(١٢) راجع الشهرستانى ، الملل والنحل ، الجزء الأول ص ١٦٠ – ١٦١ •

نحو عشرين(١٣) فرقة كل منهـا تخـالف الأخرى ، ومن أشهرهم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق وكان من أكبـــر فقهائهم وقد كفر جميع المسلمين ما عداهم قائلا : « انه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحدا من غيرهم الى الصلاة اذا دعاهم اليها ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ، ولا أن يتزواجوا منهم ، ولا يتوارث الخارجى وغيره ، وهم مثل كفار العرب وعبدة الأوثان لا يقبل منهم الا الاسلام أو السيف ، ودارهم دار حرب ويحل قتل أطفالهم ونسائهم .

ومن فرق الخوارج الأخرى النجدات ، أتباع نجدة بن عامر الذى يرى أن الدين أمران : معرفة الله ومعرفة رسوله ، ثم الأباضية نسبة الى عبدالله ابن اباض التميمى ولا يزال أتباعه فى المغرب وهم غير مغالين ويختلفون عن الأزارقة المتشددين ، وقالوا ان التزاوج يحل من غيرهم ، ويتوارث الخارجى وهم يميلون الى المسالمة ، ثم فرقة « الصفرية » أتباع زياد بن الأصفر وهم يتشابهون مع الأزارقة فى آرائهم ، والفرق الأربعة السابقة هى أشهر فرق الخوارج .

وكان الحسن البصرى يوافق الخوارج فى آرائهم بخطأ على فى قبـول التحكيم ، غير أنه لا يعتنق مذهبهم . وأكثـر من اعتنق آراء الخوارج كانوا عربا بدوا ، ثم انضم اليهم بعض الموالى اعجابا بآرائهم بشأن الخلافة وخاصة أنه ليس بضرورى أن يكون الخليفة من قريش ولا من العـــرب ، ويصفهم الشهرستانى بأنهم أهل صوم وصلاة ، ويرى المبرد بأنهم فى جميع أصنافهم يبرأون من الـكذب ، غير أن اقدامهم على سفك دماء معارضيهم هو أكبـــر ما شوه حركتهم .

أخلص الخوارج لآرائهم وقاتلوا دفاعا عنها ، وربما يفسر هـذا نظرة الناس اليهم بعطف ، وروى عن على بن أبى طالب قوله : « لا تقاتلوا الخوارج بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فادركه » . وروى عن عمر بن عبدالعزيز قوله لبعض الخوارج : « انى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أو متاع ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها » أما ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد فيقول : « ليس فى الافراق — جمع

---

(١٣) راجع : الشهرستانى ، الجزء الأول ص ٢١٠ — ٢١٨ .
— البغدادى ، الفرق بين الفرق .

الجمع لفرقة ـ كلها أشد بصائر من الخوارج ، ولا أشهد اجتهادا ، ولا أوطن أنفسا على الموت ··· » ·

وللخوارج أدبهم الخاص الذى يمتاز بالقوة شعرا ونثرا ، وفصاحة فى الأسلوب ، واشتهر منهم الخطباء كأبى حمزة ، وقطرى بن الفجاءة ، ومن أشهر علمائهم فى الأدب أبو عبيدة معمر بن المثنى من البصرة ، وهو أحد الأفراد القلائل من الموالى الذين اعتنقوا مذهب الخوارج رغم كونه من أصل يهودى فارسى وكان يكره العرب ·

وفيما يتعلق بالثورة من وجهة نظر الخوارج ، فان الواجب عندهم هو « انصاء أحكام الشرع » فاذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج الى امام ولا يجب نصبه اذ لا حكم الا لله(١٤) · واتفق الخوارج على اختلاف فرقهم بوجوب الخروج على السلطان الجائر . وهذا ليس مجرد حق للفرد عندهم ، وانما هو واجب يكلف به السلطان ، ويتحتم على المسلم مقاومة الامام الجائر بالخروج عليه جهارا ولو كان هلاك الجماعة الخارجة محققا لقوة السلطان ، فواجب النهى عن المنكر الذى يكلف به المسلم يقتضى ذلك ، وربما ترجع آراء الخوارج هذه الى أنهم لم يتأثروا ـ كما تأثر غيرهم من العرب ـ بفلسفة الاغريق وثقافة الفرس ـ وقد حافظوا على شجاعة البداوة فردا كآحاد الناس يخطئ ويصيب ، فان أصاب فبها ولا وجبت مقاومته بحد السيف(١٥) ·

---

(١٤) مقدمة ابن خلدون ، الفصل السادس والعشرون ·

(١٥) راجع : دكتور محمد نصر مهنا . علوم السياسة . دراسة فى الأصول والنظريات .
[illegible] ١٩٨٨ ـ ٨٦ ـ ٨٧ ·

٢ ـ تجمع الفرق فى حركات معقدة :

تجمعت بعض الفرق بهدف تعقيد عقيدة الاسلام ، والواقع ان الخلفاء الأمويين كانوا سنيين ، يتسمون بالبساطة ، والفطرة العربية الخالصة ، ويفسر هذا مقاومتهم بشدة لأصحاب الحركات العقائدية المعقدة كالمعتزلة الذين عارضوا الأمويين باستمرار ، وكانت وجهة نظرهم تتلخص فى أحقية على بن أبىطالب فى الخلافة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام ، غير أن المعتزلة اعترفوا بشرعية الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول ، وقلدهم فى ذلك المعتدلون من الشيعة ، وبعض الخوارج ، وقد سبقت الاشارة الى تغيير فلسفة الحكم فى الدولة الأموية عن الدولة العباسية ، ففى حين عمل المعتزلة على اسقاط الدولة الأموية واحلال ذرية على بن أبىطالب مكانها ، فقد شجعت قيام الخلافة العباسية ومؤازرتها حتى عهد المتوكل ، وأيد الخلفاء العباسيون من جانبهم أفكار المعتزلة ، بل انهم بالغوا فى مناصرة آرائهم ، ومعتقداتهم ، التى أجبروا الناس على اعتناقها(١٦) ٠

كما ظهرت العديد من الحركات المعقدة والميول المنحرفة ليس عن مذهب السنة فحسب ، وانما عن الاسلام ذاته وجوهره ، ففى (راوند) بالقرب من أصفهان ظهرت الحركة الراوندية فى عهد المنصور ، وكانت تهدف الى احياء التقاليد الفارسية من دينية ، ودنيوية بشأن تقديس الملوك بل انهم زعموا أن المنصور هو الههم وهناك حركة أخرى مشابهة هى « المقنعة » نسبة الى « المقنع الخراسانى » الذى اتخذ لوجهه قناعا من ذهب ، وادعى الألوهية ، وأسقط الصوم ، والزكاة ، والحج ، ودعا الى تعاليم « مزدك » الأباحية ومبادئه التى انبثقت عنها أيضا الحركة « الخرمية » واسمها مأخوذ من « خرم ٠٠٠ دينان » ، الفارسية ، ومعناها الدين المفرح وقد مزج أصحاب هذه الحركة بين تعاليم الاسلام ، والمزدكية ، بشأن تناسخ ، واشتراكية المال والنساء ، ولعل أخطر هذه الحركات العقائدية هى البابكية التى قامت فى ايران أيام الدولة العباسية ، باعتبارها استمرارا للخرمية ٠ وهذه الحركات المستمدة أصلا من الديانات القديمة بأفكارها

---

(١٦) اعتمدنا فى صياغة افكار أصحاب هذه العقائد على التحليل القيم للدكتور محمد

الغريبة عن البيئة الاسلامية والنفس العربية كانت خراسان مهدا ، وحقلا خصبا لها ، لأنه كثيرا من سكانها أسلموا رغبة فى منافع ، أو ايثارا للسلامة من البطش ، وكانت نفوسهم مشبعة بدياناتهم القديمة المتوارثة عن أسلافهم ·

وقد سبقت الاشارة الى تمكن العباسيين بدهائهم من الوصول الى هدفهم السياسى ، وهو خلع العلويين ، وأن دعوتهم تهدف الى تسليم الأمر للرضا من (آل بيت محمد) ، والواقع أن كلمة (الرضا) ، كلمة غامضة وقد خدع بها العباسيون العلويين ، وربما يرجع أصلها الى عهد الفتنة الكبرى التى وقعت بين يزيد بن معاوية ، وعبد الله بن الزبير ، فلما مات يزيد ، وعظم أمر ابن الزبير فى الحجاز ، ومصر ، والعراق ، وبايعه الناس فقد امتنع زعيما الهاشميين ، وهما محمد بن الحنفية ، وعبد الله بن العباس عن مبايعته ، فاضطهدهما ، وسجنهما ، وعادت الفتنة من جديد فى الكوفة بظهور المختار بن أبى عبيد الثقفى الملقب بكيسان ، والذى أخذ يدعو لآل على ، فالتف حوله رؤساء الشيعة ، وجمع مؤيديه لقتال ابن الزبير ، الذى استطاع الفتك به ، لكنه لم يتمكن من القضاء على حركته التى ستظهر مستقبلا بشكل أو بآخر حيث اضطربت فى هذه الفترة أفكار الشيعة بموت ابن الحنيفة ، فمنهم من قال بغيبته مؤقتا ، ومنهم من تبع ابنه أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذى اضطر الى اللجوء الى بنى عمه من آل العباس المقيمين فى « الحميمة » بفلسطين ·

ان المتعمق فى دراسة تاريخ الدولة العباسية – ابتداءا من ظهورها وبروزها ومرورا بانحلالها وانتهاءا بسقوطها وانهيارها – يلمس استفحال هذه الأفكار(١٧) الغريبة عن الاسلام ، وخاصة ابان الحركات الانفصالية والتى سبقت الاشارة اليها تفصيلا ، فالدولة الزيدية (٢٥٠–٣٥٥هـ) أعلنت ثورتها على العباسيين حيث ثار محمد بن القاسم بن على بن عمر ابن على بن الحسين بن على فى الكوفة ، واستقطب سكان خراسان ، وهو يدعو الى (« الرضا » من آل محمد) ، غير أن محمدا بن القاسم قد حبس بسامراء سنة ٢١٩هـ ثم تمكن من الهرب ، ولا يزال الاعتقاد السائد فى أنه حى غائب ، وسوف يعود ليملأ الأرض عدلا ، ونورا ·

---

(١٧) ان هذه الحركات العقائدية فى معظمها والتى بدأت فى الظهور من عصر الدولة الأموية وتصاعدت تاثيراتها فى عهد الدولة العباسية ، لم تكن فى الواقع سوى هدم للاسلام وارجاع الملك الى الفرس وهو ما يستدل عليه مما سبق عرضه عن الراوندية والمقنعة والخرمية ·

٣ — الشيعة :

والواقع ان هذه الأفكار الشيعية كانت سابقة على هذه الفترة ، القرنين الثالث والرابع للهجرة ، وتختلف المصادر حول بداية التشيع ، ومن الثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين دون أن ينص عليها ، أو يعهد لأحد أن يخلفه ، فرأى الأنصار أنهم أولى بها ، وكذلك المهاجرين ، فى حين رأى أصحاب على بن أبىطالب أن الخلافة ميراث أدبى ، ولو كان النبى صلى الله عليه وسلم يورث فى ماله لكان أولى به قرابته • ويرى البعض أن عليا قد تباطأ فى مبايعة أبىبكر ، وعمر ، وعثمان ، غير أن هذا الرأى يجب أن يؤخذ بتحفظ ، لأن عليا ابن أبىطالب كان زاهدا فى الخلافة وفى الأمور الدنيوية برمتها ، فلم يكن على بن أبىطالب محبا للسلطة ، ومع ذلك فان هذه الآراء تستطرد فتذكر أن جمعا من الصحابة كان يرى أن عليا أفضل من أبىبكر وعمر وغيرهما ، ومن هؤلاء الصحابة عمار ، وأبو ذر الغفارى ، وسمان الفارسى ، والعباس ، وابن كعب وغيرهم •

ثم تطورات الفكرة ، فأصبح على وبنوه يعرفون بأنهم شيعة ، ثم تبع ذلك ظهور فكرة الوصية ، ولقب على بالوصى ، وتفسير ذلك — طبقا لهذه الآراء — أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالخلافة من بعده ، فعلى بن أبىطالب ليس الامام بطريق الانتخاب • وانما هو بطريق النص من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى أوصى لمن بعده ، وهكذا كل نبى وصى من قبله ، ثم انتشرت كلمة الوصى بين الشيعة واستعملوها دائما(١٨) • ثم تطور الشيعة فى تعلقهم بعلى وحبهم له ، فقالوا بعصمة الأئمة بدءا بعلى ، ومن جاء بعده ، حيث لا يصدر عنهم الا الصواب •

ويرى الشيعة خطأ أبى بكر وعمر وعثمان بقبولهم الخلافة مع علمهم بأفضلية على ، بل ان من الشيعة من وصلت بهم المغالاة الى تفسير حوادث التاريخ حسب مذهبهم ، حتى وصلوا الى القول : « هل فى على جزء الهى ،

---

(١٨) أحمد امين ، فجر الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ ص ٢٣٥

واتحد بجسده ، وبه كان يعـلم الغيب اذ أخبر عن الملاحم وصح الخبر ، وبه كان يحارب الكفار ، وله النصر والظفر ، وبه اقتلع خيبر » ، وقوله : « والله ما قلعت به خيبر بقوة جسدانية ، ولا بحركة فدائية ، ولكن قلعته بقوة ملكوتية ... » وتنقل المصادر(١٩) الحديثة قول الشيعة : « يظهـر علي في بعض الأزمان ، والرعد في صوته والبرق بسمته » . وكان عبد الله ابن سبأ أول من دعا الى تأليه علي في حيـاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي نقل الى أبي ذر الغفاري الدعاية للاشتراكية ، وهو الذي حرض الناس على عثمان بن عفان ، ووضع تعاليم لهدم الاسـلام ، فتم طرده من الـكوفة ومن البصرة ، غير أنه ذهب الى مصر ، وأعلن آراءه الهـدامة هناك ، ومنها الوصاية والرجعة ، وتعني هـذه الأخيرة أن محمدا صلى الله عليه وسلم سيرجع ، وكان مما قاله : « العجب من يصدق أن عيسى يرجع ، ويكذب أن محمدا يرجع(٢٠) » .

يروى البخاري عن ابن عباس أن عليا رضي الله عنه خرج من عنـد النبي صلى الله عليـه وسلم في وجعه الذي توفي فيه ، فقال النـاس : يا أبا الحسن ! كيف أصبح رسـول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئا ، فأخذ بيده العباس رضي الله عنه وقال : « أنت والله بعد ثلاث عبد العصا ، واني والله لأرى رسـول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفى من وجعه هـذا ، اني لأعرف وجوه بني عبدالمطلب عنـد الموت . فاذهب بنا اليه نسأله فيمن هذا الأمر ، فان كان فينا علمنـاه ، وان كان في غيرنا كلمناه فأوصى بنا . فقال علي رضي الله عنه : أما والله لئن سألنـاه فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده ، واني والله لا أسألها .

وهكذا رأى جمع من الصحابة أن عليـا أفضل من أبي بـكر وعمر وغيرهما ، وتطورت هذه الأفكار فيما بعد ، فقال شيعة علي : « ان الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الأمة ، ويتعين القائم بتعيينهم بل هي ركن الدين ، وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لنبي اغفالها ، ولا تفويضها الى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ، ويـكون معصوما من الـكبائر والصغائر .

---

(١٩) المرجع نفسه ص ٢٦٩ .

(٢٠) الدكتور أحمد قاعور ، الدكتور شحادة الناطور ، مرجع سابق نقلا عن ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، الجزء الثاني ص ١٥٤ .

يرى ابن خلدون أن عليا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤلونها بمقتضى المذهب الشيعي ، لا يعرفها أهل السنة ، بل ان آكثرها موضوع أو مطعون فيه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة • وتأسيسا على ذلك نشأت فكرة الوصية ، ولقب على بالوصي ، ومن وجهة نظرهم فان النبى صلى الله عليه وسلم قد أوصى لعلى بالخلافة من بعده ، فأصبح على وصى رسول الله . فهو – أى على – ليس اماما بطريق الانتخاب ، بل بطريق من رسول الله . وعلى أوصى لمن بعده وهكذا كل امام وصى من قبله ، وانتشرت كلمة الوصى بين الشيعة واستعملوها • واستقرت أمور منها القول بعصمة الأئمة على ومن بعده ، فلا يجوز الخطأ عليهم ، ولا يصدر منهم الا من كان صوابا ، ومنها رفع مقام على عن غيره من الصحابة حتى أبى بكر وعمر •

وظهر من الشيعة من يغالى ، ومنهم من يقتصد ، فمنهم من اقتصر على القول بأن أبا بكر وعمر وعثمان ومن شايعهم أخطأوا اذ رضوا أن يكونوا خلفاء مع علمهم بفضل على ، وأنه خير منهم ، ومنهم من تغالى فكفرهم ، وكفر من شايعهم لأنهم جحدوا « وصية » النبى صلى الله عليه وسلم ومتعوا الخلافة مستحقها ، وقام أنصار المذهب الشيعى بتأويل الوقائع تأويلا غريبا ، فلم يقنعوا بأن عليا أفضل الخلق بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، بل قاموا بتاليهه ، فمنهم من قال : « حل فى على ضوء الهى ، واتحد بجسده فيه ، وبه كان يعلم الغيب ••• ويحارب الكفار ، وله النصرة والظفر ، وبه قلع باب خيبر » •

وبهذا الخصوص قال : والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ، ولا بحركة غذائية ، ولكن قلعته بقوة ملكوتية ••• » •

وقال الذين « ألهوا » عليا أقوالا غريبة(٢١) •

---

(٢١) وقد سبقت الاشارة ان اليهودى عبد الله بن سبأ هو الذى دعا الى تأليه على وكان ذلك فى حياته ، وفى حين يذهب بعض الباحثين الى ان عبد الله بن سبأ خرافة لا وجود لها . فان آخرين ينفون ذلك ويضيفون ان عبد الله بن سبأ هو الذى حرك أبا ذرّ الغفارى للدعوة للاشتراكية ، وهو من حرض الأنصار على عثمان ، وهو الذى وضع تعاليم لهدم الاسلام ، وألف جمعية سرية لبث تعاليمه واتخذ الاسلام ستارا يتستر به نواياه الخبيثة ، وتنقل من البصرة الى الكوفة الى القاهرة حيث التف الناس حوله ونشر تعاليمه فى القاهرة حول الوصاية لتحريض أهل مصر على عثمان ، ثم الرجعة حيث زعم ان محمدا صلى الله عليه وسلم يرجع وقد سبقت الاشارة الى ذلك فى المتن •

ويحلل الأديب الاسلامي الذائع الصيت أحمد أمين هذه الوقائع متعجبا ومتسائلا ومستنكرا الأسباب التى دعت الى الاعتقاد بالوهية على ، مع أن أحدا لم يقل بالوهية محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن عليا نفسه يصرح بالاسلام وبنبهيته لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويعزى أحمد أمين المبررات السابقة في أن شيعة على قد ردوا له من المعجزات والعلم بالمغيبات الشيء الكثير ، وقالوا انه كان يعلم كل شيء ، ووضعوا على لسانه قوله :

« اسألونى قبل أن تفقدونى ، فوالذى نفسى بيده لا تسألونتى عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة الا أنبأتكم بناعقها ، وقائدها ، وسائقها ...(٢٢) » ، ورووا له أنه أخبر بقتل الحسين ، وأخبر بكربلاء ، وأخبر بالحجاج ، وأخبر بالخوارج ومصيرهم ، وبنى امية وملكهم ، وأخبر ببنى بويه وأيام دولتهم .

- انتشرت هذه الأخبار وأمثالها بين الشيعة حتى ليكادون يذكرون انه اخبر بما سيكون الى يوم الدين ، وتجدر الاشارة أن أكثرية شيعة على كانوا فى العراق الذى كان منبع الديانات المختلفة ، والمذاهب الغريبة وسادت فيهم من قبل تعاليم مانى ومزدك وابن ريصان ، ومعهم يهود ونصارى سمعوا المذاهب المختلفة فى حلول الله فى بعض الناس ، وهذه الأمور جعلت منهم من يؤله عليا ، هذا فى الوقت الذى كان العرب فيه أبعد الناس عن المذاهب الدينية ، حياتهم بسيطة ، عقليتهم التى على الفطرة ترفض لصق الألوهية بمحمد صلى الله عليه وسلم مؤمنين بما جاء فى القرآن الكريم : « انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد » .

يتضح من هذا العرض السريع أن « الامام » هو عقيدة الشيعة فى الخلافة ، وأن عليا بن أبيطالب هو الامام بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم يتسلسل الأئمة بترتيب من عند الله ، وطاعة الامام ، والاعتراف به جزء من الايمان ، والامام فى المفهوم الشيعى هو أكبر معلم ، فالامام الأول على قد ورث علوم النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو ليس شخصا عاديا ، بل هو فوق الناس لأنه معصوم من الخطأ ، وقد علم النبى صلى الله عليه وسلم عليا علم الظاهر ، وعلم الباطن ، فكان يعلم باطن القرآن وظاهره ، وأطلعه على أسرار الكون ، وخفايا المغيبات ، وكل امام ورث هذه

العلوم من بعده ، وكل امام يعلم النـاس ما يستطيعون فهمه من أسرار في وقته ، ولا يؤمنون بالعلم ولا الحديث الا اذا روى عن هؤلاء الأئمة ٠

وتعتبر فرقتا الزيدية والامامية أهم فرق الشيعة ، فالزيدية هم أتباع زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وكان زيد يرى جواز امامة المفضول مع وجود الأفضل ، وقال بأن امامة أبي بكر وعمر صحيحة على الرغم من أفضلية علي بن أبي طالب ، ورأت عقيدة الزيدية بعدم وجود امامة بالنص ،وأنه لم ينزل وصي يعين الأئمة ، بل ان كل واحد من أبناء فاطمة يجوز لـه أن يكون اماما بشرط أن يكون عالما زاهـدا شجاعا كريما ٠ وقد سبقت الاشـارة الى أن زيدا ظهـر في فتـرة حـكم الخليفة هشـام ابن عبد الملك ، وبويع بالخلافة ، فقاتل الأمويين حتى قتـل سنة ١٢١هـ ولا يزال الزيدية في اليمن حتى الوقت الحاضر ، حيث يعتبر هـذا المذهب أقرب الى أهل السنة وأكثر المذاهب الشيعية اعتـدالا ٠ أما الامامية فان أصحابها يقولون بأن النبي محمد صلى الله عليـه وسلم قد نص على خلافة علي ، وأن أبا بـكر وعمـر قد « اغتصبا » الخلافة ، غير أن الامامية فـرق تتعدد ، لا تتفق على أشخاص الأئمة ، فمنهم الاثنـا عشرية ، وسموا كذلك لايمانهم بتتـابع اثنى عشر اماما بدءا بعلي بن أبي طالب ، « المـرتضى » ومرورا بالحسن « المجتبى » ، والحسين « الشـهيد » ، وعلي زين‌العابدين « السجاد » ، ومحمد بن علي « الباقر » ، وجعفر بن محمد « الصـادق » ، وموسى بن جعفر « الكاظم » ، وعلي بن موسى « الرضا » ، ومحمد بن علي « الجواد » ، وعلي بن محمد « الهادي » ، والحسن بن علي « العسـكري » ، وانتهاءا بمحمد بن الحسن « المهدي المنتظر » ، ويطلق الباحثون على هذه الفرقة أيضا الجعفرية ، وهذه الفرقة هي الأخرى ليست من الفرق المغالية الى التعقل في أمور الدين الاسلامي ، ومن أقربها بالتالي الى أهل السنة ٠

وسواء تعلق الأمر بتعاليم الخوارج أو الشيعة ، فقد اتفقت الفرقتـان - على اختلاف توجهاتهما - على محاربة الخلفـاء الأمويين ، وكان الخوارج ظاهرين في حروبهم في حين كان الشيعة يحاربونهم سرا وجهرا حيث قال أكثرهم بالتقية أي المداراة - ويعتنقها أكثـر الشيعة - والعمل سرا ٠ ونتيجة للاضطهادات التي تعرض لها الشيعة فقـد كتموا عملهم في سرية تامة استلزمت الخداع والالتجاء الى الرموز والتأويل ، ووضع الشيعة أحاديث كثيرة في فضائل علي وفي المهدي المنتظر ، وقد سبقت الاشارة الى اشتغال بعض علمائهم بعلم الحديث وأطلق عليهم « الثقات » ، وحفظوا الأسـانيد

والواقع أن التشيع كان مأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة أو حقد ، ومن كان يريد ادخال آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية ، وقد تستر الفرس - أو على الأقل بعضهم - بالتشيع . ويقول المقريزى : « واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الاسلام أن الفرس كانت سمة الملك وعلو اليد .... وكان العرب عند الفرس أقل الأمم خطرا ... » ، وقد ذهب ولهوسن « Wellhausin » الى أن العقيدة الشيعية نبعت من اليهودية أكثر مما نبعت من الفارسية مستدلا بدور عبد الله بن سبأ وهو يهودى ، فى حين يرى « دوزى Dozy » أن التشيع أساسه فارسى لأن العرب تدين بالحرية فى حين يدين الفرس بالوراثة فى البيت المالك ولا يعرفون معنى لانتصاب الخليفة ، واعتاد الفرس أن ينظروا للملك « كاله » وقالوا : ان طاعة الامام أول واجب ، وأن طاعته اطاعة الله » ، وعموما فان أكبر الأثر فى التشيع جاء من الفرس .

وفيما يتعلق بالثورة على الحاكم فقد اختلف الشيعة جذريا مع غيرهم من الفرق فى شأن مشروعية الثورة على الخليفة ، وقد سبقت الاشارة الى قول بعضهم انه قد حل فى على جزء الهى واتحد بجسده فيه ، وبه كان يعلم الغيب .. وبه كان يحارب .

واذا كان الامام قد أصبح لدى الشيعة فوق البشر ، تحتم أن يطاع طاعة عمياء ، فليس لأحد أن يناقش ما يفعل ، أو يعترض على ما يشاء ؛ بل ان مجرد التفكير فى هذا يعد انكارا لعصمة الامام ؛ وتعديا على قداسته . وخير مثال على ذلك قول ابن هانىء الأندلسى الشيعى موجها قولة للمعز لدين الله الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار .

وتأسيسا على ذلك فان القاموس الفكرى الشيعى يخلو من عبارة مقاومة الامام ، لأنه معصوم ومن ثم فلا وجود لعبارة مقاومة الامام فى فقه الشيعة .

٤ - المرجئة :

شكلت المرجئة فى بداية تكوينها حزبا سياسيا محايدا ، ويروى ابن عساكر فى توضيح رأيهم « أنهم هم الشكاك الذين شكوا وكانوا فى المغازى ، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان ٠٠٠٠ قالوا : تركناكم وأمركم واحد ، ليس بينكم اختلاف ، وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون ، فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوما ، وكان أولى بالعدل أصحابه . وبعضكم يقول : كان على أولى بالحق وأصحابه ، كلهم ثقة وعندنا مصدق ، فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ، ولا نشهد عليهما ، ونرجىء أمرهما الى الله حتى يكون الله هو الذى يحكم بينهما(٢٣) » ٠

وتأسيسا على ما ذكره ابن عسكر فقد سموا المرجئة لأنهم يرجئون أمر هؤلاء المختلفين الذين سفكوا الدماء الى يوم القيامة ، فى حين اشتق بعضهم اسمهم من أرجأ بمعنى بعث الرجاء لقولهم : لا تضر مع الايمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ٠

وعندما كفر الخوارج عليا وقالوا بالتحكيم ، ورأت الشيعة من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان ، وكل طائفة تدعى أنها على حق وأن من عداها كافر وضال ، فى هذه الظروف نشأت المرجئة كى تسالم الجميع قائلة ان الخوارج والشيعة والأمويين مؤمنون ، فبعضهم مخطىء وبعضهم مصيب ، وليترك أمرهم جميعا الى الله ، ومنهم بنو أمية حيث يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فهم ليسوا كفارا ، بل مسلمين نرجىء أمرهم الى الله ، وربما يفسر ذلك بأن المرجئة كان موقفهم مؤيدا للأمويين ، غير أنه تأييد سلبى وليس ايجابى ٠

وكانت نواة هذه الجماعة بين الصحابة ، فجماعة منهم امتنعوا عن التورط فى النزاع فى أواخر عهد عثمان بن عفان مثل أبى بكرة ، وعبد الله ابن عمر ، وعمران بن الحصين ، وروى أبو بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشى ، والماشى فيها

خير من الساعي اليها ، ألا فاذا نزلت أو وقعت ، فمن كان له ابل فليلحق بابله ، ومن كان لـه غنم فليلحق بغنمه ، ومن كان لـه أرض فليلحق بارضه ، قال : فقال رجل : يا رسـول الله من لم تكن له ابل ولا غنم ولا أرض ؟ قال : يعمد الى سيفه فيدق على حده بحجر ، ثم لينج ان استطاع النجاة » .

تغير أسلوب المرجئة من حزب سـياسي الى البحث في أمور لاهوتية منها تحديد « الايمان » و « الكفر » والمؤمن » و « الكافر » وقد دعاهم الى البحث في هـذه الأمور أنهم رأوا الخوارج يكفرون من عداهم ، ومثلهم الشيعة ، وتغالى كل من الخوارج والشيعة ، حيث عدت الخوارج كل كبيرة كفرا ، وعدت الشـيعة الامام ركنا أساسيا من أركان الايمـان . وكان تسـاؤل المرجئة : ما الكفر وما الايمان ؟ ، ورأى كثـير منهم أن الايمـان هو المعرفة بالله ورسله ، فمن عرف أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فهو مؤمن ، وهذا رد من المرجئة على قول الخوارج : ان من آمن بالله ورسله ، وترك الفرائض وارتكب شيئا من الـكبائر فانه كافر ، في حين أنه مؤمن عند المرجئة . ورد أيضا على الشـيعة الذين يعتقدون أن الايمـان بالامام والطاعة له جزء من الايمان ، هنا فان بعض المرجئة قد تغالوا أكثر من ذلك قائلين : « ان الايمان هو الاعتقاد بالقلب ، وان أعلن الكفر بلسانه ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية في دار الاسلام ، وعبد الصلب وأعلن التثليث في دار الاسلام ، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الايمان عند الله عز وجل ، ولي لله عز وجل ، من أهل الجنة[٢٤] » .

لاحظ أحد المستشرقين أن هنـاك شيء من الغموض قد أحاط بطائفة المرجئة ، وعلل ذلك بأن الدولة العباسية قد دمرت هذه الطـائفة ، وكان أبرز شـعراء بني أميـة من قالوا بالارجاء ويتسم شعرهم[٢٥] في معظمه

---

(٢٤) ابن حزم . الجزء الرابع ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ .

(٢٥) مثـال ذلك قصيدة أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني وجاء فيها :

يـا هـدا فاسـتمعي لي ان سـيرتنا
ان نعبـد الله لم نشـرك بـه أحـدا

نـرجي الأمـور اذا كانت مشـبهة
ونصـدق القـول فيمن جـار أو عـدا =

بقولهم : انهم لا يحكمون على أحد من المسلمين بالكفر مهما أذنب ، وأن الذنب مهما عظم لا يذهب بالايمان ، وأنه لا يسفك دم أحـد من المسلمين الا دفاعا عن نفسه ، وأنه اذا اشتبهت الأمور وكفرت كل طائفة الأخرى فيما فعلت فانه يرجأ أمرهم جميعا الى الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، فى حين أن الجو البين والعناد الواضح والأعمال الظاهرة لابد أن تصدر الأحكام عليها صراحة لايضاح الخطأ من الصواب ، فالخوارج أخطأوا اذ حكموا على عثمان وعلى بالكفر ، فهما عبدان لله ، لم يشركا به منذ عرفاه ، وما بينهما لم يخرج بهما عن الايمان ، فليترك أمرهما لله سبحانه وتعالى يقدر عملهما ، ويكافىء عليه .

= المسلمون على الاسلام كلهم
والمشركون استووا فى دينهم قددا

ومن ذلك ما قاله عون بن عبد الله بن علقمة بن مسعود :
فأول ما أفارق غير شك
أفارق ما يقول المرجئونا
وقالوا مؤمن دمه حلال
وقد حرمت دماء المؤمنينا

٥ ـ القدرية والجبرية :

عندما تعمق الفلاسفة في العصور المختلفة للبحث في مسألة العقل ، فقد واجهتهم مشكلة الجبرية والاختيار : هل ارادة الانسان حرة تعمل ما تشاء وتترك ما تشاء أم أن الانسان مجبر على عمل ما يعمل فلا يستطيع عمل غيره ؟ وبمعنى أبسط : هل الإنسان مخير أو مجبر ؟ . وقد برزت هذه المشكله في الفكر الاسلامي عندما انتهى المسلمون من فتوحاتهم وظهر قوم يقولون بحرية الارادة معارضين في ذلك الأفكار الشائعة بأن الانسان مسير وليس مخير ، روى عن نافع قوله : « جاء رجل الى ابن عمر . فقال : ان فلانا يقرأ عليك السلام ، فقال ابن عمر : انه قد بلغني أنه قد أحدث التكذيب بالقدر ، فان كان قد احدث فلا تقرأ منى عليه السلام » .

سمى هؤلاء الذين يقولون بأن الانسان حر الارادة ـ أى له قدرة على أعماله ـ بـ « القدرية » . وسماهم خصومهم بذلك لحديث ورد : « القدرية مجوس هذه الأمة » وكان الذين يقولون بحرية الارادة يرون أن أولى الناس بأن يطلق عليه اسم القدرية هم الذين يقولون بأن القدر يحكم جميع أعمال الانسان من خير وشر . قال ابن نباتة في « سرح العيون » : « قيل أن أول من تكلم فى القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر ، وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى » . وكان غيلان الدمشقى يسكن دمشق ، وأبوه كان مولى لعثمان بن عفان . قال الأوزاعى : « قدم علينا غلام القدرى فى خلافة هشام بن عبدالملك ، فتكلم غيلان وكان رجلا مفوها ، ثم أكثر الناس الوقيعة فيه والسعاية بسبب رأيه فى القدر ، وأثاروا عليه هشام بن عبد الملك فأمر بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه » .

انتشرت الأقوال فى القضاء والقدر فى عصر هشام بن عبد الملك ، واشتد الجدل ، واختلف الباحثون فى منبع هذه الحركة : هل هو العراق أو الشام ؟ وذهب فريق الى أن العراق منبع ذلك واستدلوا على ذلك بأن هذه الحركة تكونت حول الحسن البصرى وكان يسكن البصرة ، ويؤيد ذلك ما رواه ابن نباتة في « سرح العيون » من أن منشأ القول فى ذلك نصرانى من العراق وأخذ عنه معبد الجنى وغيلان الدمشقى فى حين يذهب آخرون الى أن الحركة ظهرت فى دمشق متأثره بمن كان يخدم من النصارى فى بيت الخلفاء كيحيى الدمشقى ، ويؤيد الأديب والمفكر الاسلامى أحمد أمين القول بأن القضاء والقدر انتشر فى كل من العراق والشام معا ، ويسبقه فى هذا الرأى ابن تيمية الذى قال : « ان أكثر الخوض فى القدر

انبثقت فرقة أخرى من القدرية حسمت الخلاف حول هـذا الموضوع هي طائفة « الجبرية » ، وكان منهم بن صفوان رئيسها ، ومن هنا تسمى هذه الفرقة « الجهمية » حيث يقول : ان الانسـان مجبور لا اختيـار له ، ولا قدرة ، انه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل ، وأن الله قدر عليه أعمالا لابد أن تصدر منه ، وأن الله يخلق فيه الأفعال كما يخلق فى الجمـاد ، فكما يجرى الماء ، ويتحرك الهواء ، ويسقط الحجر ، فكذلك تصدر الأفعال عن الانسان يصدرها الله فيه . وتنسب الى الانسان مجازا كما تنسب الى الجمـاد ، فكما يقال : كتب محمد ، وقضى القـاضى ، وأطاع فلان ، وعصى فلان — وكلها من فعل واحد — عن طريق المجاز ، والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر ، والله قدر لفلان فعل كذا ، وقدر له أن يثاب ، وقدر على الآخر المعصية ، وقدر أن يعاقب .

اشتهر بهـذا القول جهم بن صفوان ، وهو من أهل خراسـان ، من الموالى ، وأقام بالكوفة ، وكان خطيبا جذابا ، ظهر مذهبه فى ترمذ ، وكان وزيرا للحارث بن سريج الـذى كان قد خرج على بنى أمية فى خراسـان واتبعه كثير من أهلها ، وكان يدعو الى العمل بكتاب الله وسنة رسـوله ، وقد هزم الحارث وأسر جهم بن صفوان فقتل ، ثم قتل الحارث سنة ١٢٨هـ .

قتل الجهم لأمر سياسى لا علاقة له بالدين الاسلامى ، لكنه مع ذلـك قد اشتهر بأمر لا يقل خطورة عن مسـألة الجبر ، حيث نفى أن يـكون لله سبحانه وتعالى صفات غير ذاته — وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة على صفـات الله سبحانه وتعـالى من سمع وبصر ... — ويقـول الجهم ان ما ورد فى القرآن مثل سميع وبصـير ليس على ظاهره ، بل هو مؤول لأن ظاهره يدل على التشبيه بالمخلـوق وهو مستحيل على الله ، فيجب تأويل ذلك قائلا : لا يصح وصف الله سبحانه وتعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضى التشبيه ، وأضاف : ان القرآن الكريم « مخلوق » خلقه الله ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لنفيه الصفات ، فاذا كان الله لا يتـكلم فليس القرآن كلام الله القديم الا على التأويل ، وانما خلقه الله ، كما أنكر الجهم أن الله يرى يوم القيامة قائلا : « ان الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما فيهما ، وتلذذ أهل الجنة بنعيمها ، وتألم أهل النـار بجحيمها ... » ، وبالطبع فقد قاوم كثير من علماء المسلمين حركتى الجبرية .. والمغـالاة من جانب الجهم وردوا بأن مسألة الجبر تدعو الى التعطيل وترك العمل والركون الى القدر ، وفى مسألة المغـالاة فى تأويل الآيات التى تثبت له صفات — خطر على القرآن الكريم وتفهم معانيه .

٦ - المعتـزلة :

ذابت القدرية والجهمية فى المذاهب الأخرى ، وانبثق اثر ذلك مذهب المعتزلة ، وكثيرا ما يطلق عليها القـدرية لأن أصحابها وافقوا القـدرية فى قولهم : « ان للانسـان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالهـا دون الله تعالى » ، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله تعالى وقضائه ، وأحيانا يلقب المعتزلة بالجهمية فى نفى الصفات عن الله ، وفى خلق القرآن ، وقولهم : ان الله لا يرى (بضم الياء الأولى) ، وقد ألف البخارى والامام أحمد بن حنبل كتابين فى الرد على الجهمية ، وعنيـا بهم المعتزلة . والمعتزلة يبرأون من هذين الاسمين ، فلا يرضون أن يسموا بالقدرية ، ويقولون ان مثبت القدر أولى بالانتساب اليه من نافيه .

لقب المعتزلة بهـذا الاسم لأن واصلا ، وعمرو بن عبيد اعتزلا حلقة الحسن البصرى واستقلا بأنفسهما على تأكيد الـرأى القـائل أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن مطلقا ، ولا هو كافر مطلقا ، بل هو وسط بين الاثنين ، غير أن هذا الرأى فى تسمية المعتزلة - على حد قول أحمـد أمين - يتسم بالعنف ، لأن انتقال واصل أو عمرو بن عبيد من حلقة مسجد الى أخـرى ليس بالأمر الهام لتغيير أفكار فرقة اسلامية كلية ، فضـلا عن أن الرواة اختلفوا ، فبعضهم ينسب حادثة الانفصـال الى عمرو بن عبيد ، فى حين ينسبها آخرون الى واصل . وهناك فريق ثالث ينسب هذه التسمية الى الحسن البصرى ، أما الفريق الرابع حينما يتـكلم عن شخص فانه يقول : « كان يقول بالاعتزال ، أو هو من أهل الاعتزال » ، وهـذا يدل على أن اسم الاعتزال مذهب ذو مبادىء وليس مجرد انفصـال مجلس الى آخر ، وأنه - أى الاعتزال - معنى من المعانى .

هناك رأى آخر يرى أن المعتزلة سميت كذلك « لاعتزالهم كل الأقوال المحدثة » بشأن مرتكب الكبائر ، ذلك أن المرجئة كانت ترى أنه مؤمن ، والأزارقة من الخوارج كانت تقول انه كافر ، فى حين وصفه الحسن البصرى بأنه منافق وخالف واصل بن عطاء هـذه الأقوال كلهـا قائلا : ان مرتكب الكبائر ليس مؤمنا وليس كافرا ، وذهب عبد القادر البغدادى فى كتـابه « الفـرق بين الفرق » ، ان الحسن البصرى لما طرد واصلا من مجلسه ،

ابن عبيد ، فقد قال النـاس انهما قد اعتزلا قول الأمة ، وسمى أتبـاعهما بالمعتزلة .

يقول السمعانى فى كتابه « الأنسان » : « المعتزل نسبة الى الاعتزال وهو الاجتناب ، والجماعة المعروفة بهذه العقيدة قد سموا بهـذا الاسم لأن أبا عثمان عمرو بن عبيد أحدث ما حدث من البدع ، واعتزل مجلس الحسن البصرى ومعه جماعة فاطلق عليهم « المعتزلة » .

أما المسعودى(٢٦) فيقول : « انهم سموا بالمعتزلة لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين ، فالمعتزلة — فى رأيه — هم القائلون باعتزال صاحب الـكبيرة ، وتذكر المصـادر التاريخية أن كلمـة اعتزال ومعتزلة واعتزل استعملت كثيرا فى صدر الاسلام بمعنى خاص هو أن يرى الرجل فئتين متقـاتلتين أو متنازعتين ثم هو لا يقتنع بـرأى احداهمـا ، ولا يريد أن يتورط فى النزاع بينهما سواء تعلق ذلك بعـدم تكوين رأى أو أن كلا الطرفين المتنازعين غير محق ، وهناك من المؤرخين من يربط ذلك بالقتال بين على وعائشة فى حرب الجمل . وأيضـا على الذين لم يتدخلوا فى النـزاع بين على ومعـاوية . وجاء فى تاريخ الطبـرى(٢٧) ذكر كلمة المعتزلين ، ومثله فى ابن الأثير وأبى الفداء الذى يقول : « ... وسموا هؤلاء المعتزلة لاعتزالهم بيعة على » ويعنى هذا أن كلمة « المعتزلة » أطلقت على فئة خاصة قبل مدرسة الحسن البصرى بنحو مائة عام ، وأن اطلاقهـا على مدرسة واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد كان احياءا للاسم القـديم وليس ابتكارا ، ويتردد أحمد أمين فى هذا الرأى .

وكذلك الحال بالنسـبة للـذين لم ينغمسوا فى حرب الجمـل ولـم يشتركوا فى وقعـة صفين ، حيث دار القتـال حول مسـائل سـياسية هى القصاص من قتلة عثمان واستحقاق على للخلافة وعما اذا كان معـاوية هو أولى بالخلافة من على .. فهذا الانقسام أدى الى وجود أحزاب سياسية متنافرة ولكنها مصبوغة بالصبغة الدينية ، وتأسيسا على ذلك يمكن القول أن الطائفة أو الحزب الذى أطلق عليه اسم « معتزلة » كان يمثل فى هذه الفترة فكرة سياسية مصبوغة بالدين .

والواقع أن فرقة المعتزلة كانت أجرأ الفـرق على تحليل أعمـال الصحابة ونقدهم ، بل والحكم عليهم ، ففرقة المرجئة تحاشت الحكم بتاتا ،

---

(٢٦) المسـعودى ، مروج الذهب .

(٢٧) الطبرى ، الجزء الأول .

في حين كانت أحكام الخوارج قاصرة على مسائل محدودة كالتحكيم وعلى ومعاوية ، أما المعتزلة فلهم أحكامهم على أبي بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وعمرو بن العاص ، وكانوا يتسمون بالصراحة في ابداء آرائهم ، فواصل ابن عطاء ، كما يذكر الشهرستاني : « لم يجوز قبول شهادة علي وطلحة والزبير ، وجوز أن يكون عثمان وعلى على الخطأ » وقد اعتبرت الدولة الأموية آراء المعتزلة بمثابة تأييد لها لأن نقد الخصوم ووضعهم موضع التحليل وتحكيم العقل في الحكم لهم أو عليهم قد أزال فكرة التقديس التي كانت شائعة ومع ذلك فان المعتزلة وضعوا معاوية وأصحابه موضع النقد أيضا ، بل ان أكثرهم قد تبرأ من معاوية وعمرو بن العاص .

ويصل أحمد أمين الى نتيجة مفادها وجود شبه كبير بين فئة المعتزلة الأولى - على وعائشة وطلحة والزبير ، ثم على ومعاوية - وبين فئة المعتزلة الثانية التي رأت أن الخوارج ليسوا على حق بشأن آرائهم في التكفير والحرب والقتال ، وكذلك موقف المرجئة الذي يتسم باللين والتسامح ، فالمعتزلة - من وجهة نظره - سموا كذلك لاعتزالهم قول الأمة ومع ذلك فلم يرض كثير منهم عن هذه التسمية ، وانما كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ويمكن تلخيص آرائهم في قولهم ان مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا بمؤمن لكنه فاسق يستحق النار ، وهم يقولون بالقدر وأن الله سبحانه وتعالى لا يخلق أفعال الناس ، وانما هم الذين يخلقون أعمالهم ونفى المعتزلة أن يكون لله سبحانه وتعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر ، بل الله عالم وقادر وحي وسميع وبصير بذاته وليست هناك صفات زائدة على ذاته ، وقولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، كما تعرضوا للأمور السياسية التي سبقت عصرهم قائلين ان الصحابة أنفسهم كان يخطيء بعضهم بعضا ويحارب بعضهم بعضا .

وعموما فقد نشأ الاعتزال في البصرة - كما سبقت الاشارة - وانتشر بسرعة في العراق ، واعتنق تعاليمها خلفاء بني أمية يزيد بن الوليد ومروان بن محمد ، وفي العصر العباسي تكونت مدرستان للاعتزال هما مدرسة البصرة ومدرسة بغداد ، وكان المعتزلة أسرع الفرق الاسلامية التي استفادت من الفلسفة اليونانية وصبغتها صبغة سياسية ، وهم الذين ابتكروا علم الكلام في الاسلام - علوم السياسة فيما بعد - من تنشيط حركة الجدال في المذاهب الدينية والآراء السياسية التي لها صبغة دينية بصفة خاصة وكان لها تاثير كبير في الأدب والسياسة بابحاثهم ومذاهبهم العميقة .

٧ - الاسماعيلية :

تعتبر الاسماعيلية من الفرق الشيعية ، وهي الفرقة التي قالت بامامة اسماعيل بن جعفر (الصادق) - كما ستريد الاشارة تفصيلا - ، وفي اعتقاد أصحاب هذه الفرقة - فشأنها شأن الشيعة - ان وصاية النبي صلى الله عليه وسلم كانت لعلي بن أبي طالب في غدير خم - مكان بين مكة المكرمة والمدينة المنورة - بهدف بقاء الامامة في بيت علي الى يوم القيامة ، وعقيدتها تتلخص في عبارة : « لا اله الا الله محمد رسول الله ، علي ولي الله » ، غير أن الفرق بينها وبين غيرها من الفرق الأخرى : الشيعة والزيدية والامامية ، أن الامامة تكون بالنص ، أي وجوب تعيين الامام لخلفه ، وأن الامامة في الاعقاب ، فموت اسماعيل سنة ١٤٥هـ - ٧٦٢م في حياة أبيه جعفر (الصادق) ١٤٨هـ - ٧٦٥م يجعل النص ينتقل الى ابنه محمد ، وليس لأخيه موسى (الكاظم) ، لذلك عرفت الاسماعيلية اسماعيل ، والفرق بينها وبين الامامية الاثنا عشرين من حيث ترتيب الأئمة فالاثنا عشرية لم تعترف بامامة اسماعيل وانتقلوا بالامامة من جعفر الصادق الى ابنه موسى الكاظم الى آخر الأئمة الاثنا عشرية على الترتيب ، في حين جنحت الاسماعيلية الى المغالاة بسبب ما تعرض له الشيعة من اضطهاد الأمويين ، والتنكيل بهم وتعذيبهم ، فالأمويون سجنوا كل من عرفوا بالتشيع ، ونهبوا أموالهم ، وخاصة أيام عبيد الله بن زياد ومن بعده الحجاج بن يوسف الثقفي ، ويفسر هذا سبب محاربة الشيعة أيضا للأمويين بمثل ما جوربوا به وخاصة على الصعيد الفكري ، فكلما وضع الأمويون الحديث في فضائل الصحابة عدا عليا والهاشميين وخاصة عثمان ، فان الشيعة بدورهم يضعون أحاديث كثيرة في فضائل علي وفي المهدي المنتظر .

وسواء تعلق الأمر بالدولة الأموية أو الدولة العباسية فان تبلور الأفكار الشيعية وتطورها تقتضي وقفة للتفسير :

ففي عهد الدولة العباسية فان ظهور الحركة الشيعية الاسماعيلية قد جاء نتيجة للانهيار الذي لحق بهذه الدولة في الفترة من ٢٣٢ - ٣٢٠هـ بعد ان أصابها الضعف والانحلال على نحو ما سبقت الاشارة اليه تفصيلا ، وكانت من نتيجته أيضا ظهور العديد من الدويلات التي انفصلت عن الخلافة المركزية أو كادت ، بالاضافة - وهذا هو الأهم - الى « العقائد »

المخالفة لمذهب الخـلافة ، ومن أهمهـا الاسماعيلية التى كانت قد بدأت فى الظهور فى أوائل القرن الثانى للهجرة ، ثم تعاظمت فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ٠

لم يعط العباسيون الفرصة - لآل على - للوصول الى حقوقهم بشـأن الخلافة بعـد أن انهارت الدولة الأموية ، وفشلت العناصر غير العـربية فى عهد الدولة العباسية فى اعادة نفوذها التـاريخى بالـرغم من مؤازرتها للدولة الجديدة التى خيبت ظنونها بشأن استعادة تقاليدها ، وأعرافها منذ قبيل الاسلام ، وقد أدى هـذا الشعور من جانب العناصر غير العربية الى نتيجة عكسية تماما ، فبدلا من استعادها لنفوذها بوسائل القوة والعنف ، فانها قويت أكثر فى مجالات الترجمة ، والتدوين ، واحيـاء الحضارات والعقائد القديمة ، وبذلـك فقد أشبعت من غرورها القومى لا سيما تلك الحركة الفكرية التى سادت - مخالفة بذلك روح الاسلام الحقيقية - بانتشار مناقشات الفلسفتين اليونانية ، والسريانية ، والأعراف الفارسية وغيرها مما كان له تأثيره السلبى على العامة من الشعوب الاسلامية ، الأمر الذى جعل الخلافة تحاسبهم ، وتتـدخل عمليـا لتمد من الانحرافات ، والزندقة من مذهب أهل السنة والجماعة ٠

كذلك كان للعوامل الاقتصادية والاجتماعية هى الأخرى تأثيراتها فى ظهور حركة الاسماعيلية حيث تحول المجتمع الاسـلامى من البدائية فى أسلوب الزراعة وعلاقات الانتـاج ، الى مرحلة متقدمة ومعقدة فى الزراعة والتجارة ، ووجود طبقة أرستقراطية غنية من العرب أو الموالى ، الأمر الذى خلق شعورا بالمرارة بين الطبقات الفقيرة ، وعرفت لأول مرة فى التـاريخ الاسلامى ما اصطلح على تسميته بجماعات المصـالح التى كونها الأغنيـاء لحمـاية مصـالحهم ، وفى مواجهتهم تكونت جمـاعات الضغط من طبقات الفقراء والمتذمرين من البؤس المحيط بهم تجاه تكتلات الأغنياء ، وكان هذا سببا فى تعقد الحيـاة الاقتصـادية ، والاجتماعية ، بل وظهور المغـالاة بمظاهرها التى فاقت كل القيم الاسـلامية ، وانعكست بشـدة على البيئة الاسلامية ٠ فبرزت فئة تذرعت بقيـام حركة سترتها بمقولة « الانتصار لحق على » ، واتخذت من الكوفة مقرا لها ، باعتبارها مركز فكرى وسياسى للثقـافات القديمة فضـلا عن كونهـا مقـر أئمة علويين بارزين التصقت بأسمائهم هذه الحركات منـذ فترة والذين انقسموا فى الأعم الى فـريق الحنفية وفريق الحسن والحسين ٠

تنسب « الحنفية » الى الإمام محمد بن الامام علي رضي الله عنه ، وقد عرف الإمام محمد بابن الحنفية ، وتذكر بعض المصادر أن المختار الثقفي حين قام بحركته الثورية في الكوفة سنة ٦٦هـ (٦٨٥م) ادعى أن ابن الحنفية هو « المهدى المنتظر » ، وبالرغم من القضاء على المختار الثقفي . وموت ابن الحنفية ، فقد انتشرت الحركة الشيعية المهدية الحنفية ، وانقسم أنصارها الى فرقتين ، ورأت الفرقة الأولى أن الامام محمد لم يمت ، بل اختفى ، وأنه سيعود ويملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا . في حين قالت الفرقة الثانية انه قد عهد الى ابنه أبى هاشم الأمر من بعده ، وانقسم هؤلاء بدورهم الى فريقين ، الأول يقول أن أبا هاشم أوصى الى أخيه على ابن محمد ، وأن عليا هذا أوصى بالامامة الى بنى العباس ، في حين رأى الفريق الثاني أن أبا هاشم أوصى الى عبد الله بن معاوية من آل على . وفى تقويم الحركة الحنفية عموما ، فيمكن القول أنها اختفت وكذا أنصارها بعد سيطرة العباسيين على مقاليد الأمور وتقيدوا تماما على الحركة وأنصارها على نحو ما سبقت الاشارة اليه .

أما فريق الامامين الحسن ، والحسين ابنا الامام على بن أبى طالب فقد لقبا بالحسنية — الحسينية ، وقد ثار من ذرتيهما جماعات على الخلافة منهم : زيد بن على المعروف بزين العابدين ، وولداه يحيى وعيسى من أئمة الفرقة الزيدية في اليمن ، ومنهم محمد بن على بن زين العابدين ، الذى نادى بنفسه اماما ، وتبعته جماعات منهم أبو منصور العجلى زعيم الفرقة المنصورية التى قتله يوسف ابن عمر الثقفى سنة ١٢٥هـ ولما مات الباقر انتشر أتباعه ، وذاع صيتهم ، ومنهم محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على المعروف بذى النفس الذكية وقد سبقت الاشارة أنه أعلن عن نفسه أنه المهدى ، ولما مات ادعى أنصاره أنه قد غاب وسيعود ، وقد كذب الامام جعفر الصادق هذه الادعاءات وأن الامامة له وخلفه ، وكان من أبرز أتباعه محمد بن أبى الخطاب ، مؤسس الفرقة الخطابية ، والتى تعتبر أبرز الحركات الباطنية ، حيث كانت المغالاة في الدعوة سمة قوية في هذه الفرقة التى وصل الأمر بها أن اعتبرت جعفر الصادق اله ، ونبى ، فأحل المحارم ، وقال بالتقية ، وأن الجنة والنار ، والصوم والصلاة ما هي الا أسماء رجال يتأعينهم ، وهو صاحب نظرية « النور » و « التناسخ » ولما قتل محمد ابن أبى الخطاب سنة ١٣٨هـ ، تحول أصحابه الى محمد بن اسماعيل

ابن جعفر الصادق ، ويذكر الشهرستاني(٢٨) أن جعفر الصادق تبرأ من أبي الخطاب ومن ابنه ، وبموت جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ انقسم أصحابه الى ثلاث فرق : الأولى فرقة النادوسية التي زعمت أنه لم يمت وسوف يرجع ، أما الفرقة الثانية فهي الاثنا عشرية وهم أتباع ابنه موسى الكاظم ، وهم المعتدلون من هذه الفرقة ، في حين شكلت فرقة الاسماعيلية الفرقة الثالثة وأصحابها هم القائلون بامامة اسماعيل بن موسى الكاظم ثم ابنه محمد من بعده .

غير أن المصادر السنية والاثنا عشرية قد نظرت باستخفاف الى اسماعيل لأنه لم يكن من وجهة نظرهم على جانب من الاستقامة(٢٩) ، في حين رفعته الباطنية الى مرتبة الألوهية وقالت ان خليفته من بعده هو ميمون القداح ، ثم اختلفت المصادر السنية ، والشيعية ، والباطنية أيضا في أمر خليفته ميمون وابنه عبدالله(٣٠) .

فقد قالت المصادر السنية ان ميمون القداح من أصحاب العقائد التي تكيد للاسلام ، وأنه استخلف ابنه عبد الله ، وكان واسع الاطلاع على الأديان ، برعا في الدسائس ، وقد ادعى النبوة ، واستعمل كافة الذرائع والمبررات لتحقيق غاياته الهدامة ، والبعيدة عن جوهر الاسلام بهدف هدمه ، وان كان ظاهريا يدعو الى مذهب محمد بن اسماعيل . أما المصادر الشيعية فنفت عن ميمون هذه الصفات وذكرت أنه سواء تعلق به ، أو بابنه فقد كانا سويا من المحدثين الثقات ، والمجتهدين ، في حين لم تفصح المصادر الشيعية عن حقيقة أوضاع ميمون أو رواية جعفر ، وان كان الباحث(٣١) قد يمكنه الحصول من ثنايا الكتب السنية ، والدرزية

---

(٢٨) الشهرستاني ، مصدر سابق ص ١٣٦ ، وراجع أيضا - ابن حزم : أبو محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسي ، المتوفى سنة ٤٥٦ ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ١٤٩١ هـ/١٩٧١ ، الجزء الثاني ص ١١٢ .

(٢٩) اعتمدنا في هذا الجزء من الدراسة على دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثاني ص ٤٤ - ٥٥ والذي اعتمد بدوره على : الطبري ، الجزء الثالث ص ١٥٤ والجزء التاسع ص ٢٥٠ .

(٣٠) ابن النديم ، الفهرست ص ١٨٥ - ١٨٧ .

- البغدادي . الفرق بين الفرق ، مصدر سابق .

(٣١) دكتور محمد أسعد طلس ، م.س.ذ ص ٤٩ .

أن محمد بن اسماعيل هو الناطق السابع ، وأن ميمون القداح هو أساسه ، وأن الروايات - مع ذلك - قد اختلفت فى أمر هذا الأخير .

وربما يفسر ذلك فئة العارفين عن العقيدة الاسماعيلية المستورة ، والخفية ، ومع ذلك يمكن القول بقدر معقول من الثقة أنها مذهب شمولى فى العقيدة ، يتسم بالتسامح ، لا يعادى ولا يحارب العقائد الأخرى المناهضة للاسلام من مزدكية ، ومانوية ، وصابئية ، ونصرانية ، ويهودية. كذلك فان مذهب الاسماعيلية يعتبر مذهبا اشتراكيا فى الأموال ، لكنه مذهب باطنى بمعنى ان لكل ظاهر عند أصحابه باطنا مستورا ، ولكل تنزيل تأويلا ، وأنه توجد معانى باطنية مستورة فى الكتاب والسنة قياسا على جميع ما استعبد الله به عباده ، غير أن هذا الباطن لا يعرفه الا الأئمة المعصومون ، وهم يقسمون تاريخ البشرية الى حلقات بنوة سبعة ، وتفسير ذلك أن العقل الكلى يتجسد بين حين وآخر فى شخص معين يعرف بالنبى الناطق ويخلفه سبعة أئمة يعرف كل منهم بالصامت ، وأن نظام التطور الكونى بهذا المعنى يستلزم أن كل نبى هو الذى يعلم الناس الحقائق الروحية ، وأن آخر حلقة نبوة هى حلقة محمد بن اسماعيل وهو خاتم الأنبياء .

والأئمة عند الاسماعيلية لا يكونون ظاهرين ، فهم مستترون غير أن منهم من يظهر ، وتقع سلسلة الأئمة المستترين بين « محمد بن اسماعيل » وبين « الأئمة الفاطميين » ، ولكن لابد من وجود دعاة ظاهرين يدعون ويبشرون بظهور الامام المستور ، والأئمة المستورون صنفان ، الأول ينتمون جسمانيا الى أبناء على ، فى حين أن الصنف الثانى هم الروحانيون ، وقد قسم المستشرق البريطانى برنارد لويس(٣٢) شجرة الاسماعيلية بين العلويين (المستقرين) ، والقداحين (المستودعين) ، ويبدأ العلويون بمحمد بن اسماعيل ، فأحمد ، فالحسين ، فعلى (المعلى) ، فمحمد (القائم) ، فى حين يبدأ القداحون (المستودعون) بميمون ، فعبد الله ، فمحمد ، فالحسين ، فأحمد ، فسعيد . غير أن مستشرقا آخر يفند هذه الأفكار ،

---

(٣٢) المرجع نفسه نقلا عن برنارد لويس Lewis Bernard, The Origine of Ismailism, Cambridge. 1940 الاسماعلية ، الترجمة العربية ص ١٦٢ .

(٣٣) راجع فى تفصيل ذلك :

Ivanov : A Gide to Ismaili Culterative, London 1933

Ivanov : The Rise of the Fatimide, Calecutta, 1942.

في حين يناقشها باستفاضة أحد المؤرخين(٣٤) المسلمين المحدثين ٠

أما المؤرخ الاسلامي الذائع الصيت عبد القادر بن طاهر بن محمد التميمي البغدادي ٠ فانه يذكر في مؤلفه القيم الفرق بين الفرق أن زعماء الباطنية يرون أن الاله قد خلق النفس ، فالاله هو الأول ، والنفس هي الثاني ، والاله والنفس هما مدبرا هذا العالم ، وربما يمكن تسميتهما بالعقل والنفس ، ويضيف البغدادي قائلا : ان هذا القول بعينه هو قول المجوس ، وأن الباطنية قد عبرت عن الصانعين بالأول ، والثاني ، وعبر المجوس عنهما بيزدان واهرمن ٠

ويرى اخوان الصفا - وهم شيعيون باطنيون - طبقا لما رواه البغدادي أن الفلاسفة هو ما يعولون عليه ، في حين يقول الشهرستاني ان الباطنية القديمة خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج ، ويقول دوزي : « ان ميمون مؤسس التعاليم الباطنية والاسماعيلية ، كان يبحث في أنصاره بين الثنوية والوثنيين ، وتلاميذ الفلسفة اليونانية وأن الأئمة ، والأديان ٠ والأخلاق ليست سوى ضلالا ، وأن العامة ليسوا أهلا لفهم هذه المبادىء ، إلا أنه كان يستعين بهم ، ولا يصدمهم ، وكان دعاته يظهرون في أثواب مختلفة ، ويحادثون كل طبقة باللغة التي يفهمونها ٠

ومن الثابت أن اخوان الصفا قد ظهروا في القرن الرابع للهجرة ، وكان منهم - كما حدث أبوحيان التوحيدي - زيد بن رفاعة وأبو سليمان محمد بن معشر البستي المعروف بالمقدسي ، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، والعوفي ، وغيرهم ، وكانت هذه الجماعة قد تصافت بالصداقة ووضعوا مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله ذلك أنهم قالوا ان الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلال ولا سبيل الى غسلها الا بالفلسفة ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ، فقد حصل الكمال - وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها . وأفردوا لها فهرسنا ، وسموها رسائل اخوان الصفا ٠ وكتموا فيها أسماءهم ، وبنوها في الوراقين ، ووهبوها للناس ٠

والواقع ان المصادر تختلف عند التعرض لفكر اخوان الصفا ، فبعض

---

(٣٤) المرجع نفسه نقلا عن الدكتور عبد العزيز الدوري ، دراسات عن العصور العباسية المتأخرة . بغداد ، بدون تاريخ اصدار ص ١٤١ - ١٤٤ ٠

هذه المصادر ترى أنهم شيعة اسماعيلية ..وبعضها الآخر ترى أنهم ليسوا شيعة اسماعيلية ٠

وعموما فان المتتبع لحركة الاسماعيلية ، وتطورها ، ليلمس حسن تنظيمها ، وقوة الدعاية لها ، وقد تظاهر دعاتها بانتمائهم الى احدى المهن ، فاذا ما شعروا بالطمأنينة والطاعة والزهد فى الدنيا والتقوى فيمن أمامهم ، فانهم يحدثونهم عن آل الرسول وما تعرضوا اليه من مظالم مستغلين عواطفهم الجياشة حتى يعتنقوا عقيدتهم ، ويشمل ذلك أيضا النصارى والصابئين واليهود ، ويذكر ابن النديم(٣٥) فى الفهرست أن دعاة الاسماعيلية قد قسموا كتبهم درجات ، فكتاب البلاغ الأول للعامة ، وكتاب البلاغ الثانى لنفر أفضل من العامة قليلا ، والبلاغ الثالث لمن دخل المذهب سنة ، والرابع لمن دخل المذهب سنتين ، والخامس لمن دخله ثلاث سنوات ، والسادس لمن دخله أربع سنوات ، أما الكتاب السابع فيحتوى على نتيجة مذهب الاسماعيلية والكشف الأكبر ، ويضيف البغدادى(٣٦) فى الفرق بين الفرق قائلا : انهم – أى الاسماعيلية – قد اضطروا بمرور الزمن الى جعل درجاتهم تسعا بدلا من سبعة ، تسهيلا للدعوة ، وتقريبا للأذهان ٠ ٠

---

(٣٥) ابن النديم ، الفهرست ص ٢٦٥ – ٢٦٨ ٠

(٣٦) البغدادى ، الفرق بين الفرق ص ٨٤٨٤ وراجع بتفصيل آراء هؤلاء الدعاة فى -
دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثانى ص ٥٣ – ٥٥ ٠

الشجـــرة العلـــوية

الائمة الاثنى عشر

(١) أمير المؤمنين الامام على بن ابى طالب (٦٣ هـ / ٦٨٢ م)

(٢) الحسن بن على ٥٠ هـ / ٦٦٩ م

(٣) الحسين بن على ٦١ هـ / ٦٨٠ م

(٤) على زين العابدين نحو سنة ٩٥ هـ / ٧١٦ م

(٥) محمد الباقر ١١٤ هـ / ٧٣١ م

زيد

(٦) جعفر الصادق ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م

(٧) موسى الكاظم ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م

اسماعيل ١٤٣ هـ / ٧٦٠ م

(٨) على الرضا ٢٠٢ هـ / ٨١٨ م

(٩) محمد الجواد ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م

(١٠) على الهادى ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م

(١١) الحسن العسكرى ٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م

(١٢) محمد المهدى المنتظر اختفى ٢٢٨ هـ / ٨٧٨ م

٨ ـ القـــرامطة :

تختلف المصادر حول نشأة حركة القرامطة وتطورها ، فهنـاك رواية تذكر أنه بعد وفاة عبدالله بن ميمون ، فقد قام ابنه أحمد بالأمر من بعده ، وبعث بالحسين الأهوازى الى الكوفة ، وفى طريقه شخصا اسمه حمــدان « قرمط » لمذهبه ، فاستجاب ، وأنزل الحسين فى داره ، وأخذ الحسين يدعو الناس ، فاستجاب له أهل المنطقة ، ولما حضرته الوفاة عهد بالأمر من بعـــده الى حمدان ، أما الرواية الأخرى فتذكر أن رجلا متعبـــدا من أهل الأهواز قدم الكوفة ، وأخذ يدعو لآل علىّ ، فأجابه كثيرون ، ورتب للدعوة اثنى عشر نقيبا ، وفرض على أتباعه خمسين صلاة بدل خمس ثم رحل الى الشـــام ، ونزل فى سلمية ، واستخلف حمدان قرمط . وفى الروايتين السابقتين يمكن الوصول الى نتيجة مفادها أن الأهوازى قد تمكن من نشر دعوته فى الكوفة ، وعند وفاته ، عهد بالأمر الى حمدان الملقب بقرمط .

وكلمـــة قرمط واليهـا ترجع كلمـة القرامطة ، هى كلمـة اختلفت الأقوال(٣٧) فيها ، فبالباحثون العرب يرون أن هذه الكلمة عربية فى حين يراها المستشرقون غير عربية بل ويختلفون فى مصدرها ، ولعل فى اختلاف آراء الباحثين حول حقيقة هذه الكلمة ونسب القـرامطة ما يوضح غموض نشأة هذه الفـرقة ، وهو ما يـكاد يجمع عليه الشهرستانى ، والبغدادى ، وابن حزم ، أما المؤرخ المسلم أبو عبدالله بن رزام (أو زرام) ، وهو مؤلف سنى عاش فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، فقد نقل عنه فى مؤلفاته عن العقائد الاسلامية أن حركة القـرامطة وحركة الاسماعيلية هما من معـدن

---

(٣٧) يفسر البغدادى فى الفرق بين الفرق قول العرب قرمّط الرجل فى مشيه اذا قارب الخطوات . ويتفق معه النديم فى الفهرست ص ١١٧ فى حين يرى المستشرق ايفانوف ان كلمه القرامطة كلمة عراقية جنوبية . وأنها ماخوذة من « كرامته » أو « كرمونه » ، وأنها عرب . فقبل قرمـط ومعناها الفـلاح أو القروى ، أما بروكلمان فيرى أنها كلمة آرامية ، ومعناها « يعلـم » سرى . فى حين يذكر دى ســاس فى مقدمة كتابه عن الدروز وعلتهم ان لفـظ « قرامطة » هى لفظة نبطية ، وان « كرميته » معناها الأحمر الأعتين لأن حمران قرمط كان نبطيا من أهل السواد . راجع : دكتور محمد أسعد طلس ، م.س.ذ

I--anov : A Gide to Ismaili Culterative, op. cit. pp. 68-70.

ـ كارل بروكلمان : ترجمة نتبه فارس ومنير البعلبكى ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، الجزء الثانى ص ٧٣٠ .

واحد وأن ميمونا القداح ، وابنه عبدالله اللذين سبقت الاشارة اليهما، عند استعراض حركة الاسماعيلية . هما اللذان ديا دورا هاما فى خلق مذهب القرامطة ، فعندما سار عبد الله بن ميمون القداح الى البصرة قادما من الأهواز أخذ يدعو لمحمد بن اسماعيل ، وكان معه رجل يدعى حسين الأهوازى ، ولما طارده العباسيون ، فر الى « سلمية » ، واتخذها مقرا له ، وبعث بدعاته الى العراق ، فاجابه رجل من سكان « الطالقان » فى سنة ٢٦١هـ يدعى حمدان بن الأشعث ، ويلقب بقرمط ، حيث قوى أمر قرمط ، وذاع صيته ، واستقطب الكثيرين حوله ، ومنهم سعيد الحسن ابن بهرام الجنابى بالبحرين والذى قام مذهب القرامطة على يديه وصارت البحرين مقر الدعوة ومركزها .

أما الطبرى وابن النديم فيصفان أسلوب حمدان قرمط بالمهارة والذكاء والفطنة فى دعوته لحركته ، كما وفق الى معاونين يتسمون بالنشاط ساعدوا كثيرا فى نشر هذه « الدعوة » بل ان منهم من ألف كتبا فقهية مثل الفقيه عبدان(٣٨) ، وأبو سعيد الجنابى الذى أشرف على الحركة فى ايران ، ونجح فى استقطاب سكان ايران وعبدان الى جانبه حينما طالب بحقوق الحسين ، ثم وضع الأسس المنظمة للدعوة وخاصة من ناحية التمويل ، ففرض ضريبة أطلق عليها ضريبة « الفطر » ، ثم ضريبة « الهجرة » وضريبة « البلغة » ، ومن الغريب أن أتباعه قد زاد عددهم وخاصة من الأنباط ، والفلاحين ، والصناع ، والبدو ، ولما قوى سلطانهم أخذ يبث فيهم روح الثورة على جميع من يخالفهم فى العقيدة ، وأباح الحرمات ، وأسقط عنهم الفروض الشرعية ، واستطاع بدعوته الى الاشتراكية فى المال أن يستميل أتباعا أكثر من الفقراء الذين خدعوا وحملوا السلاح فى وجه الدولة العباسية سنة ٢٨٤هـ حيث فشلت جهود الخليفة العباسى فى قمعها لأنها كانت قد استقطبت الكثيرين فى بغداد ذاتها وأصبحوا من أنصار الحركة ومؤيديها كما يقول(٣٩) ابن الأثير . وفى سنة ٢٨٧هـ قام القرامطة بتمرد مسلح فى المنطقة الواقعة بين واسط والكوفة ، ويذكر الطبرى(٤٠) أن القرامطة قتلوا الكثيرين من المسلمين ، وأحرقوا منازلهم ، وجاء رد فعل الخليفة العباسى المعتضد عنيفا ، حيث بعث اليهم سنة ٢٨٨هـ بجيش تغلب

---

(٣٨) ابن النديم ، الفهرست ص ٢٦٤ - ٢٦٩ .

(٣٩) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الثامن ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٤٠) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الحادى عشر ص ٣٣٥ - ٣٦٨ .

على القرامطة وأسر قادتهم ، وقد شرح كل من ابن الأثير والمسعودي هــذه الوقعات وصولا الى سنة ٣١٦هـ حيث سار جيش القرامطة بقيادة أبو طاهر سلمان بن أبي سعيد الجنابي الى البصرة وفتك بأهلهـا ، ونهب المدينة ، وسار في طرق الحج فأسر عددا كبيرا من الحجـاج ، ثم توجه الى البصرة ، والكوفة وفتك بأهلها ، وقهر جيش الخليفة ، وبلغت أخبـاره بغداد حيث خشى أهلها قسوة القرامطة وفظـاعة جرائمهم لـكن أبا طاهر سيطر على الأنبار والجزيرة ودخل قسم كبير من سكانها في نحلته(٣١) ٠

وفي سنة ٣١٧هـ ســار أبو طاهر بجيشه الى مـكة فنهب الحجـاج واقتلع الحجر الأسود وملأ المسجد الحرام بالقتلى ، وغضب العالم الاسلامي ، غير أن أبا طاهر لم يعبأ بهذه الاحتجاجات وصيحات الاستنكار ، وظل على فساده حتى مات ودفن بالكوفة ، وبقي الحجر الأسود بعيدا عن مكة قرابة ثلاثين سنة في عاصمة القرامطة بالاحساء ٠

وفي الشـــام ، يذكر المؤرخون اسم القرامطة لأول مرة سنة ٢٩١هـ حيث تمكن زكريا بن المهدي الكوفي — وهو أحد دعـاة قرمط — من اغواء بني كله ، فأجابه بعض بطونها الى اعتناق المذهب ، وبايعوا يحيى بن زكريا ابن المهدي الكوفي الذي زعم أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق ، وسار بأصحابه الى الرصافة فأحرقوا مسجدها وفتكوا بمعظم أهلها ، ثم دخلوا الشام وهزموا جيش أحمد بن طولون ، وحاصروا دمشق ، ويذكر الطبري(٤٢) أن أمرهم قد اشتد في الشـــام في حين أخذ نفوذهم ينحسر عن العـراق ، حيث أعلن حمدان قرمط انفصاله عن حركة القداحي في سلمية لأن ابن القداحي وهو حسين لا يدعو لمحمد بن اسماعيل ابن جعفر صاحب الزمان ، وانما يدعو لأبيه عبد الله القداح ، وأدرك حمدان قرمط أن القداحين قد خدعوه ، فقطع صلته بهم ، وانفصل عنهم وتلى ذلك اختفاء حمدان ذاته كما تذكر المصادر(٤٣) ٠

---

(٤١) دكتور محمد أسعد طلس ص ٥٩ — ٦١ ٠

(٤٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الحادي عشر ص ٣٧٧ — ٣٧٨ ٠

(٤٣) دكتور محمد أسعد طلس ص ٦٢ نقلا عن :

De Goge, Memoire sur les Carmathes de Bahrain, Leiden 1882 pp. 66-68.

ترتب على الخلاف الذى وقع بين قيادات حركة القرامطة ، أن فقدت الحركة كثيرا من حيويتها ونشاطها . وانتقلت زعامتها الى الشام بقيادة زكريا بن المهدى . الذى نلقبه المصادر بزكرويه ، وبموته خلفه أبناؤه يحيى ، وأبو القاسم محمد . وأبو العباس الحسين ، وأبو الفضل محمد الأصفر . وكانت الزعامة ليحيى الذى ادعى أنه من نسل الامام محمد ابن اسماعيل ، وأنه صاحب المعجزات ، ويذكر الطبرى(٤٤) أنه استغوى الأعراب بحيله وأن أمر القرامطة قد قوى فى عهده . ولما مات خلفه أخوه الحسين الذى ادعى هو الآخر أنه المهدى المنتظر ، واشتدت سيطرته على الشام ، فبعث اليه الخليفة العباسى المكتفى سنة ٢٩٠هـ بجيش ودارت وقعات قرب حلب . توجه بعدها الحسين الى دمشق فصالحه أهلها على خراج يدفعونه له ، ثم دخل حمص ، وحماة ، والمعرة ، وسلمية التى كانت مقر القداحين وفتك بأهلها ، ولما ضاق أهل الشام به استنجدوا بالخليفة العباسى فى بغداد ، فبعث اليهم بجيش كبير التقى بجيش القرامطة فى المنطقة الواقعة بين حماة وسلمية ، فتفرق القرامطة وقتل قائد جيشهم ، غير أن الجيش تجمع ثانية وأغار على مدن الشام . وعاث فى فلسطين فسادا ، ثم دخل الصحراء(٤٥) بعد اضمحلال نفوذه فى الشام ، وأخذت الحركة تضعف شيئا فشيئا . ويجمل طلس(٤٦) أفكار هذه الحركة وتطبيقاتها فى تنظيمها لأحوال الفلاحين ، وأرباب الصناعات الصغيرة ، وتآمرها على الدين الاسلامى وتقاليده ، والانعتاق من فكرة النبوات ، ونشر الفلسفة المانوية ، واليونانية وما اليها ، والاكتفاء بفكرة الامام المستتر وهو ما يمكن استخلاصه مما سبقت دراسته فى رسائل اخوان الصفا ، وبايجاز فان حركة القرامطة قد قامت فى بيئة معينة ، لها ظروفها الخاصة ، كذلك كان للدوافع الاقتصادية ، والاجتماعية أثرها فى قيام هذه الحركة وانتشارها ويمكن تلمس ذلك من خلال المبادىء « الاشتراكية » التى طبقتها على الفقراء مما جعل الكثيرين منهم ينضوون تحتها بتأثير دعاياتها .

---

(٤٤) الطبرى . الجزء الحادى عشر ص ٣٨٠ .

(٤٥) دكتور محمد أسعد طلس ص ٦٢ .

(٤٦) المرجع نفسه ص ٦٣ .

- الفرق الاسلامية فى بلاد السند والبنجاب :

سبقت الاشارة لتطور نشأة الفرق الاسلامية حيث كان الخلاف بين المسلمين حول الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وانقسامهم الى رأيين : الأنصار يرون أن يكون الخليفة منهم فى حين رأى المهاجرون أنهم أولى بالخلافة وتمت البيعة أخيرا لأبى بكر الصديق فى عدم حضور على ابن أبى طالب الذى تأثر فى عدم اشتراكه فى المناقشة ، وتكون رأى ثالث هو أن تكون الخلافة فى بيت النبى صلى الله عليه وسلم . وظلت هذه النظريات تتعارض فيما بينها فى العصور المختلفة ، ولكن عدل أبى بكر وعمر جعلها تخمد ولم تثر العصبية القبلية فى عهدهما وصولا الى عهد عثمان بن عفان وهو أموى استعان بالأمويين وكان أكثر معاونيه منهم . وبعد قتله بايع كثير من المسلمين عليا غير أن بعض الصحابة الكبار خرج عن هذه المبايعة مثل طلحة والزبير ومعاوية بن أبى سفيان والصقوا تهمة أن لعلى بن أبى طالب ضلعا فى قتل عثمان ، وشهدت العصور التالية تأسيس فرق اسلامية كبرى هى الشيعة والخوارج والمرجئة على نحو ما سبقت الاشارة اليه تفصيلا .

انقسم الخوارج الى فرعين : فرع بالعراق بالقرب من البصرة وقد استولوا على كرمان وبلاد فارس ، والفرع الثانى بجزيرة العرب وقد استولوا على اليمامة وحضرموت واليمن ، وقد حاربت الدولة الأموية الفريقين معا مما جعلهم - أى الخوارج يخرجون فى مجموعات كبيرة الى البلاد المفتوحة كبلاد السند ، وقد ضعفت قوة الخوارج فى عهد الدولة العباسية التى قضت عليهم تدريجيا .

وفى بلاد السند والبنجاب فان المصادر التاريخية تضطرب حين تتعرض لتاريخ الخوارج هناك ، وتذكر احدى الروايات أن جماعة من العرب هم « العلافون » قد فروا هاربين من الحجاج بن يوسف الثقفى ولجأوا الى الملك(٤٧) داهر ملك بلاد السند الذى رحب بهم حيث كانوا

---

(٤٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ص ٥٣٠ - ٥٣٥ .

- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الرابع .

خمسمائة فارس مقاتل ورأى أن يتخذ منهم قوة لمحاربة العرب فى اقليم مكران ببلاد السند حيث حارب حكام السند الولاة العرب نحو نصف قرن منذ عهد الخليفة معاوية بن أبى‌سفيان ، ولم يمض وقت قصير حتى قام العلافون بالفتن السياسية ضد الولاة الأمويين للقضاء على الولاية العربية الأموية بتأييد عسكرى من الملك داهر السندى حتى استولوا على الحكم فى مكران وظلوا يحكمونها بضع سنوات هربوا بعدها - خوفا من جيوش الحجاج بن يوسف الثقفى - الى داخل بلاد السند ثم ساعدوا الملك داهر سنة ٨٧هـ - ٧٠٦م فى احدى معاركه الهامة لمهارتهم القتالية ، وكونوا فرقة مستقلة فى جيش السند وكان محمد بن الحارث العلافى أكبر قادتهم أحد كبار المستشارين العسكريين للملك داهر حتى مقتل الملك داهر سنة ٩٢هـ اثر استيلاء محمد بن القاسم الثقفى على بلاد السند .

وتذكر المصادر أن كثيرا من زعماء الخوارج كانوا يلجأون الى بلاد السند هروبا من الأمويين . وقد عمل الخوارج فى السند على اضعاف الحكم الأموى باستمرار للقضاء عليه ، وصولا الى العصر العباسى حيث كانت الخوارج معروفة عند العباسيين لأنهم عملوا معهم ضد الدولة الأموية ، وكان بعض الخوارج من عمان يحضرون الى بلاد السند لكونها بعيدة عن نفوذ العباسيين ومنهم - على سبيل المثال - حسان بن مجاهد الهمذانى الذى حضر الى بلاد السند عن طريق البحر سنة ١٤٢هـ . لكنه اضطر للعودة الى الموصل لأن الوالى العباسى عمر بن حفص لم يعط له الفرصة لتحقيق مهمته فى وجود مؤيدين لدعوته فى بلاد السند .

بعث عمر بن حفص الوالى العباسى فى السند بعبد الله الأشتر ابن محمد الأموى[٤٨] الى البصرة لشراء خيول والتوجه بها الى بلاد السند بحرا على أنهم تجار خيل ، غير أن الغرض الحقيقى كان القيام بالدعوة للشيعة فى بلاد السند[٤٩] . ولما وصلوا للمنصورة آكرمهم واليها عمر ابن حفص ، ولما أخبره أحدهم بالحقيقة ، فقد خاف عبد الله الأشتر عند سماعه بمقتل أبيه محمد العلوى وقال لعمر بن حفص : « ان أمرى قد ظهر ودمى فى عنقك » ، فبعث به عمر بن حفص الى أحد ملوك السند

---

(٤٨) حول نشأة الشيعة عموما راجع :
- السيوطى ، التفسير والمفسرون ، الجزء الثانى ص ٢ - ٧
(٤٩) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الخامس ص ٢٨ - ٣٢ .

واجتمع حوله ما يقرب من خمسمائة شخص من علماء الزيدية ، ولما علم الخليفة المنصور بذلك عزل عمر بن حفص عن ولاية بلاد السند .

ومن الأرجح أن عبد الله بن الأشتر قد قدم الى بلاد السند فى سنة ١٤٥هـ وهو ما يعتبر بداية الحركة الشيعية فى هذه البلاد وبعد مقتله انتشر أصحابه وأتباعه البالغ عددهم أربعمائة من علماء الزيدية فى مختلف المناطق ببلاد السند . ثم ظهر عبد الله المهدى يدعو للخلافة فى بلاد الشام بعد ذلك بحوالى قرن ، وقد قويت سلطته الروحية والسياسية والمادية فبعث بأحد دعاته الى بلاد السند فى سنة ٢٧٠هـ وكان هذا هو أول داع للشيعة فى بلاد السند حيث مركز الشيعة بالشام هو الذى يصدر تعليماته الى الدعاة وبعد استيلاء عبد الله المهدى على افريقيا صارت مدينة القيروان مركزا لدعوته حتى بنى مدينة المهدية التى صارت عاصمة للدولة الفاطمية ، وكان دعاة الشيعة يأتون الى بلاد السند والملتان ويعودون بعد آداء مهمتهم فى الدعوة الى المذهب الشيعى .

نجح الشيعة فى تكوين دولتهم فى شمال افريقيا ، وامتدت دعوتهم لمذهبهم فى الولايات التابعة للخلافة العباسية مثل ايران وتركستان والسند وغيرها ، ويرى الطرازى(٥٠) أن الشيعة يبدو أنهم لم ينجحوا فى الدعوة لمذهبهم فى المنصورة ببلاد السند لسنوات طويلة بسبب وجود العلماء والقواد من أهل السنة المخالفين لآراء الشيعة ، ومن ثم وجه الشيعة اهتمامهم الى مناطق أخرى أهمها اقليم الملتان حيث تكونت قوة كبيرة هناك فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وتجدر الاشارة أن الخليفة الفاطمى المعزلدين‌الله قد أرسل داعيا باسم حلم بن شيبان متنقلا بين مصر والملتان لمدة ثمانية عشر عاما لنشر دعوة الشيعة ، وهو قائد حملة الخليفة الفاطمى الى الملتان للاستيلاء عليها واسقاط الدولة العربية السنية باقليم البنجاب سنة ٣٧٥هـ حيث كان جلم بن شيبان أول حاكم شيعى فى الملتان .

وفى سنة ٣٩٦هـ قام السلطان محمود الغزنوى بالحملة على الملتان وقضى على دولة الشيعة فيها بعد أن خالف الحاكم الشيعى هناك عهده معه سنة ٣٩٦هـ حيث زالت الدولة الشيعية فى الملتان سنة ٤٠٢هـ لتحل

---

(٥٠) دكتور عبد الله مبشر الطرازى ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، الجزء الأول . مرجع سابق ص ٩٨٣ .

محلها الدولة السنية التابعة للدولة الغزنوية · أما المنصورة فقد سبقت الاشارة أنها كانت فى أيدى الحكام السنيين من العــرب وهم من الأسرة الهبــارية حتى سنة ٤٠٢هـ غير أن الشــيعة الذين طردوا من الملتــان سنة ٤٠٢هـ قدجمعوا شتأتهم ونجحوا فى الاستيلاء على المنصورة حتى قام السلطان محمود الغزنوى بحملته على بلاد السند سنة ٤١٦هـ وقضى على الحكومة الشيعية فى المنصورة وقامت محلها دولة سنية تابعة هى الأخرى للدولة الغزنوية ، وعمــوما فقــد قامت للشيعة دولتان فى اقليم البنجــاب الأولى فى أواخر القرن الرابع الهجرى فى الملتــان واستمرت نحو سبعة وعشرين عاما ، والثانية فى المنصورة ببلاد السند ودامت نحو أربعة عشر عاما ، وبالرغم من زوال هاتين الدولتين فان دعــوة الشيعة استمرت فى بلاد السند والبنجاب وزاد نفوذهم هناك ·

الفصل الخامس

سقوط الدولة وظهور دويلات جديدة

- ما قبل السقوط
- شئون الخلافة والحركات الباطنية
- ظهور دويلات جديدة

١ ـ السلاجقة

٢ ـ الأتابكية

٣ ـ الخوارزم

ـ ما قبل السقوط :

انصرف الخلفـــاء العباسيون عن تصريف أمور الحكم ، وانشغلوا بتوافه الأمور ، فى حين قوى شأن سلاطين السلاجقة ، كما سبقت الاشارة ، فلما ضعف هؤلاء ، فقد انعكس ذلـك على كافة شئون الدولة ، داخليـا وخارجيا ، فذلت (بضم الذال) الخلافة ذلا واضحا ، وتسلط المـماليك على خلفائهم ، فانزوى الخلفاء فى قصورهم يعيشون فى ترف . ولم يستطع الخلفاء مواجهة رغبـــات الســـلاجقة أو وزرائهم . وجاء انحـــلال الدولة السلجوقية ذاتها ايذانا بسقوط الخلافة العباسية .

وكان من نتائج ضعف الخلافة ، أن قويت الحركات الباطنية عموما وأهمها الاسماعيلية – على نحو ما سبقت الاشارة اليه – وفرضت هـــذه الحركات أفكارها التى لا تتوام والقيم الاسلامية الحقيقية ، ونجحت فى تقويض أركان الدولة العباسية ذاتها ، وتذكر المصادر أن الخلفاء الفاطميين فى مصر قدأدوا دورا كبيرا فى نشر الاسماعيلية ، وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة الا بالقـــدر الذى أدى الى سقوط الدولة ، وسـوف نـرى فى موضع لاحق كيف أثر ضعف الخـلافة على تقوية الصليبين وسيطرتهم على بلاد الشام ، حتى تمكن صلاح‌الدين الأيوبى – بشكل أو بآخر – من القضاء على الفاطميين واستعادة الخلافة الاسلامية لبعض هيبتها .

وشهدت الفترة السابقة على سقوط الدولة العباسية سيطرة العناصر غير العربية وخاصة الأعاجم على زمام الأمور ، ويصف المؤرخ الذائع الصيت ابن خلدون هذه الفترة قائلا(١) : « وهـــذا ما وقع لبنى العباس ، فان عصبية العـرب ، كانت قد فسـدت بعـد دولة المعتصم وابنه الواثق ، واستظهارهم بعـد ذلـك ، انما كان بالموالى من العجم والتـــرك والديلم والسلجوقية وغيرهم ، ثم تغلب العجم الأولياء على النواحى ، وتقلص ظل الدولة ، فلم تكن تعدو أعمال بغداد ، حتى زحف اليها الديلم وملكوها ، ثم صار حكمهم ، ثم انقرض أمرهم ، وزحف أخيرا التتار ، فقتلوا الخليفة ومحوا اسم الدولة » .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، دار الشعب ، القـاهرة ، بدون تاريخ اصدار ص ١٨٢ – ١٨٤ .

ويقارن طلس(٢) الأوضاع المخزية التى انتهت اليها الدولة العباسية يوم سقوط بغداد ، بالأوضاع الكريمة التى كانت عليها الدولة الاسلامية حينما سار الرسول صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدون والأمويون لغزو العالم وفتحه ، حيث يتضح مدى الذل الذى حاق بهؤلاء الخلفاء العباسيين والسقوط الاجتماعى والخلقى الذى انحدروا اليه . أما صاحب الفخرى فيصف أحوال بغداد ، ونحذير ابن العلقمى للمستعصم من الاستمرار فى غيه قائلا : « كان المستعصم رجلا متدينا ، لين الجانب ، عفيف اللسان ، الا أنه كان مستضعف الرأى ، ضعيف البطش ، قليل الخبرة بأمور المملكة ، غير مهيب فى النفوس ، غير مطلع على حقائق الأمور ... وكان أصحابه جهالا ومن أرذال القوم الا وزيره مؤيدالدين محمد بن العلقمى ، فانه كان من أعيان الناس ، وعقلاء الرجال ، ... وفى أواخر أيامه ، قويت الأراجيف بوصول عسكر المغول صحبة هولاكو ، فلم يحرك منه ، ... وكان كلما سمع عن السلطان من الاحتياط والاستعداد شيء ، ظهر من الخليفة نقيضه من التفريط والاهمال ، ولم يكن يتصور حقيقة الحال فى ذلك ، ولا يعرف هذه الدولة » .

أما أحوال الأمة الاسلامية وخاصة فى آسيا ، فقد سادها الانقسام والتجزئة ، واختلاف وجهات النظر بين العرب ، والترك ، والديلم ، والروم ، والفرس ، واليهود ، والنصارى . وساءت معاملة الخلفاء لأهل الذمة » وفقدوا القيم الاسلامية والاخلاقية ، فاذا أضفنا الى ذلك دور الفرق العقائدية الهدامة من قرامطة وباطنية فان ذلك يفسر تردى الأوضاع لهذه الدولة الى الدرك الأسفل خاصة بعد اضطراب الأحوال الاقتصادية وانتشار الفقر وفساد الخلفاء وعائلاتهم مما كان له تأثير سيىء على المقومات الخلقية .

---

(٢) دكتور محمد أسعد طلس ، مرجع سابق ص ١٥٦ - ١٥٧ .

- شئون الخلافة والحركات الباطنية :

لما مات الخليفة القادر سنة ٤٢٢هـ ، بويع ابنه عبد الله أبو جعفر الذى لقب بالقائم بأمرالله ، واستمرت فترة خلافته ثلاث وأربعين عاما ، وكان والى العراق فى عهده من بنى بويه - جلال الدولة - غير حازم فاضطربت أحوال الخلافة ، وساد الفساد . وبموت جلال الدولة ، تولى ابن أخيه سلطان الدولة ولاية العراق ولقبه الخليفة بمحيى الدولة واستمر الفساد فى عهده حتى موته ، فخلفه ابن خسرو فيروز الى أن طرد بواسطة طغرل بك السجوقى ، وقضى على دولة آل بويه(٣) - كما سبقت الاشارة - وابتدأت الدولة السلجوقية التى اتخذت مرد عاصمة لها ، ثم توسعت حدودها فشملت معظم شرق الدولة العباسية .

وكانت بغداد هى الأخرى من الدولة الفاطمية الشيعية ، فأسرع الخليفة القائم ، واستنجد بالسلاجقة السنيين لحمايته من أعدائه الفاطميين وأمر الخطباء فى المساجد بالدعاء لطغرل بك سنة ٤٤٧هـ ، وأصبحت بغداد بذلك ممهدة لدخول طغرل بك ، فسار اليها ، واستقبله الخليفة فى نفس العام حيث توثقت العلاقة بين العباسيين والسلاجقة ، حيث ترتبط هذه الفترة بالفريقين معا ، وبموت طغرل بك خلفه عضد الدولة أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن داود بن سلجوق ، وكان حازما ، فتحسنت أحوال الدولة فى عهده ، ولما مات ألب أرسلان خلفه جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه وفى فترة حكمه توفى الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٦٧هـ وخلفه حفيده أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبى العباس محمد بن الخليفة القائم ، وفى عهده توسعت رقعة البلاد وامتدت من الصين الى اليمن ، وشملت سمرقند والمشرق وخفه ابنه أحمد المستظهر بالله ، وكانت أيامه أيام هدوء وسكينة لولا ان ابن ألب أرسلان صاحب دمشق قد طمع بالسلطنة ، وتوالت الوقعات والفتنة داخل آل البيت السلجوقى ذاته فى الفترة من سنة ٤٩٢هـ الى سنة ٤٩٧هـ ، وشهدت هذه الفترة أحداثا هامة على صعيد العلاقات السياسية والاسلامية حيث أغار الفرنج على المملكة الاسلامية ،

---

(٣) راجع فى تفصيل ذلك : الماردينى ، عبد السلام بن عمر بن محمد . المتوفى سنة ١٢٥٩ هـ ، تاريخ ماردين ، (مخطوط) ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

وجاءت فترتا خلافة المستظهربالله ، فالمسترشدبالله لتشهدا أحداثا خطيرة فى آسيا الاسلامية برمتها • وتمثلت هذه الاحداث - داخليا - فى تصاعد نفوذ الباطنية ، وخارجيا فى تحدى العـــالم المسيحى الغربى الذى ظهرت بوادره فى الحروب الصليبية •

شهدت الفترة من سنة ٥١٢هـ الى ٦٤٠هـ تعـاقب حـكم العباسيين السلاجقة معا ، بدءا بالمسترشد بالله ومرورا بالراشد بالله منذ سنة٥٢٩هـ والمقتفى لأمر الله سنة ٥٣٠هـ • ويورد الفخرى تفصيل أحداث هذه الفترة التى انتهت بأفول نجم الســـلاجقة ، وتولى أمراء الخليفة العبـاسى أقاليم أملاكهم فى حصن كيفا ، وماردين ، ودمشـــق ، والموصــــل ، وحلب ، وسنجار ، والجزيرة ، واربل ، وأذربيجـان ، وفارس ، ولورسـتان حيث قامت فى هذه المدن دويلات متعددة من أسلاب الدولة السلجوقية التى كان قد أسسها طغـرل بك وألب أرسـلان ، ويلاحظ أن المقتفى بالله استمر مستقلا بالعراق حتى وفاته وعلى صعيد الخلفاء العبـاسيين فقد خلفه ابنه المستنجد ، ولم يكن لـــه نفوذ فى العـــراق ، وخلفه ابنه المستضىء بالله أبو محمد الحســـن ، ثم الامـــام النــاصر لدين الله أبوالعباس أحمد ابن المستضىء بالله الذى يعتبر أطول الخلفاء العباسيين عهدا فقد حكم ما يقرب من سبعة وأربعين سنة ، وخلفه ولده أبو نصر ، ثم أبو جعفر المنصـــور المستنصر بالله سنة ٦٢٣هـ وفى عهده تم للمغول السيطرة على بلاد ايران الى حدود العراق ، ثم خلفه ابنه المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله آخر الخلفاء العباسيين على يد هولاكو المغولى فى ٢٠ محـرم سنة ٦٥٦هـ ، حيث حل الخراب والدمار ، وجرائم القتل الفظيعة والتى قدرها السيوطى بما يقرب من مليون نسمة(٤) ، ولم يترك هولاكو أحدا من العلماء أو الأمراء أو كبار الموظفين أو التجار أو الأشراف على قيد الحياة وأرسلت نفائس بغداد الى أذربيجان كما كان لسقوط بغداد تأثير كبير فى خضوع أمراء آسيا الغربية مثل بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل ، والأتابك أبوبكر بن سعد صـاحب فارس وسلاجقة الروم •

وكان رد فعل العالم الاسلامى على سقوط بغداد هو الوجوم التـــام

---

(٤) الســيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطى الشافعى ، المتوفى سنة ٩١١ هـ ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ،

والاحساس بالمرارة ، حتى اعتقد فريق بدنو يوم القيامة ، وأن هذه الأحداث الرهيبة سخط من الله سبحانه وتعالى نظرا لخلو العالم الاسلامى من خليفة يحمى الاسلام حتى تولى الملك الظاهر بيبرس سلطة مصر سنة ٦٥٨هـ ، فاستقدم الامام أحمد بن الامام الظاهر بالله العباسى أحد القلائل الذين نجوا من مذابح المغول ، وبايعه هو والعلماء والأمراء بالخلافة ، وتلقب بالمستنصر بالله ، واستمرت الخلافة العباسية فى مصر الى أن قضى عليها السلطان سليم العثمانى .

وعلى الصعيد الداخلى شهدت الفترة السابقة على سقوط بغداد تعاظم دور الحركات الباطنية وخاصة الاسماعيلية التى نشطت فى أرجاء العالم الاسلامى معتمدة على كثير من الأسرار والأمور المحجوبة ، وتفسير القرآن الكريم تفسيرات لا تعتمد على ظواهر النصوص ، بل على الباطن ، والمجازات ، والاستعارات ، والكفايات ، وبأفكار مغايرة تماما لما أجمع عليه أهل السنة والجماعة مثل حلول الألوهية فى « اسماعيل » ، وانتظار رجعته مهديا ، وفكرة تناسخ الأرواح ، وفكرة نشوء الكون متجليا عن ذات الله سبحانه ، وفكرة المراتب السبعة أو التسعة التى يتدرج فيها المريد حتى يصل الى درجة الكمال المطلق ، وغير ذلك من الأفكار التى لا يطلع أسرارها الا من يؤتمن جانبهم . وقد سبقت الاشارة الى اتخاذ مدينتى سلمية والكوفة مقرين لهذه الحركة . وقد وجدت الفاطمية هى الأخرى — كحركة باطنية مشابهة للاسماعيلية — وجدت من يبث أفكارها فى العراق وايران لأن أهلها يميلون الى آل على ، وكان هدف الفاطميين نشر (عقيدتهم) ثم القضاء على الدولة العباسية وهو ما يقتضى التعرض فى تفصيل غير قليل « للدعوة » الفاطمية فى نشاتها وتطورها باعتبارها هى الأخرى من الحركات الباطنية التى أثرت بشدة على حركة التاريخ الاسلامى من حيث ارتباطها ردحا من الزمن بالحكم .

والواقع ان الفاطمين (٢٩٧ — ٥٦٧هـ) كانوا قد ظهروا فى شمال افريقيا بسنة ٢٩٧هـ . ورغم أن ما يتعلق بافريقيا لا يرتبط بمجال هذه الدراسة — الا أنه يجب التنويه — كما سبقت الاشارة — أن الفاطميين هم من الشيعة الاسماعيلية ، وكان عبيد الله المهدى بن محمد الحبيب ابن جعفر الصادق قد قضى على دولة الأغالبة ، والأدارسة وسيطر على المغرب العربى . ومن أشهر حكام الفاطميين المعز لدين الله بن المنصور بن القائم

مدينة القاهرة ، وشرع فى عمـــارة الجامع الأزهر ، وقد استولى جوهر الصقلى على دمشق سنة ٣٥٨هـ - ٩٦٨م وأصبحت الدولة الفاطمية تشمل أيضا الجزء الجنوبى من بلاد الشام ، وفى عهد العـزيز والحاكم بأمر الله تمت السيطرة على الحجاز وبلاد الشـام ، واستمر حكم الفاطميين حتى سنة ٥٦٧هـ حينما قضى على دولتهم صلاح الدين الأيوبى فى عهـد الخليفة العباسى المستضىء .

وفيما يتعلق بالدعوة الفاطمية فقد انقسم أصحابها فى فترة خلافة المستنصر بالله خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميـلادى) الى قسمين : رأى القسم الأول أن المستنصر أوصى بالخلافة من بعـده لابنه نزار ، فى حين قال القسم الثانى انه أوصى بهـا لابنه المستعلى ، واتخذت الفرقة الأولى بلاد المشرق مركزا لها برعاية الحسن بن الصبـاح ، وبقيت الثانية فى مصر والمغرب ، وكان الحسن بن الصباح قد نشأ ، وذاع صيته كشيعى متحمس خلال فترة ألب أرسلان ، وتذكر المصادر أنه كتم أفكاره لتعصب السلاجقة السنيين ، غير أنهم اكتشفوا أمره ، وطردوه من خدمتهم فأعلن اعتناقه المذهب الاسماعيلى ، وبعثه عبـد الملك بن عطاش رئيس « الدعوة » الاسماعيلية فى العـراق الى أصفهان ، ثم سافر(٦) الى مصر لدراسة « العقيدة » الفاطمية من خلال فلاسفتها بالقاهرة ، ولما ارتفع شأنه فى مصر فقـد انشق على المذهب الفاطمى المصرى وأسس حركته البـاطنية الجديدة ، التى أصبحت - بعد قوتها(٧) - تهدد السلاجقة ، غير أن الحسن استطاع أن يستولى على بعض الحصون سنة ٤٨٣هـ المحيطة بقزوين والتى كان يتم الانطلاق منها فى الماضى للاستيلاء على بلاد خوزستان وقوهستان .

استطاع الحسن بن الصباح اعادة تنظيم المذهب الفاطمى ، فسمى نفسه « داعى الدعـاة » أو رئيس الدعوة ق وهو أكبر منصب فى الهيكل التنظيمى ويليه كبـار الدعـاة حيث يختص كل منهم باقليم من أقاليم « الدعوة » الثلاثة وهى : العراق ، وقوهستان ، والشـام ، ويليهم طبقة

---

(٥) دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثانى ص ١٧٦ .

(٦) المرجع نفسه ، وتجدر الاشارة الى ارتباط العالم الاسلامى فى آسيا بمصر ارتباطا وثيقا فى هذه الفترة ، وكانت « العقيدة » الفاطمية قد استقرت من خلال الخلافة الفاطمية فى مصر التى سافر اليها الحسن بن الصباح عن طريق أذربيجان ، وميافارقين وعكا .

(٧) راجع تفصيلا : - ابن الأثير ، الجزء العاشر ص ٩٧ - ٩٩ .

- القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة « الانشا » ، الجزء الثالث عشر ص ٢٣٦

الدعاة الذين تم تدريبهم وتلقينهم مبادىء « الدعوة » وأصولها والتفقه فى المذهب الاسماعيلى ، ويليهم طبقة الرفاق وهم الذين يطلعون على الأسرار ؛ ولا يطلب اليهم نشرها ، ثم طبقة اللاصقين ، وهم الـــذين لم يتعمقوا فى معرفة أسرار الدعوة وأصولها ، ولكنهم ممن يتعهدون تنفيـذ كل ما يطلب منهم ، أما الطبقة السادسة فهم طبقة الفدائيين وهم الشــبان المتحمسون الذين استعان بهم الحسن لتنفيذ خططه السرية فى القضاء على خصومه ولهم وسائلهم فى الاحتيال ، والتخفى ، واستعمال الاسلحة المتعددة ، ومعرفة اللغات ، وكان هؤلاء يقتلون خصوم الحسن أيام الجمع والآحاد(٨) ٠

وبموت الحسن بن الصباح سنة ٥١٨هـ — ١١٢٤م ضعف أنصاره ، وفشلوا فى الاستيلاء على البلاد الاسلامية ، غير أنهم مروا أيضا بفترات قوة تمكنوا خلالها من محاربة الصليبيين عــدة مرات ، واستمالة أمير حلب السلجوقى لمذهبهم ، والاستيلاء على عدة حصون وقلاع ٠ وعنـــدما تولى جلال الدين حسن زعامة الاسماعيلية فى الفترة ٦٠٧ — ٦١٨هـ ، ١٢١٠ — ١٢٢١م ، فقد طلب منهم اظهار شعائر الاسلام واعلامهم الرجوع الى الحق بل ان جلال الدين حسن طلب من بعض فقهاء المسلمين أن يفقهوا جمـاعة الاسماعيلية بتعـــاليم الحنيفية وأحـرق كتب الاسماعيلية ، وقد سبقت الاشارة الى أوجه الشبه بين المذهبين الاسماعيلى والفاطمى ، وشهدت الفترة اللاحقة الفتك بالاسماعيلية من كل من منكوبرتى سنة ٦٢٤هـ ، ثم هولاكو سنة ٦٥٤هـ — ١٢٥٦م ، ومنذ ذلك الحين تشتت البـاقون ما بين شمالى سوريا ، وفارس ، وعمان ، والهند(٩) بصفة خاصة ٠

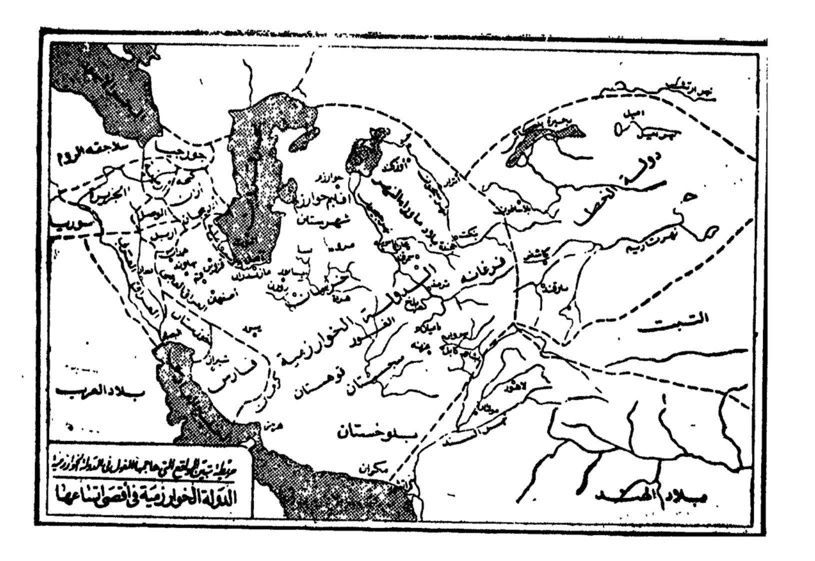
---

(٨) وكان من دعاة طبقة الفدائيين عند اغتيال احد خصوم الحسن ، ان يكونوا ثلاثة ، حتى اذا ما فشل أحدهم فى الخطة أو قتل ، فان الآخرين يقومان باتمام العمل ، وهكذا تمكن الحسن قتل الكثير من خصومه ، وكان منهم على قمة السلطة مثل الخليفتين المسترشد والراشد، والوزير نظام الملك وغيرهم ٠

(٩) حيث يقيم منهم ما يقرب من المائتى الف فى شبه القارة الهنـدية وباكسـتان ، ويلقب الشخص منهم بالمولى أو الخاجه ، ولا يزال قسم منهم فى ســوريا فى مدن سـلمية والقدموس ومصياف ، وهناك فئة أخرى فى سوريا تعرف باسم « النصيرية » أو « العلوية » وهم اسماعيليون فى الأصل ، ويرجع اسمهم الى محمد بن نصير الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجري ، ويبلغ عددهم نحو ثلاثمائة الف ويقيمون فى محافظة اللاذقية ، راجع تفصيلا :

— فيليب حتى ، تاريخ العرب (مطول) ، مطبعة الكشاف ، بيروت ١٩٦١ ٠

— فيلب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجى ، دار الثقافه ، بيروت ١٩٥٩ م ٠


سلاجقة الروم
الجزيرة
سوريا
اقليم خوارزم
شهرستان
بلاد ما وراء النهر
فرغانة
الدولة الخوارزمية
الغور
قوهستان
سجستان
فارس
شيراز
كرمان
بلوخستان
مكران
بلاد العرب
التبت
لاهور
نهر السند
بلاد الهند
دولة الخطا
الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها

- ظهور دويلات جديدة :

١ - السلاجقة :

ينتسب السلاجقة إلى سلجوق بن تقاق (دقاق) أو ادبقاق أحد رؤساء التركمان ، وموطنه الأصلي سهول تركستان فيما وراء النهر ، وأخذ نجمه يلمع حتى هابه الاتراك ، وقربه السامانيون . أما طغرل بك فهو أحد أحفاده الذى برز هو الآخر بانقراض الدولة السامانية ، وطمع فى الاستيلاء على أراضيها ، وتمكن بالفعل من الاستيلاء على خراسان ، وفى سنة ٤٢٩هـ استولى على مرو ، ونيسابور ، وبلخ ، وجرجان ، وطبرستان ، وخوارزم ، وهمذان ، والري ، وأصفهان • وازداد السلاجقة تألقا فى العالم الاسلامى بدخولهم بغداد حيث خطب طغرل بك الجمعة ، وقبض على الملك الرحيم البويهى ، وانقضت دولة بنى بويه كما سبقت الاشارة تفصيلا •

وبموت طغرل بك ، فقد خلفه ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ابن طغرل بك ، واستطاع ألب أرسلان توسيع حدود الدولة الاسلامية على حساب الدولة الرومانية الشرقية ، من أقصى الشرق الى جزيرة العرب والى بحر مرمرة بعد أن هزم الامبراطور البيزنطى رمانوس وأسره فى موقعة ملازكرد سنة ٤٦٣هـ - ١٠٧١م وذلك بالرغم من التفوق العددى للجيش البيزنطى على جيش السلاجقة الاسلامى • وقد تجلت الروح الاسلامية الحقة فى معاملة ألب أرسلان لأسيره الامبراطور البيزنطى ، حيث أرسله الى بلاده فى حراسة الجنود المسلمين ومعه راية مكتوب عليها : « لا اله الا الله محمد رسول الله » ، ومن الدروس المستفادة فى هذه المعركة ، أو بالأحرى نتائجها ، أن تأسست دولة الروم السلجوقية فى آسيا الصغرى ، وأصبحت دولة اسلامية يتزعمها سليمان بن قتلمش ابن عم ألب أرسلان وبقيت هذه الدولة أكثر من قرنين حتى قضى عليها المغول سنة ٦٥٥هـ - ١٢٥٧م •

وبعد وفاة ألب أرسلان خلف ابنه أبو الفتح ملك شاه واستمر حكمه عشرين عاما (٤٦٥ - ٤٨٥هـ) ، وكان وزيره نظام الملك يدير الدولة ، وفى عهده تمت فتوحات اسلامية للعديد من الأقاليم ، وبلغت الدولة أقصى

بلاد جورجيا ، ولما مات ملك شاه اضطربت الأمور بعض الشيء ، وتعاظمت فتن الباطنية وأدى ذلك الى انقسام دولة السلاجقة الى دويلات عديدة عرفت بدول الأتابكة والشاهات .

ودول الأتابكة هي عدة دول أو بالأحرى دويلات زاحمت الدولة السلجوقية . وكلمة « أتابك » هي لفظ تركي يطلق على الوصي ، أو المربي الذي يتولى ادارة البلاد ، والاشراف على ولي العهد ، وسميت دول الأتابكة بهذا الاسم ليس لنسبتها الى بيت واحد ، أو الى أتابك واحد ، ولكنها كلمة متصلة بالبيت السلجوقي ، فكما برز شخص عظيم من مربي رجالات البيت السلجوقي سموه « أتابكا » ، وتمكن هؤلاء الأتابكة أن يصلوا الى الولايات والامارات ، ثم استقلوا بها ، وأورثوها أبناءهم من بعدهم .

واذا ما عدنا للسلاجقة ، نجد أنه بعد موت ملك شاه فقد تجزأت الدولة السلجوقية الى فروع أربعة تضمنت سلاجقة العراق وفارس ، وسلاجقة سوريا في حلب ودمشق ، وسلاجقة كرمان ، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، وظل السلجوقيون يحكمون معظم أملاك الخلافة الاسلامية في آسيا أكثر من قرنين ، ثم امتد نفوذهم الى جبال الأناضول من خلال عهود ثلاثة : الأول عقب موت ملك شاه حيث دامت الفتنة بين أبنائه فترة طويلة ضعف فيها الشرق الاسلامي أمام الصليبيين في الخارج والاسماعيليين في الداخل . أما العهد الثاني فقد تمكن الصليبيون فيه من انتزاع بلاد الشام من أيدي السلاجقة ، وكونوا فيها امارات صليبية أربع في بيت المقدس ، وأنطاكية ، وطرابلس ، والرها ، ولم يبق تحت سلطة المسلمين سوى دمشق ومصر ، في حين انفصلت آسيا الصغرى تماما ، وتكونت فيها أسرة مستقلة ، وكذلك حال الجزيرة ، وفارس ، وأذربيجان ، وديار بكر . وانقسم السلاجقة في العهد الثالث الى ثلاثة أقسام وقعت فيها عدة معارك واستمر هذا العهد في الفترة من ٥٢٥ ـ ٥٤٧هـ ، ١١٣٠ ـ ١١٥٢م ، انهارت بعدها هذه الدولة .

٢ ـ الأتابكية :

أما الدولة الأتابكية ، فقد سبقت الاشارة الى التسمية التى أطلقها السلاجقة على المربين من رجالات البيت السلجوقى ، الذين أطلق عليهم أيضا « الشاهات » وقد حكم هؤلاء الأتابكية والشاهات منـاطق مختلفة وأسسوا دويلات متعـددة انفصلت عن الدولة السلجوقية ، وكان الأمير السلجوقى اذا تولى الامارة استصحب معـه مربيه ، وكان ذلـك المربى هو صاحب النفوذ الفعلى فى الدولة ، بل انه عمل لحسابه الخاص وانفصل عن سياسة سلاجقة بغداذ ، ولما مات ملك شاه ، استقل كل أمير بما تحت يده سواء كان اقليما أو مدينة ، وتسابقوا فى الاغارة على جيرانهم ، الأمر الذى انتهزته القبائل التركية فاخذت تغير هى الأخرى على سهول آسـيا الغـربية ، وعموما فقـد شملت هذه الدويلات الأتابكية دويلة الشاهات الأرتقية التى ضمت مدينة ماردين وحصن كيف ، وكان وجود هذه الدولة فى حيز جغرافى اتسم بالحساسية وهو ما كان عامل ضعف فى وحـدة المسلمين حيث وقوع الكثير من المنازعات ، وانتهت دولة ماردين سنة ٨١١هـ بعد ظهور الدولة العثمانية ، وهنـاك دويلة أتابكية دمشق فى الفترة من ٤٩٧ ـ ٥٤٩هـ ، ١١٠٣ ـ ١١٥٤م ، ويذكر ابن الأثير أنه عنـدما توفى ملك شاه فقد أسسها طغتكين مملوك تتش بن ألب أرسلان الذى امتـد نفوذه الى حلب ، والجزيرة ، وديار بكر ، وأذربيجان ، وهمذان ، واستمرت هذه الدويلة الى أن قضى عليهـا نورالدين محمود بن زنكى سنة ٥٤٩هـ ، ثم انتقلت الى الأيوبيين فوليها الملك الأفضل فى حياة صلاح‌الدين ثم الملك العادل .

أما أعظم دول الأتابـكية فكانت دولة أتابـكية الموصل التى امتـد سلطانها فى المنطقة الواقعة من بين النهـرين الى بلاد الشـام ، وأسسها عمادالدين زنـكى بن قسنقر ، وكان أبوه أحـد مماليك ملك شـاه ، وقد سيطر عمادالدين زنكى على واسط البصرة بالاضـافة الى مملكته فى الموصل ، والجزيرة ، ونصيبين ، ولما اشتد خطر الصليبيين فى سوريا ، ولم يبق بأيدى المسلمين فيها سوى حمص ، وحماه ، ودمشق ، فقد تطلع المسلمون الى عمادالدين لانقاذهم من براثن الصليبيين ، فتمكن من استرداد حلب فى سنة ٥٢٢هـ ، وظلت الحروب بينه وبين الصليبيين الى أن قتل

وهو ما يعتبره المؤرخون(١٠) فوزا كبيرا للمسلمين لأن سقوطها كان بداية نهاية النفوذ الصليبى ، وتجدر الاشارة أيضـــا الى محاولات عمادالدين للاستيلاء على دمشق ، ويذكر ابن الأثير(١١) أنه تمكن فعـلا من الاستيلاء عليها ، وبموته خلفه ابنه سيفالدين غازى على القسم الشرقى من المملكة ، واتخذ الموصل مقـــرا له ، فى حين تولى نورالدين محمود القسم الغربى ، واتخذ مدينة حلب مقـرا له ، واشتراك الأخوان فى محاربة الصليبيين الى أن تمكن صلاح الدين الأيوبى من الاستيلاء على الدولة الأتابكية ، وضمنها الى دولته ٠

أما دولة أتابكية سنجار ، فقد شمل حكمها الفترة من ٥٦٦ ـ ٦١٧هـ ، ١١٧٠ ـ ١٧٧٠م وكان قد أسسها عمادالدين زنكى الثانى ، وتوالى عليها ولداه من بعده حتى استولى عليها الأيوبيون ٠

وشملت دول الأتابكية أو بالأحـــرى دويلاتها التالية دولة أتابكيـــة الجزيـرة (٥٧٦ ـ ٦٤٨هـ ، ١١٨٠ ـ ١٢٥٠م) ودولة أتابـكية الأربل (٥٣٩ ـ ٦٣٠هـ ، ١١٤٤ ـ ١٢٣٢م) ، ودولة أتابكية ارمينية (٤٩٣ ـ ٦٠٤هـ ، ١١٠٠ ـ ١٢٠٧م) ، ودولة أتابكية أذربيجان (٥٣١ ـ ٦٢٢هـ ، ودولة أتابكية فارس (٥٤٣ ـ ٦٨٦هـ ، ١١٤٨ ـ ١٢٨٧م) ويلاحظ أن هذه الدويلات والتى أطلقنـــا عليها مجازا لفظ دول ، أنها قد أخضعت للأيوبيين(١٢) أو المغول ٠

---

(١٠) دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب ، المجلد الثامن ص ١٦٨ ـ ١٦٩ ٠

(١١) المرجع نفسه ٠

(١٢) ينتسب الأيوبيون الى أيوب شادى بن مروان الكردى ، وقد هاجر شادى جد هذه الأسرة الى بغداد التى كانت تحت سيطرة السلاجقة ، واستطاع استقطاب الأكراد لجانبه تحت حكم السلاجقة ، وشارك أيوب فى حسم الخلافات بين آل زنكى وبعضهم البعض فى بلاد الشام ، فساعد عماد الدين فى هجومه على بغداد ضد الخليفة المسترشد سنة ٥٢٩ هـ/١١٣٢ م فكافأه عماد الدين بتعيينه حاكما على بعلبك سنة ٥٤٣ هـ/١١٣٩ م ، وبعد مقتل عماد الدين سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ، أصبح أيوب أحد قواد معين الدين يسيطر على دمشق ، وتعاون أيوب مع أخيه شيركوه لمساعدة نور الدين صاحب حلب للسيطرة على دمشق وتوطد حكمه فى بلاد الشام ، ثم تعيين أيوب حاكما على دمشق وصلاح الدين رئيسا للشرطة ، وهذا الأخير بدأ نجمه يبزغ على مسرح الأحداث ، حيث تولى الوزارة فيما بعد وتلقب بالملك الناصر ، ثم السلطان

أما الخريطة السياسية للأحداث في هذه الفترة فقد شهدت قيام الدولة الخوارزمية بجوار أراضي الخلافة الاسلامية، ثم صراع أمراء البيت الأيوبي بالاضافة الى بقايا الصليبيين ثم مصر برغم أن موضوع الدراسة لا يرتبط بها - والتي انتهت دولة الأيوبيين فيها وصولا الى الخوارزم .

= كلمة المسلمين ، وتوحيد الأمة الاسلامية ، ودفع خطر الصليبيين . وكانت انجازاته الأولى القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية ، واعادة مصر الى المذهب السني وقد شجعه كل من نور الدين والخليفة العباسي المستنجد بالله على تحقيق ذلك ، واستغل صلاح الدين فرصة وفاة نور الدين وولى ابنه القاهر ، فأسرع صلاح الدين بجيش الى دمشق ودخلها سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٥ م وحاصر حلب ثم تم الصلح مع والى حلب فرفع عنها الحصار ، غير انه قام بضمها فيما بعد ، وأصبحت دولته تحيط بالامارات الصليبية ، ومن ناحية أخرى فان تنامى قوته قد مكنته من اسقاط الدولة الأتابكية .

- راجع : المقريزى ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ..

- القرمانى ، أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقى ، أخبار الدول وآثار الأول ، القاهرة .

- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء التاسع ص ٤٥ - ٤٨ ، ١٠٩ - ١١٢ .

- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، الجزء الخامس ص ١٥٨ - ١٦١ .

- دكتور عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى للدول العربية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ .

- دكتور أحمد قاعور ، دكتور شحادة الناطور ، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولى ص ١٩٦ - ١٩٩ .

٣ - الخوارزم (٥٣٣ - ٦٢٨هـ)

تنسب هذه الدولة الى القائد التركي توشتكين أحد رجال ملك شاه السلجوقي ، وكان له ولد اسمه قطبالدين محمود ، وعهد اليه باقليم خوارزم ولقب بخوارزم شاه ، ولما انهارت الدولة السلجوقية ، فقد طمع خوارزم شاه فى الاستقلال بولايته ، وتوسيع رقعتها ، ويذكر ابن الأثير عدة أحداث وقعت فى الفترة من ٥٣٣ الى ٥٩٣هـ تدور حول العديد من الغزوات بين السلاجقة والخوارزميين كان النصر حليف هذه الفئة أو تلك ، غير أن التقويم النهائى لهذه الفترة كان فى جانب الخوارزميين حيث سيطروا على همذان ، وأصفهان ، والرى ، وبخارى ، وحاربوا الاسماعيلية واستولوا على قلعتهم ، وفتحوا بلاد ما وراء النهر وسيطروا أيضا على كرمان ، ومكران ، وسواحل المحيط الهندى ، والبلاد الوقاعة غربى نهر السند ، وكان جلال منكوبرتى آخر من تولى أمور هذه الدولة حتى حاربه التتار وقضوا على الدولة الخوارزمية سنة ٦٢٨هـ ٠ وهو ما يقتضى وقفه للتفسير٠

فقد حكم جلالالدين منكبرتى اقليم غزنة عن أبيه ، فلما تعرضت الدولة الخوارزمية لهجوم المغول الشامل استطاع منكوبرتى تكوين جيش قوى هزم به المغول ٠ وقد أسرد ابن الأثير(١٣) أحداث هذل الفترة وصولا الى اغتيال منكوبرتى على يد أحد الأكراد ، وزا بذلك خصم عنيد للمغول ٠

وعموما فان هذه القوى الاسلامية الجديدة كان لها دورها فى تغيير ميزان القوى ونقل الثقل السياسى الى المشرق حيث أعلن الجهاد العام فى مواجهة كل من المغول الوثنيين - فى هذه الفترة - والصليبيين وكان على العالم الاسلامى مواجهتهم والصمود أمامهم وهو ما يستلزم العودة لأحداث القرن السادس الهجرى -الثانى عشرة الميلادى -والفترة السابقةعلى الغزو الصليبى للعالم الاسلامى فى محاولة لعرض الأوضاع والعلاقات السياسية والاسلامية فى آسيا بصفة خاصة ٠

---

(١٣) راجع تفصيلا : ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ٠ الجزء ١٢ ص ٤٣٤ - ٤٣٨ ٠

الفصل السادس

الغـــزو الصلـــيبى

- جذور الحقد الصليبى تجاه المسلمين
- الحملة الصليبية الأولى
- الحملة الصليبية الثانية
- الحملة الصليبية الثالثة
- من الحملة الرابعة الى الحملة السابعة
- نتـائج الحملات الصليبية

- جذور الحقد الصليبى تجاه المسلمين :

سبقت الاشارة الى الأوضاع السيئة التى تردى لها العالم الاسلامى - وخاصة فى آسيا - ابان الفترة الأخيرة من حكم الدويلات الاسلامية حيث السلاجقة وحكام الولايات الأتابكية فقد استفحلت الحروب الدامية داخل كل فريق ودويلات الأتابكة هى الأخرى متناثرة ومفككة ، فضلا عن تصاعد الأخطار من جانب الحركات الباطنية وأهمها فئة الحشاشين الذين نشروا الاضطراب والفوضى فى الدولة السلجوقية . أما الفاطميون فكانوا يشكلون الفئة الأخرى المتنازعة على حكم العالم العربى الاسلامى ، وبالرغم من أن الفاطميين كانوا يحكمون مصر ، الا أنهم تركوا دفة الحكم للوزراء المتنافسين على السلطة ، فى حين كان الخلفاء الفاطميون فى حالة تنافس ونزاع مستمر مع الأتابكة بسبب بلاد الشام التى سيطر الفاطميون على الجزء الجنوبى منها عشية الغزو الصليبى حيث كانوا قد احتلوا بيت المقدس سنة ١٠٩٨م . وقد شمل الضعف ، فى حكم العالم الاسلامى ، أيضا الغزنويين فى ايران وما وراء النهر الذين انشغلوا فى محاربة الأتراك ومحاولات توسيع رقعة دولتهم .

أما التهديد الصليبى تجاه العالم الاسلامى فانه يرجع الى فترة تاريخية سابقة على نهاية القرن الخامس الهجرى ، حيث سيطر المسلمون على أجزاء من دولة الروم ، فضلا عن حسرة الصليبيين تجاه ما فقدوه فى شبه جزيرة ايبريا حتى استعادوه من المسلمين وأنهوا بذلك صفحة اسلامية مضيئة فى حركة التاريخ الاسلامى والتى ترجع الى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب حيث سلسلة الحروب والغزوات بين المسلمين والروم قد استمرت فى آسيا الصغرى خلال حكم الدولتين الأموية والعباسية الى عهد سيف الدولة ، ثم تصاعد حملات الكراهية الصليبية تجاه المسلمين والتى اتخذت فيما بعد شكل هجوم حربى استعمارى على البلاد الاسلامية والعربية وخاصة فى الشرق الأدنى من أجل احتلالها وامتلاكها ، ويذكر بعض المؤرخين أن الامبراطور كومنين Alexés Comnene قد استنجد بروبرت كونت الفلاندر (١٠٧١ - ١٠٩٣م) حينما مر به فى سنة ١٠٨٧م

الثانى يستند به لتجهيز حملة ضـــد المسلمين ، وشهدت الفترة اللاحقة أعنف حروب ابادة ضـد المسـلمين فى العصـور الوسطى استمرت حوالى مائتى عـام (١٠٩٦ - ١٢٩١م) وقضت تماما على ملايين البشر ، ودمرت رموز الحضارة الاسلامية(١) .

(١) لعل من أفضل المراجع الحديثة ، دكتور سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٣ .

المصدر : دكتور أحمد قاعور ، دكتور شحادة الناطور ، مرجع سابق .

— الحملة الصليبية الأولى :

تذكر المصادر أن البابا جريجورى كان يرأس مجمعا دينيا فى احدى المدن الايطالية عـام ٤٨٩هـ — ١٠٩٥م ووجه نداءا الى العـالم المسيحى الغربى دعاه الى نصرة اخوانهم فى الدين بالأماكن المقدسة فى فلسطين(٢) ، ويفسر هذا طابع الحمـلة الصليبية الأولى فى سنة ٤٨٨ — ١٠٩٥م لاثارة عواطف مسيحيى أوروبا على ما يلقاه مسيحيو الشرق فى بيت المقدس من اضطهاد ، وذلك حين دعا البابا الى مؤتمر « كليرمونت » ، واتخذ المؤتمرون من مسيحيى أوروبا الكاثوليك قرارا بانفاذ الحملة الصليبية الأولى للأراضى المقدسة وأخذ المسيحيون « المتدينون » ينخرطون فى هـذه الحملة ، ولم يكتف البابا بذلك ، بل راح يطوف فى أرجاء فرنسا ، وايطاليا داعيا الى الجهاد فى سبيل انقاذ مهد المسيح من « المشركين(٣) » .

والغريب أن هـذه الادعاءات المضللة قد وجدت رد فعل حـامى ، فخـرج بطـرس النـاسك ومعـه خمسة عشر ألف صليبى متوجهـا الى القسطنطينية سنة ١٠٩٦م ، ثم تتابعت الحملات الأخرى الى أنطاكية وبيت المقدس حتى سقطت القـدس فى أيديهم سنة ٤٩٣هـ — ١٠٩٩م وحدثت مجزرة رهيبة ذبح فيها الرجال ، والنساء ، والأطفال من سكان المدينة ، ووصل عـدد القتلى الى ستين ألف ، واحتل الصليبيون المدن السـاحلية ، فاحتلوا يافا سنة ١١٠٠م ، ثم أرسوف وقيسـارية وعكا سنة ١١٠٤م ، وقاموا ببناء قلعة الشوبك سنة ١١١٥م ، وتمكنت هذه الحملة من تحقيق هدفها باحتلال جزء كبير من بلاد الشام ، وكان من نتائج هذه الحملة أن ظهرت بوضوح حالة الضعف والتفكك والانقسـام فى الشرق الاسـلامى ، وتكونت المملكة اللاتينية الصليبية فى المشرق العربى ، وامارات ثلاث أخرى

---

(٢) راجع : رفيق التميمى ، الحروب الصليبية ، مطبعة اللواء ، القدس ١٩٤٥ ص ٢٥ — ٢٩ .

(٣) ليس موضوع هذه الدراسة الدخول فى تفاصـيل دقيقة عن الحمـلات الصـليبية وتكتيكاتها أو أساليبها الهجومية وقواتها ، ولكن ما يتعلق هو دلالتها ومغزاها ونتائجها فى العلاقات السياسية الاسـلامية وما أدى اليه تداعى الأحداث من ردود فعل ، وقد حوت المكتبة الاسـلامية والعربية العديد من أمهات المصادر والمراجع والمؤلفات عن الحروب الصليبية من المؤرخين المسلمين والأجانب .

هى الـرها ، وانطـاكية ، وطرابلس ، واستعادت الدولة البيزنطية معظم آسيا الصغرى ٠

غير أن أحد النتائج الايجابية لهـذه الحملة - على صعيد العـلاقات الإسلامية - هو الدور الذى قام به عمادالدين زنكى والى الموصل الذى أخذ فى اعادة ترتيب مدينة حلب بعد أن استقبله أهلها بالود ، وبالفعل أثمرت جهوده فى عـدم تمكن الصليبيين من احتلالهـا سـنة ٥٢٢هـ - ١١٢٧م ثم إتجه الى حماه ، ومنها أخذ يغير على أنطاكية سنة ٥٣٠هـ - ١١٣٥م ، ثم أخذ يعد العدة لكسر شوكة الصليبيين من خـلال تعبئة جهود جيرانه المسـلمين ، والاهتمـام بتدريب الجنود وتسليحهم ٠ وعلى صعيد الـروح المعنوية والقتالية ، فقد تحول العـرب من حالة الاحباط واليأس الى ارتفاع معنوياتهم باستعادة عمادالدين زنكى لامارة الرها سنة ٥٣٩هـ - ١١٤٤م حيث أقنع مسيحيى المشرق أنه جاء لتحريرهم من ظلب الصليبيين وطغيانهم وقد أحدث سقوط الرها ردود فعل حسنة لـدى نفوس المسـلمين ، وكان بمثابة ضربة كبيرة للامارات الصليبية ، غير أن عمادالدين زنكى قد قتل ، وخلفه ابنه نورالدين الـذى اتخذ حلب عاصمة له ، ووقف هو الآخر أمام الصليبيين وقفة قـوية خيبت آمالهم ، فاستنجدوا بأوروبا والبـابا فى سنة ٥٤٢هـ لتبدأ الحملة الصليبية الثانية ٠

وفى تقويم الحملة الصليبية الأولى ، يمكن القول ان الخيانة من جانب وزراء الدولة الفاطمية كان لها دور كبير فى هزيمة المسلمين ، ومن ناحية أخرى فان هذه الخيانة كانت نتيجة لانقسـام العـالم الاسـلامى وقتئذ ، وتفسير ذلك فيما يتعلق بهذا الصدد أن الأفضل شاهنشاه بن بدر المجالى قد بعث رسولا الى الصليبيين لابرام اتفاقية بينه وبينهم ضد السلاجقة ، والمعروف أن السلاجقة سنيون فى حين كان الفاطميون من الشيعة ، وهكذا أثمرت الأحقاد الناتجة من الاختلاف المذهبى نتائجها الضارة على العـلاقات السياسية الاسلامية ، وقضت شروط هـذه الاتفاقية أمرين : أن يستقل الصليبيون بأنطاكية على أن يسمح للفاطميين باقامة شـعائرهم الدينية فى القـدس ، وقد رحب الصليبيون بهذه الاتفاقية ، ولما بلغ ذلك المـلك السلجوقى فى حلب ، فقد قدم معاونة كبيرة لمواجهة جيش الصليبيين ، غير أن هؤلاء تمكنوا من التقدم لحلب والمعرة والبارة ٠

ومن الغريب أن الدولة الفاطمية قد فرحت بهذا الانتصار ، ويرى أسعد طلس أن سبب هذا السرور هو شماتة الفاطميين بالخلافة العباسية المؤيدة للسلاجقة ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى اعتقادهم خطأ بأن الحملة الصليبية هدفها القدس فقط .

كذلك كانت هذه الحملة بمثابة عار في تاريخ الصليبيين لفظاعة ما ارتكبوه فيها من جرائم ، فضلا عن أنه — ونحن بصدد تقويم هذه الحملة — قد نشبت الخلافات الداخلية بين الصليبيين أنفسهم استمرت لمدة قرنين حتى تهيأ للمسلمين استردادها . وقد نجح الصليبيون في تقسيم ساحل الشام — في هذه الفترة — الى مستعمرات أوروبية .

- الحملة الصليبية الثانية :

بدأزحفت الحملة الثانية بقيادة لويس السابع عشر ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا لانقاذ الامارات الصليبية في بلاد الشام ، وهب بارونات فرنسا وألمانيا يتبعون ملوكهم وبدأ الزحف في سنة ٥٤٣هـ - ١١٤٧م حيث وصلوا ساحل صور وعكا ، والتقوا في بيت المقدس ، وعزموا على السير الى دمشق ، وقد واجههم الجيش الاسلامي وهزمهم . وكان الجيش الاسلامي مكونا من فريقين ، فريق الموصل ، وفريق حلب وسدد الفريقان ضربات قاصمة على الجيش الصليبي ، فتفرق جنـوده وقادته ورحلوا عن دمشق ، واستطاع نورالدين أن يسيطر على الشام ومصر ويوحد اماراتها ، وكان الصليبيون يخشونه وخاصة بعـد أن هاجم أنطاكية سنة ١١٤٩م وهزم أميرها(٤) ، واستطاع تحرير عدة مدن ، أما فيما يتعـلق بدمشق فتجدر الاشارة أن نورالدين رأى أن ضمها الى حكمه سيساعد في تحرير الشام وفلسطين ، وهو ما حدث بالفعل حيث صارت دمشـق احدى قواعد التحرير .

وفي سنة ١١٦٩م أرسـل نورالدين قائـده شيركوه وابن أخيـه صلاح‌الدين لمساعدة الخليفة العباسي المتضد ، وتمكن شيركوه من اخماد الفتنة ، وتسلم الوزارة ، وبوفاته تسلم صلاح‌الدين الوزارة وأنهى الخلافة الفاطمية وأخذ نجمه في الصعود بعد أن ضم بلاد الشام ومصر معا في دولة واحدة امتدت من النيل الى الفرات وأحاط بالصليبيين لتبدأ مرحلة جديدة في مقاومة الغزو الصليبي ، حيث أتم صلاح‌الدين فتح طبرية وجنين والغور وحاصر بيروت وعكا وفتحها ، ثم سار نحو غرب الفرات حتى وصل آمد ثم رجع ففتح حلب ، وبلغه أن الفرنجة المقيمين في القدس قصدوا دمشق ، كما أن الفرنجة المقيمين بالكرك والشوبك يريدون المسير الى المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فرجع سريعا وطردهم من دمشق ثم حاصر الكرك سنة ٥٨٠هـ ، وفتح نابلس . ولما هاجم الصليبيون قوافل الحجـاج وسلبوا أمتعتهم وأسروهم ، فقـد صمم صلاح‌الدين على مواجهتهم بالرغم من حشد القوات الصليبية في صفوريا بقيادة « غاى » ملك القدس

---

(٤) عماد الدين الأصفهاني ، تاريخ دولة سلجوق ، القاهرة ١٢٢٨ هـ ص ٢٠٦ .

فاتجه صلاح الدين بجيشه نحو طبرية وكانت المواجهة الحاسمة فى سهل حطين سنة ٥٨٢هـ - ١١٨٧م واستطاع صلاح الدين تحطيم الصليبيين فى هذه المعركة وأسر ملك الفرنجة الكبير ، وصاحب الكرك ، وصاحب جبيل ، ثم سار الى عكا ففتحها ؛ ثم فتح الناصرة ، وقيسارية ، وحيفا ، وصفورية ، ودبورية وأكثر مدن فلسطين(٥) ، وحاصر عسقلان ، والرملة ، وغزة ، والجليل ، والله فاستسلمت جميعا •

تقدم صلاح الدين من هذه الأنتصارات نحو بيت المقدس ليتوج انجازاته بفتحها ، وحاول أن يدخلها سلما لمكانتها المقدسة فى نفوس جميع الأديان السماوية ، غير أن محاولاته باءت بالفشل ، فحاصرها المسلمون حتى طلب الصليبيون الصلح وخرجوا سالمين ، وكان فتح القدس بمثابة نقطة مضيئة فى التاريخ الاسلامى فى هذه الفترة ، وهذا هو العامل الرئيسى فى تقويم هذه المعركة حيث يعتبر حدثا هاما فى أحداث الحروب الصليبية هز العالم الاسلامى الوسيط وذهبت الرسائل الى بغداد ومصر واليمن وغيرها تصف تحرير البيت الأسير ، ويورد ابن خلكان(٦) فى احدى هذه الرسائل كيف حث صلاح الدين المسلمين على متابعة الجهاد حتى تتطهر جميع البقاع المقدسة من الاحتلال والرجس الافرنجى ، وتناول الخطباء فى المساجد رد فعل هذا الحدث العظيم(٧) •

---

(٥) راجع : - ابو شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدس ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية . الجزء الثانى تحقيق محمد حلمى محمد احمد ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٧٤ - ٧٦ •

- ابن شداد ، عز الدين أبو عبد الله محمد بن على الحلبى ، المتوفى سنة ٦٨٤ هـ . الأعلاق الخطيرة ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ، المعهد الفرنسى ١٩٦٢ م •

(٦) ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ . الجزء الثانى ص ٣٦٤ - ٣٧٢ •

(٧) حول سقوط طبريا وعكا والناصرة وقيسارية وحيفا وصيدا فى يد صلاح الدين - راجع : ابن شداد ، بهاء الدين ، كتاب سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة •

- الحملة الصليبية الثالثة :

انطلقت الصيحات من أوروبا تطالب بالقضاء على صلاح الدين واسترجاع بيت المقدس ، ولبى ملوك أوروبا هذا النداء بهدف نجدة الصليبيين فى الشام ومعهم مائة ألف صليبى بقيادة كل من ملك ألمانيا - الذى غرق فى الطريق - وقلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا الى جانب عدد كبير من الأمراء والدوقات ، وقد وصلت الحملة الى عكا ، غير أن جيش المسلمين تمكن من مواجهتها ، ومع ذلك فان البحرية الصليبية قد رجحت كفة الصليبيين ، فاستسلمت المدينة على أن لا يتعرض أحد للمدافعين بسوء ، غير أن الصليبيين فتكوا بالمسلمين ، ثم سار الصليبيون الى يافا فأخلاها المسلمون ، ورأى صلاح الدين تخريب عسقلان والرملة واللد حتى لا تقع فى أيدى الصليبيين ، وسار بقواته الى القدس ، وبالتالى فلم يتمكن الصليبيون من التوسع ، وتخوف ريتشارد قلب الأسد على ملكه ، فحدثت مشاورات بين الطرفين انتهت بعقد صلح الرملة فى ٢٥ أكتوبر ١١٩٢م ، وهو ما تطلق عليه بعض المصادر أنه كان هدنة بين الجانبين فى البر والبحر لثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، على أن تستقر بيد الفرنج موانىء يافا وعكا وقيسارية وأرسوف وحيفا ، وتظل عسقلان خرابا واشترط صلاح الدين دخول بلاد الاسماعيلية فى الهدنة ، فى حين اشترط الفرنج دخول أنطاكية وطرابلس فى الهدنة ، وأن تكون اللد والرملة مناصفة بينهما فتم ذلك .

وفى تقويم الحملة الصليبية الثالثة بظروفها الحرجة ، فان فى رسائل صلاح الدين وأصحابه الدليل المدعم بالوثائق على أوضاع المسلمين الحرجة فى تلك الفترة ، حيث تتابعت امدادات أوروبا وتدفقها على الشام بشكل ليس له مثيل فى حين كانت الامدادات الاسلامية متواضعة فضلا عن الحقد الذى حمله الفرنج معهم ضد الاسلام - كل هذه العوامل وردود فعلها يمكن تلمسها فى رسائل صلاح الدين عن ثقل وطأة هذه الحرب ، وأنه لا مساعد ولا معين الا الله سبحانه وتعالى . ويصف صلاح الدين هذه المعاناة قائلا : « ومن خبر الكفار أنهم الى الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهم أمر من أجاجه ... فاذا قتل المسلمون واحدا فى البحر بعث البحر عوضه ألفا .. فالزرع أكثر من الجداد ... وهذا العدو المقاتل قد زرع عليه من الخنادق أدراعا

متينة ...(٨) » .

وقد حاول صلاح الدين فى هذه الفترة الحرجة الاستنجاد بسيف الاسلام ملك اليمن ، وشرح له الوضع الخطير حول عكا ، وما يعانيه من قلة العدد وتفوق الصليبيين العددى . غير آن ملك اليمن لم يرد عليه(٩) ، كما حاول الصليبيون فى الفترة ذاتها غزو الحجاز والوصول الى المدينة المنورة ، فلما وصل الخبر الى الملك العادل نائب صلاح الدين فى مصر ، ارسل رجاله وأسطوله وتمكن من تدمير الأسطول الصليبى ، ويستدل على ذلك من رسائل صلاح الدين الى الملك العادل(١٠) .

وقد بذل المسلمون حول عكا أقصى جهود ممكنة ، وظهر أبطال قاموا بخوارق الأعمال مثل الفتى الدمشقى الذى اخترع محلولا كيماويا كان سببا فى تدمير الأبراج الثلاثة التى أقامها الصليبيون لاحكام الحصار حول عكا ، ومثل عيسى العوام الذى يحمل الرسائل والنقود الى أهل عكا سابحا فى الماء حتى غرق واكتشفت جثته بعد ذلك . وعندما سقطت عكا ، بعث صلاح الدين بالرسائل الى عدد من الملوك والأمراء يصف سقوط عكا بانه « الفاجعة(١١) » . وعند حلول كارثة سقوط عكا عقد صلاح الدين مؤتمرا مع قواده ومستشاريه قائلا : « اعلموا أنكم جند الاسلام ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم فى ذممكم معلقة ، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم ... والمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم ... » ، وكانت اجابة هؤلاء القادة التى وردت على لسان ابن الشطوب هو افصاحه عن الحب والولاء والثقة المطلقة والطاعة التى يكنها أفراد الجيش لقائدهم قائلا : « ... أنت الذى أعطيتنا عظمتنا ، وليس لنا الا رقابنا ، ونحن بين يديك ، والله ما يرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت(١٢) ... » .

---

(٨) راجع فى تفصيل هذه الوثائق . القلقشندى ، أبو العباس أحمد . صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، الجزء السابع ص ١٢٦ - ١٣١ .

(٩) المصدر نفسه ص ٢٢ - ٢٨ .

(١٠) محمد ماهر حمادة ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الاسلامى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ص ٤١ - ٥٣ .

(١١) ابن الفرات، ناصر الدين محمد ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق أسد رستم وقسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، المطبعة الأمريكية ، بيروت ١٩٤٢ ص ٢٤ - ٢٥ .

(١٢) ابن كثير ، أبو الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير القرشى الدمشقى ، المتوفى

وشكلت أساليب العلاقات السياسية الاسلامية ومهارة ادارتها أحد أهم العوامل في تقويم جهود صلاح الدين حيث دارت بينه وبين قيادات الصليبيين ، أظهر فيها كياسة ، وأدبا ، وحنكة ، ودراية حيث كانت المحصلة النهائية هي فرض الارادة الاسلامية على الصليبيين بتحطيم أحلامهم في استرجاع القدس واحتلال كامل الساحل السوري ، وحين حاول ريتشارد ملك الانجليز أن يجتمع بالسلطان صلاح الدين بعد المواجهة الحربية حول عكا ، غير أن صلاح الدين لقنه درسا فيما عرف فيما بعد بالدبلوماسية ، أو فن الحوار والتفاوض ، وما يجب أن تكون عليه علاقات الملوك ، فقد رفض صلاح الدين الاجتماع به الا بموجب قاعدة ثابتة يتفق عليها الطرفان قائلا(١٣) : « الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة ، وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة ، واذا أراد الملك ذلك فلابد من تقرير قاعدة مثل هذه الحالة ، ولابد من ترجمان نثق فيه في الوسط .. فاذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك ان شاء الله تعالى » .

ويضاف الى العوامل السابقة ، استغلال صلاح الدين رغبة ملك الانجليز لعقد الصلح وتلهفه على ذلك ، فماطله حتى جعله يقبل التنازل عن جزء كبير من مطالبه ، وفي الحرب امتاز صلاح الدين بسرعة حركته وفرديتها ، مثال ذلك هجومه المباغت والمفاجيء ليافا أثناء المفاوضات مع الانجليز وهو ما لم يتوقعه ريتشارد ملك الانجليز ، ولعل أهم العوامل على الاطلاق هي التقوى والتفاني في الدفاع عن الاسلام ، ومقدساته ، وأرضه ، وأهله ، ومع ذلك فان البعض(١٤) يرون أنه تسامح أكثر من اللازم مع الصليبيين رغم جرائمهم الوحشية تجاه المسلمين ، وحرصه الشديد على كسب رضى خليفة المسلمين في بغداد بالرغم من أنه لم يقدم عونا يذكر في الصراع ضد الصليبيين سوى العواطف الكلامية .

وجاءت وفاة صلاح الدين بمثابة صفحة طويت لقائد في التاريخ الاسلامي ضرب مثالا رائعا للغرب المسيحي في المثل والأخلاق الاسلامية .

---

(١٣) ابن شداد ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(١٤) محمد ماهر حمادة ص ٥٣ .

- من الحملة الرابعة الى الحملة السابعة (١٢٠٢ - ١٢٤٩م) :

اضطربت الأحوال بموت صلاح الدين ، ذلك أن الصراع على السلطة قد احتدم بين أولاده وابن أخيه العادل ، الأمر الـــذى استغله الصليبيون وأخذوا يجمعون قواتهم لغزو المسلمين ، وقد تمكن الملك العادل من توحيد الشام ومصر ، وعنـــدما تجمعت جيوش الصليبيين وأغاروا على حصـــاه ثم خرجوا الى بيت المقدس ، فقد هرع اليهم المـــلك العـادل حيث اضطر الفرنجة لمهادنته ، وتم الصلح على أن يسلم اليهم مدن يافا والناصرة واللد والرملة .

ومن ناحية أخـرى كان البابا أنوسنت الثـــالث ١١٩٨ - ١٢١٦م قد دعا الى الحملة الرابعة التى كان من أهم زعمـائها بلدوين دوق فلندره ، وقد اتفـــق مع رئيس جمهـــورية البنـــدقية « وندولو » على نقلهم الى القسطنطينية ، فأعادوا الامبراطور المخلوع سنة ١٢٠٣م ، ولما لم يستطع أن يدفع لهم ، قاموا باحتـــلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤م وأقاموا المملـكة اللاتينية التى استمرت الى سنة ١٢٦١م .

وفيما يتعـــلق بالحملة الخامسة ، فقد اتجهت الى مصـــر وانهـزم الصليبيون(١٥) فيها - وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة - وفى الشام قـدم على ســواحل عـكا فى ســـنة ٦٠٢هـ - ١٢٠٤م جمع كبـــير من الفرنج الألمان والنمساويين والمجر فدخلوها ، وكان الأيوبيون مشـغولين بمشكلاتهم الداخلية وقد غنم الفـرنج من المسلمين مغانم كثـيرة ، ونظرا لوجود كثير من الشباب المتحمس فى عنصريته ضد المسلمين ، فقد سميت هذه الحملة بحملة « الشباب » ، ولما مات الملك العـــادل فى سنة ٦١٥هـ ازداد البلاء على المسلمين وطمع فيهم الصليبيون ، واســـتولوا على أقاليم عديدة فى الشام ، ولما استولى الصليبيون على دمياط فى مصر ، واتجهوا نحو المنصورة ، فقد عظم الأمر على الأيوبيين ، وطلبوا الصلح من الفرنجة على أن يتنازلوا لهم عن القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجميع ما فتـح

صلاح الدين من ساحل الشام(١٦) ، باستثناء الكرك والشوبك ، فلم يرض الفرنج وطلبوا ثلاثمائة الف دينار لقاء تخريب سور القـــدس مصرين على تسليم الكرك والشوبك ، وواجة جيش المسلمين الأيوبى جيش الصليبيين وتم النصر للمسلمين وأسروا ثلاثين ألفـا من الصليبيين • ويقول صـاحب كتاب الروضتين فى أخبـــار الدولتين : « وبلغنى أن النصـــارى ببعلبك سودوا وسخموا وجوه الصور فى كنيستهم حزنا على ما جرى على الفرنج » ، ويعلق محمد أسعد طلس على ذلـــك قائلا : ان سبب تسليم القـــدس للصليبيين لم يكن آتيا من ضعف القوى الاسلامية ، بل نتيجة للخلاف بين الملكين الكامل والمعظم ، فقد كان الكامل يخشى أنه فى حالة توجهه لمقاتلة الامبراطور فردريك أن يفاجئه المـــلك المعظم ، ففضل تسليم القـدس الى فردريك •

وتتداخل أحداث الحملة الخامسة مع أحداث الحملة الســادسة والتى قادها الامبراطور فردريك (٦٢٤هـ - ١٢٢٨م) ، ولم يدخل أى معركة ، ولكنه أرسل يطلب التفاوض مع الملك الكامل الأيوبى لتسلم القدس وبيت لحم والناصرة ، وهى الأماكن المقدسة عند المسيحيين ، وتمت اتفاقية يافا سنة ١٢٣٩م ومدتها عشر سنوات ، واشترط المـلك الكامل عدم تعرضهم لقبة الصخرة أو المســجد الأقصى ، وعاد فـردريك الى أوروبا ، وأصبحت مملكة بيت المقدس تابعـــة للامبراطورية الرومانية المقدسة(١٧) • أما رد فعل الحملة السادسة على الرأى العام الاسلامى فكانت سيئة للغاية حيث شعر المسلمون بالاحباط لتصرف الملك الكامل ، وساءت أمور الأيوبيين ، بل ان بعضهم قد استعانوا بالفرنجة ، وظلت البـلاد لا تتسم بالاستقرار السياسى والداخلى حتى الزحف المغولى ، وظلت القدس بأيدى الصليبيين الى أن استردها المـلك الصـالح أيوب فى سنة ٦٣٧ - ٦٤٧هـ بمساعدة الخوارزميين •

أما الحملة السابعة والأخيرة فقد قادها لويس التاسع ملك فرنسـا بهدف استرجاع بيت المقـدس والانتقـــام من المسلمين الذين أسروه فى

---

(١٦) راجع • العماد الأصفهانى ، محمد بن محمد ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد صبيح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة •

(١٧) دكتور أحمد قاعور ، شحاذة الناطور ص ٢٢ نقلا عن الصفدى ، صلاح الدين خليل ايبك ، المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، الوافى بالوفيات ، وزارة المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ •

المنصورة ، غير أنه فشل ، وأسر من الجيش الفرنسى ما يقترب من ثلاثين ألفا[١٨] . وبذلك انتهت فترة الحروب الصليبية التى دامت قرابة قرنين (٤٩١ - ٦٩٠هـ) ، وأكدت معركة حطين وما تلاها أن وجود الصليبيين فى الاراضى المقدسة أصبح أمر وقت ، وقام قلاوون أحد سلاطين المماليك باحتلال طرابلس سنة ١٢٨٩م ، وأنهى ابنه خليل آخر معاقلهم فى عكا سنة ١٢٩١م ، وبذلك فقد تطهرت بلاد الشام من اعتداءات الصليبيين وظلمهم وعسفهم واعتداءاتهم المتكررة على المسلمين ، ومن الثابت أنه مهما قيل فى وصف حكم سلاطين المماليك فى مصر والشام ، فان أوائلهم كالظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون كانا محاربين من نوع نادر ، وأعادا وحدة العالم الاسلامى فى الشام ومصر ، كما حاربا الصليبيين وانتزعا معاقلهم واحدا بعد الآخر حتى تم اجلاؤهم عن سوريا سنة ١٢٩١م - كما سبقت الاشارة - الى جانب هزيمتهم للروم والبيزنطيين أكثر من مرة . ويعنى ذلك أن انهاء الحكم الصليبى كان من خلال الملك الظاهر بيبرس والذى كان ضابطا وقائدا للفرسان فى أواخر الأيوبيين ، وحين بلغ العجز أشده بحكام سوريا الفرنج ، فقد ألحوا فى طلب الهدنات مع الظاهر بيبرس ، بل وقد أصبح هو نفسه حكما بينهم كما حدث عندما تآمر كل من ملك قبرص وحاكم عكا على صاحبة بيروت واحتالا عليها لتترك مملكتها وتذهب الى قبرص ، فبقيت بيروت بدون حاكم ، فارسل الظاهر بيبرس الى صاحب عكا يقول : « هذه الملكة بينى وبينها هدنة ، وما سافر زوجها ... ، وعاد معها اذا سافرت تستودعنى بلادها ، ومن هذه المرة ما سيرت لى رسولا ، ولابد من حضورها ، وأن تتوجه رسلى وتشاهدها ، والا فأنا أحق ببلادها[١٩] » .

سبقت الاشارة أن موضوع هذه الدراسة هو ما يتعلق بالعلاقات

---

(١٨) وتعهد ملكهم فرنسا بألا يعود ثانية الى شواطىء الاسلام ، وتضارب المصادر حول ذكر أحداث الحملة السابقة ، حيث تذكر احداها انه مات بالطاعون سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٧٠ م . قارن : المقريزى ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ، الخطط المقريزية ، مكتبة احياء العلوم ، الشياح ، لبنان . الذهبى ، محمد بن أحمد . كتاب العبر فى خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ١٩٦٠ ، الجزء الخامس - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، الجزء السادس ، القاهرة .

السياسية الاسلامية وانتشار الاسلام فى آسيا ، وهو المتغير المستقل فى منهج الدراسة واذا كان هناك متغيرات تابعة ، ومنهـا دور السلاطين المماليك وخاصة فى مصر ، فان هـذا المتغير التابع يعتبر رافدا من المتغير المستقل ، وقد عرضناه بما يخدم تحقيق أهداف الدراسة ، وفى هـذا الصدد فقد قام المماليك فى أوائل عهدهم بدور كبير فى تمسك المسلمين فى الشام ، عسكريا وسياسيا أيضا حيث تجلت المهارة السياسية للظاهر بيبرس فى تنفيذ خططه فى تطهير بلاد الشـام من الصليبيين ليس بالاستعداد الحربى فحسب ، وانما بالجهود السياسية أو ما اصطلح على تسميته فيما بعد بالدبلوماسية(٢٠) أى من التفاوض ، وفى هـذا المقـام حالف الظـاهر بيبرس بعض الصليبيين لفترة ، ليأمن جانبهم ، ويتفرغ للآخرين ، كما فعل عندما عقد عدة هدنات مع بيروت ، وفى نفس الوقت هاجم بقية معاقلهم فى صفد والشقيف واللاذقية ويافا وانطاكية وفتحهـا كلها ، وتم هذا من خـلال حنكة حربية وسياسية ، فبعـد استيلائه على انطـاكية أرسل الى صاحبهـا بوهيموند السادس ، وكان يحكم أنطـاكية وطرابلس معا ، وكان يلقب بالبـرنس يخبره بفتحه أنطاكية ويخـاطبه بالقومص ، ذلك أن سقوط أنطاكية بيـد السلطان جعلت رتبة بوهيموند تهبط من الامارة الى الكونتية ، كما وأن فتحها دليـل على مهارة المـلك الظاهر ، فقد هاجم طرابلس أولا ، وعندما دافع بوهيموند عنها ، انسحب السلطان من ضواحيها ، فظن بوهيموند أن دفاعه كان السبب فى رحيل السلطان واحباط الهجوم على طرابلس ، ولذلك ركن الى الراحة ، غير أن ذلك لم يكن سوى جزءا من تخطيط الهجوم ، فقـد أوهم المـلك الظاهر خصمه أن الهجوم الرئيسى هو على طرابلس ، فى حين أن هدف الهجـوم كان أنطاكية التى حاصرها ولم يلبث أن استولى عليها وفى رسالته السابقة يقول له : « فلو رأيت خيـالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيل ، وديارك والنهـابة فيهـا تصـول والكآبة فيها تجول ... لكنت قلت : يا ليتنى كنت ترابا ... ولتعـلم انا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الاسلام » . ويعلق المقريزى على أسلوب الملك الظاهر الذى يتسم بالروح المرحة التهكمية قائلا : « ... دأب السلطـان على نفس الأسلوب

---

(٢٠) راجع فى تفصيل ذلك : المقريزى ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ . تحقيق محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٤ ، الجزء

مع بوهيموند من ارسال الرسائل له بعــــه أن يقتطع من أملاكه بلدا من البلدان ، كما فعل لما احتل حصن عكار من أملاك طرابلس ، فقد أرسل له رسالة ثانية تفيض سخرية ، وهى بمثابة انذار بالتسليم أو الرحيل(٢١) .

توفى الملك الظاهر بيبرس وهو فى قمة مجده بعــد أن حطم القسم الأكبر من الاحتلال الصليبى لبلاد الشام ، وترك للملك المنصور(٢٢) أعباء انجاز ما بدأه . وقد تمكن قلاوون من تحرير ما بقى من معاقل الصليبيين فى بلاد الشام باستثناء صور التى جرى تحريرها فى فترة حكم ابنه الملك الأشرف ، وسار قلاوون على سياسة الملك الظاهر فعقد الهدنات مع مملكة عكا ، ليتفـــرغ لفتح طرابلس ، وبعد تحـريره طرابلس رجع الى عــكا ، وقد سبقت الاشارة الى خاتمة العدوان الصلبى على يد الملك الأشراف خليل الـــذى طهر صور سنة ١٢٩١م ، وانتهت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الثالث عشر الميـــلادى ولكنها خلفت فى العـــالم الاسلامى — رغم الانتصارات الاسلامية وفرض القـــادة المســـلمين ارادتهم على المغتصبين الصليبيين — خلفت آثارا رهيبة ونتائج بعيدة المـدى وخطيرة فى الوقت ذاته يمكن اجمالها — فيما يتعلق بمجال هذه الدراسة فيما يأتى :

---

(٢١) المصدر نفسه .

(٢٢) على الرغم من ان السلطان بركة هو الذى خلف والده الملك الظاهر فى العرش

- **نتائج الحملات الصليبية :**

أولا :

ساهمت الحروب الصليبية فى تغيير عقلية الصليبيين ، وجعلتهم يطلعون على حضارة أرقى من حضارتهم ، وصححت كثيرا من مفاهيمهم عن الاسلام والمسلمين ، غير أنها أوضحت مدى الحقد والأطماع تجاه العالم الاسلامى ، ووضعت نواة الاستشراق حيث اتجه الرهبان لدراسة الفكر الاسلامى ، واللغة العربية ، ويركزون على الوسائل السلمية للتسرب الى العالم الاسلامى بعد اخفاق الوسائل العسكرية ، كما لفتت هذه الحروب أنظار الأوروبيين للاستعمار فيما بعد ، باعتبارها - أى الحروب الصليبية - أول تجربة من الاستعمار الأوروبى لتحقيق مكاسب اقتصادية .

ثانيا :

اذا كانت هذه الحروب قد أدت الى نتائج ايجابية بالنسبة الى أوروبا ، فقد تركت آثارا سيئة على المشرق الاسلامى حيث اقترن طرد الصليبيين بتدمير عدد من المدن مثل عكا ، وأنطاكية ، وطرابلس ، بالاضافة الى امتصاص جهود وطاقة العالم الاسلامى من أجل الدفاع عن كيانه ، لكن ذلك كان نتيجة ايقاد روح التعصب المقيت بين المسلمين أنفسهم وفى بلادهم تجاه أهل الذمة ، وقد لاقى منها المسلمون شرا مستطيرا .

ثالثا :

صحيح أن البلاد الاسلامية قد كرست نشاطها ومواردها للقضاء على الغزاة ، وبذلك تدهورت الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة ، لكن الصحيح أيضا أن المسلمين قد تأثروا بعادات الصليبيين فى كثير من مهاراتهم فى البيوع والتجارة ، وبالمقابل نقل الصليبيون كثيرا من أصول الهندسة البنائية فى الفن الاسلامى المعمارى ، وانعكس ذلك على كثير من من الأبنية من قصور وكنائس ، كما أفاد الأوروبيون فى الفترة اللاحقة - وخاصة الايطاليون - فى مجال التبادل التجارى مع الشرق الاسلامى الذى أدرك أهمية التعاون الاقتصادى المشترك .

رابعا :

على الصعيد الثقافى ، فان الحياة الثقافية الاسلامية أبدعت بعد أن

كان الجمود قد أصابها ، وكان هذا التجديد والابداع نتيجة الاحتكاك بالثقافة الأوروبية وقد سبقت الاشارة الى الخطوات البطيئة فى تحقيق الحضارة التى سارت اليها فى العصر العباسى الثانى والثالث ، لكن تزامن الغزو الصليبى مع الغزو المغولى كان له نتيجته السلبية على رموز الحضارة الاسلامية حيث فقدت الى حد ما بعض أصالتها فجعلها تلجأ الى التقليد ، وكان لذلك تأثيره فى الجمود الفكرى والحضارى الذى حل بالبلاد لفترة طويلة .

خامسا :

ساهمت الحروب الصليبية فى اضعاف نفوذ البابوية فى الغرب ، وبالتالى الكنيسة ، وفى اضعاف نظام الاقطاع بمفاهيمه ومكوناته السائدة وقتئذ فى أوروبا ، وكان لذلك تأثيره فى تأسيس الملكيات المطلقة ثم فى فترة لاحقة فى انهاء ملامح مجتمعات العصور الوسطى وبداية عصر النهضة الأوروبية .

سادسا :

لعل أهم النتائج على صعيد المشرق الاسلامى ، هو أهمية عنصر القيادة الاسلامية الحقيقية التى استقطبت جهود المسلمين الى جانبها ، فكان ظهور عمادالدين زنكى وقيامه بدور بارز فى مقارعة الصليبيين ثم بعده ابنه نورالدين الذى قام بانجازات عظيمة من خلال تكوين جبهة متحدة متضامنة من مصر والشام ، ثم صلاح‌الدين الذى أكمل الحلقة الأخيرة فأنزل ضربته القاصمة فى حطين لتقضى على آمال الصليبيين فى احتلال القدس .

والخلاصة ان محصلة الحروب الصليبية كانت فادحة الثمن بالنسبة للعالم الاسلامى الذى خسر فيها الكثير واذا كانت الحملة الصليبية الأولى قد حققت هدفها فى الوصول الى بيت المقدس ، واقامة عدة امارات ، فان انتصارها لا يرجع لقوة الصليبيين ولكن يعود لضعف تجمعات القوى الاسلامية وعدم تعبئة جهودها وامكانياتها بالقدر المناسب فى ذلك الوقت فى الشام والعراق ومصر رغم الايجابيات التى أسهمت وأهمها القيادات السياسية والعسكرية الاسلامية ودورها فى انحسار هذه الحملات ، حيث كانت هذه القيادات قوة فاعلة مشجعة قادرة على الاستجابة للتحديات .

فصل ختامي

في

الفتوحات الاسلامية وتاثيرها على العلاقات السياسية فى آسيا

حاولت جهدى فى هذه الدراسة الموجزة أن أعالج موضوع الفتوحات الاسلامية والعلاقات السياسية فى آسيا منذ عصر النبوة والخلافة الراشدة ومرورا بالدولتين الأموية والعباسية وانتهاءا بالغزو الصليبى للعالم الاسلامى والذى تزامن مع الغزو المغولى بشكل أو بآخر ٠

ان أهم النتائج التى تم التوصل اليها أن المسلمين الأوائل هم الذين صنعوا التاريخ الاسلامى ولا يمكن أن يكون هناك شعب تاريخه أكثر ارتباطا بالأشخاص أكثر من التاريخ الاسلامى فى عداد القوى العالمية فى فترة فتوحاتها حيث كان يحسب لها حسابها منذ أن استقر رأى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على توسيع دعوته فى الأقطار المجاورة وأرسل رسلا حملوا رسائله الى ملوك زمانه المجاورين لبلاد العرب يدعونهم الى الدخول فى الاسلام واتباع شريعته الغراء ، قد سبقت الاشارة الى اثنين من هؤلاء الرسل وهما : عمرو بن العاص السهمى الذى ذهب الى عمان وصحار ، وأبى العلاء الحضرمى الذى أرسل الى البحرين (هجر) واجتمع الى عبد الله بن الجلندى أمير عمان ، والى شقيقه جعفر أمير صحار ، فرحبا به ، وأعلنا وقومهما الدخول فى الاسلام ونطقوا جميعا بالشهادة ٠

وفى البحرين نجح أبو العلاء الحضرمى حيث استجاب المنذر بن سارو العبدى ، أمير المنطقة للدعوة ، ودخل الدين الاسلامى الحنيف مع قومه ، وفيهم ممثل الدولة الكسروية وبعض أعضاء الجالية الفارسية وهكذا دانت الضفة الغربية للخليج بالاسلام ، أما الضفة الشرقية للخليج فقد كانت مأهولة بأكثرية غير عربية ، فكانت معركة القادسية فى السنة السادسة عشرة للهجرة بين العرب والفرس الخطوة الأولى التى خطاها الفاتحون العرب للسيطرة على هذه الضفة حيث انتهت بنصر كبير حققه سعد بن أبى وقاص الذى طارد المنهزمين من جيوش الأكاسرة حتى بلغ عاصمتهم « المدائن » وفيها ايوان كسرى الشهير فدخلها ورفع علم الاسلام على أسوارها ٠

قام الفاتحون العرب بتحرير العراق الذى أدمج فى الدولة الاسلامية الفتية وواصلت الجيوش الاسلامية زحفها شرقا موغلة فى أواسط آسيا ، وفى سنة ٩٢ هـ/٧١١ م تحررت منطقة شرق شبه الجزيرة العربية وصولا الى قلب آسيا وتم ضمها الى الدولة العربية على يد محمد بن القاسم

لعبد الملك بن مروان وأرسل على رأس حملة عسكرية واصلت الزحف من « واسط » عاصمة العراق وقتئذ ، حتى بلوجستان مكتسحة الضفة الشرقية للخليج العربى وانطلقت الأساطيل العربية من ثغورها الى موانىء الهند وسيلان وبورما وبلغ المد الاقتصادى العربى مرحلة كبيرة تم خلالها احتكار التجار المسلمين للتجارة بين الهند والشرق الأقصى وكان للبحارة العرب والتجار العرب دور أعظم بكثير وهو التبشير بالاسلام ونشره فى جميع الثغور والأماكن فى آسيا التى يقفون عليها ، أو يمرون بها ، ويتفق المؤرخون أن نشر الاسلام فى سواحل الهند وسيلان وبورما كان من خلال الجهود الرائدة لعرب شبه الجزيرة العربية فضلا عن اندفاع البحارة والتجار العرب نحو الصين وانشائهم المراكز التجارية فى بعض سواحلها وموانيها واعتناق كثير من الصينيين للدين الاسلامى ٠

ان الفتوحات الاسلامية فى آسيا وما ارتبط بها من علاقات سياسية ترتبط بدون شك بالدولة الأموية وهو ما يستحق وقفة لتقويم دور هذه الدولة ، فقد سبقت الاشارة أن الدولة الأموية شقت طريقها بين الكثير من المتاعب فكانت تتقى باحدى يديها ما يواجهها من ضربات فى الداخل ، وتضرب باليد الأخرى هؤلاء الأعداء الأجانب الذين يحيطون بالدولة الاسلامية الفتية فتردهم الى الوراء وترغمهم على الخضوع حتى استطاعت أن تمد سلطانها ذات اليمين وذات الشمال فوصلت الفتوحات الاسلامية الى بلاد الصين شرقا ٠ والى المحيط الهندى والصحراء الافريقية الكبرى جنوبا ٠

وهذه الفتوحات الخالدة التى تمت فى العهد الأموى وفقا لرؤى الدكتور محمد الطيب النجار هى التى ارتفع عليها صرح الدولة وسط العواصف الهوجاء التى كانت تتناوشها « لو كان الجو صفا لبنى أمية ونعموا بالهدوء والسلام فى الداخل ٠ ماذا كان سيتم على أيديهم من فتوحات ؟ وأغلب الظن أن الأرض كانت ستبدل غير الأرض ، وان موجة الفتح الاسلامى كانت ستكتسح كل ما يصادفها من عقبات فيعلو لواء الاسلام خفاقا فى أغلب الأنحاء من أرض الله الواسعة » ٠

كما سبقت الاشارة أن الفتوحات تضمنت فى ثناياها العلاقة بين الأمويين ودولة الروم ، لأن المسلمين حينما فتحوا بلاد الشام ومصر انما كانوا يمزقون دولة الروم ويقتطعون منها جزءا بعد جزء ولأن الأمويين

أبواب العاصمة البيزنطية انما كانوا يتمون شـــوط الفتوحات الذي بدأه الخلفاء الراشدون من قبلهم ··· ولأن دولة الروم حينما كانت تغير - أحيانا - على أطراف الدولة الاسلامية في العهد الأموي فهي انما تريد أن تضعف قوة هذا الفتح العظيم ، وتحاول استرجاع مجدها القديم الذي نال منه العرب وأصابه المسلمون في الصميم ·

وفي تقويم الفتوحات الإســـلامية في العصر الأموي يستطرد فضيلة الدكتور محمد الطيب النجار قائلا : « ان معاوية قد ورث عن أســـلافه من الخلفاء الراشدين ملكا واسعا عرضا يحتاج الى جهـــود مضنية حتى يتوطد الأمن والسلام في ربوعه لم يكن ليصرف معـاوية عن التطلع الى المزيد من المجد والسلطان فرتب الشواتي والصوائف - مما سبقت الاشارة اليـــه تفصيلا - حتى يتتابع الغزو والجهاد ، وحتى لا يركن المسلمون الى الكسل والخمول ويحافظوا على ما ورثوه من أمجاد حيث فتحت بلاد الفرس في عهد الراشدين حتى بلاد ما وراء النهر · كما فتحت الشام وأجزاء من أفريقيـا وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة وعموما فقـــد حاولت أطراف بلاد فارس أن تتخلص من الجزية المفروضة عليها فقامت بثورة ضد الحكم العربي فأخضعت جيوش معاوية هذه الثورة ثم تابعت الزحف شرقا للتوسع في الفتح فعبرت نهر جيحون وفتحت بخارى ثم سمرقند وترمذ ·

وكان الرومان قد أكثروا من الغارات على حدود الدولة الإسلامية في الناحية الشمالية الغربية ، فأخذ معاوية العدة وجيش الجيوش وانتصر عليهم في مواقع كثيرة ·

وأرسل جيشا كبيرا فتح القسطنطينية · وهذه المحاولة تدل وفقـــا لهذه الآراء على اعتداده بقوة جيشه وثقته الكاملة · وكان ذلك في ســـنة ٤٨ هـ وقد خرج الى هذه المعركة عدد من الصحابة وجاهدوا حق الجهـــاد ولكنهم لم ينالوا من أسوار القسطنطينية وحصونها المنيعة شيئا ، واستعصت عليهم فلم يستطيعوا فتحها ·

وعلى الرغم من فصل تلك المحاولة فقد استولى العرب على جزيرة كبيرة بالقرب من القسطنطينية وبقيت في أيديهم سبع سنوات ثم تركها يزيد بن معاوية في مدة خلافته ·

الى طمع الدولة الرومانية فى استرداد شىء من نفوذها القديم وارجاع بعض البلاد التى فتحها المسلمون من قبل ·

وكان عقبة بن نافع قد وصل الى شـــاطىء المحيط الأطلسى فتحالف الرومان مع البربر وتعاونوا على اضعاف النفوذ العربى وتمكنوا من قتـل عقبة بن نافع وهزيمة جيشه ، كما ان الرومان قد أغاروا على بلاد الشـام ومنها « المصيصة » وتقع على حدود الشام وأصبحت الدولة الاسلامية تشعر بمزيد من الخوف والقلق بسبب هذا العدو المتربص ·

وتولى عبد الملك بن مروان الخلافة فى هذه الظروف العصيبة ، فعقـد فى أول الأمر هدنة مع الدولة الرومانية وكان الغرض منها كسب الوقت حتى يتهيأ له الجو المناسب ويتخلص من أعدائه فى الداخل ، ثم زادت رحى القتال فى آسيا الصغرى وقد اشترك الامبراطور البيزنطى بنفسه فى القتال ولكنه ارتد مهزوما أمام جيوش عبد الملك · ويرجع ذلك الى عدم الانسجام والتعاون فى جيوش الامبراطور البيزنطى حتى لقد انضمت بعض عناصره الى المسلمين وكانوا - فيما بعد - خير عون لهم فى معرفة الطرق والمسالك والمعاقل الهامة فى آسيا الصغرى ·

وأما فى المشرق فقد اتجه عبد الملك الى التوسع فى بلاد ما وراء النهر ففتح قائده المهلب بن أبى صفرة كش ، وفتح ابنـــه يزيد بعض القـلاع الأخرى ·· وكان يرجى على يد المهلب خير كثير لو امتد به العمر لما كان يمتاز به من شجاعة وطموح وسماحة نفس حببته الى الناس ومكنت له فى قلوبهم · ولكنه مات فى ذى الحجة سنة ٧٢ هـ ·

وجاء الوليد بن عبد الملك فعادت أيام الفتوحات الاسلامية الأولى عـلى عهد أبى بكر وعمر ، وانصرف الناس الى الجهاد فى سبيل الله وجعلوه هدفهم وغايتهم فكتب الله لهم النجاح والتوفيق ··

وقد اشتهر فى عهد الوليد أربعة من القـــواد كان لهم أثر عظيم فى هذه الفتوحات ، وهم قتيبة بن مسلم الباهلى ، ومحمد بن القاسم الثقفى ، وموسى بن نصير ، ومسلمة بن عبد الملك ·

فأما قتيبة بن مسلم فقد ولاه الحجاج الثقفى على خراسان سنة ٨٦ هـ

سنة ٨٧ هـ أغار قتيبة على الصغد ، وفى سنة ٨٨ هـ أستخلف قتيبة على مرآخاه بشار بن مسلم وواصل فتوحاته فكان النصر حليفه فى بلاد كرملية ثم سار الى بخارى وتمكن من فتحها بعد كفاح طويل .

وفى سنة ٩٣ غزا قتيبة مدينة سمرقند ففتحها بعد قتال شديد ، وفى سنة ٩٤ هـ اتجه الى مدينة خجنده وتمكن من فتحها بعد نضال عنيف . ثم فتح مدينة كاسان وهى عاصمة بلاد فرغانة .

وهذا العرض السريع لفتوحات قتيبة بن مسلم يوضح لنا أنه منذ تولى خراسان لم ينم لحظه واحدة عن الكفاح حتى لفت بكفاحه ا وانم نظر الخليفة الوليد بن عبد الملك فأرسل كتابا يدل على مدى تقديره له .

وكان من الطبيعى أن يزداد شجاعة ، واقداما بعد وصول كتاب الخليفة له فنراه يسير الى حدود الصين على رأس جيش عظيم .. وبالرغم من علمه وهو فى الطريق بوفاة الوليد الا أنه مضى فى سبيله حتى قرب من الصين ، وبعد أن دارت بينهم وبينه عدة مراسلات قال ملك الصين موجها كلامه الى العرب : « انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف فانى عرفت حرصه وقلة أصحابه والا أبعث اليكم من يهلككم ويهلكه . فقال له هبيرة « كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادكم وآخرها فى منابت الزيتون ؟ كيف يكون حريصا من خابر الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ ، وأما تخويفك بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ، ولا نخافه » . فأجابه ملك الصين : فما الذى يرضى صاحبك ؟ فقال له هبيرة : « انه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية » فقال الملك : « فانا نخرجه من يمينه ، نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث اليه بجزية يرضاها » ، ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة ، فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب ، ثم عاد بعد ذلك الى خراسان .

ويستطرد فضيلة الدكتور محمد الطيب النجار قائلا : « ويتضح لنا من ذلك مدى ما كان يتمتع به قتيبة بن مسلم من هيبة ونفوذ عظيم . فان مثل هذا الاذلال الذى أصاب ملك الصين يقوم مقام الفتح لهذه البلاد أو

القلوب وتملى ارادتها فى عزة واباء ، وكيف كان الأعداء يذعنون أمام تلك الروح التى يتمتع بها مثل هؤلاء القادة الأمناء »

أما محمد بن القاسم الثقفى فقد سبقت الاشارة تفصيلا له فهو فاتح بلاد السند وهى البلاد الممتدة من ايران غربا الى جبال الهملايا فى الشمال الشرقى ، وتكون جزءا كبيرا من دولة الباكستان حاليا .

وكانت هذه البلاد فى عهد الوليد ملجأ للخارجين على الدولة الأموية وكان يخرج منها أحيانا بعض القراصنة فيغيرون على التجار المسلمين فاذا طلب الى ملكهم أن يرد للمسلمين كرامتهم واعتبارهم لم يستجب ، فكان ذلك مما دعا الحجاج الى أن يلح على الخليفة فى فتح هذه البلاد ، ليرد هذا العدوان ويؤمن طريق التجارة وحدود البلاد الاسلامية .

وقد بدأ سير حملة محمد بن القاسم الثقفى الى بلاد السند سنة ٨٩ هـ فاتجه الى مدينة الديبل وظل يحاصرها حتى تمكن من الاستيلاء عليها عنوة . ثم اتجه الى البيرون فاستقبله أهلها استقبالا حسنا ، وأخذ يواصل الفتح والتوسع حتى التقى بملكهم « داهر » على نهر السند ودارت معركة رهيبة بين الفريقين ، وانتهت بقتل « داهر » وهزيمة اتباعه .

واستمر محمد بن القاسم الثقفى فى غزوه وتوسعه حتى وصل الى الملتان فى جنوب بلاد البنجاب فقاتله أهلها فانتصر عليهم ، وظل ينتقل من نصر الى نصر حتى دانت له جميع بلاد السند .

ولما مات الوليد سنة ٩٦ هـ وتولى سليمان بن عبد الملك استدعى محمد بن القاسم وولى على هذه البلاد يزيد بن أبى كبشة السكسكى ثم جوزى محمد بن القاسم بعد هذا الفتح العظيم جزاء سنمار ، فحمل من بلاد السند مقيدا مغلولا ، وبكاه أهلها أحر بكاء .

وقد مات تحت تأثير العذاب الذى صب عليه من صالح بن عبد الرحمن وما كان ينبغى أن تكون تلك نهاية القائد الشجاع الذى رفع لواء الاسلام والعروبة ولكنها الأحقاد والمؤامرات والأنانية التى تمتلىء بهـا النفوس ، فتفيض بالشر والبلاء .

الروم فى آسيا الصغرى ، فافتتح كثيرا من معاقلها الهامة ، وكان يسير اليه الجنود فى كل عام فيفتتح ما أمامه من الحصون العظيمة التى اقامها الروم لحفظ بلادهم ومن الحصون التي افتتحوها حصن طوانه وحصن عموريه وهرقلة وسبسطية وقمونية وطرسوس ، الى غير ذلك من الحصون حتى القوا الرعب والفزع فى نفوس الروم ، ولما اطمأن الخليفة الوليد الى أن أخاه مسلمة قد عهد الطريق الى القسطنطينية ، بدأ فى اعداد حملة لمهاجمتها . وكانت الاستعدادات لهذه الحملة واسعة النطاق حتى ترامت أخبارها الى الروم فأوفد الامبراطور الرومانى انسطاس الثانى سفارة الى دمشق للتباحث مع السلطات الاسلامية فى شأن عقد هدنة بين الدولتين ، ولكن كان الغرض منها فى الواقع هو التأكد من صدق عزيمة المسلمين فى غزو القسطنطينية ، ولما وصل هذا الوفد الرومانى الى دمشق وضح له أن المسلمين جادون فى اعداد هذه الحملة فعادوا الى الامبراطور « البيزنطى » ينصحونه باتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة ، ويبلغونه صدق عزيمة المسلمين على الجهاد فى هذا السبيل .

على أن هذا الاعداد الضخم لغزو القسطنطينية لم يقدر له أن ينتهى فى عهد الوليد ، فقام بهذا المشروع العظيم من بعده أخوه الخليفة سليمان بن عبد الملك وبذل فى ذلك قصارى جهده حتى تم اعداد الجيش وخرج الى القسطنطينية سنة ٩٨ هـ بقيادة مسلمة بن عبد الملك وزوده بتعليمات قوية تؤكد تصميمه على الكفاح من أجل هذه الغاية المجيدة .

وحاصر المسلمون القسطنطينية حصارا قاسيا شديدا على الرغم من برد شتاء قارص رهيب ، ولكن طال الحصار حتى مات سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ . وجاء بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز فآثر أن يدعم ما فتحه المسلمون من بلاد بدل أن يوزع قوتهم فى فتوحات جديدة فعاد المسلمون دون أن يتحقق هذا الأمل .

وفى تقويم ما وصلت اليه الفتوحات الاسلامية فى عهد الوليد يقول فضيلة الدكتور محمد الطيب النجار : « وهكذا يتبين لنا مدى ما وصلت اليه الفتوحات الاسلامية فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وهذا العهد وان لم تطل مدته فهو - بلا ريب - أزهى عهود الدولة الأموية . وكان الفضل فى ذلك الى أعوانه المخلصين وقادته الأمناء ، والى صفاء الجو الداخلى الى حد كبير جعل الدولة تركز قوتها فى كفاح الأعداء من الأجانب وتدعيم النفوذ

الفتوحات بعد عهد الوليد :

احدث ذلك التوسع فى الفتوحات على عهد الوليد هزة قوية فى أرجاء الدولة الإسلامية أشعرت الأعداء فى كل مكان بمزيد من الخوف والرهبة ، واذا كانت سياسة الدولة بعد عهد الوليد قد اقتضت الوقوف عند هذا الحد من الفتوح فان تيار الزحف القوى قد انعكس الى الداخل قوة ايجابية تقمع الفتن والقلاقل التى كانت تنشب بين الحين والحين .

ويستطرد قائلا : « ... وبعد ، فهـــذه نظرة سريعة الى الفتوحات الاسلامية فى عهد الدولة الأموية . وفى اعتقادنا أن هذه الدولة لو اكتفت بمجرد المحافظة على ما ورثته من أسلافها الخلفاء الراشدين ولم تتقدم شبرا واحدا لكفاها ذلك شرفا وفخرا .. ولـكنها قد ضربت فى ميدان الـكفاح والنضال أروع الأمثال وبسطت نفوذها ذات اليمين وذات الشـــمال حتى فتحت بلاد السند وبلاد الأندلس غربا وأضافت الى الرقعة الفسيحة التى ورثتها عن أسلافها فتوحات جديدة كان لها فى تاريخ العرب والمسلمين أثر خالد على اقامة الأمويين بصبرهم وايمانهم قـــد نفذت اليه العلل والأدواء وتسلطت عليه معاول الهدم يوما بعد يوم فنالت منه وعجلت بنهايته » .

وفيما يتعلق بسقوط الدولة الأموية وانتهاء فتوحاتها بالتـالى ، فان المؤرخين يعزون ذلك الى دور الأحزاب المعارضة التى قامت في وجه هـــذه الدولة . وظلت تناصبها العداء حتى لفظت أنفاسها الأخيرة .

فكانت العصبية العربية هى السمة البارزة التى كان يتميز بها حكم بنى أمية وقد تجلى ذلك فى معاملتهم للمسلمين من غير العرب وهى معاملة كانت تختلف الاختلاف كله عن معاملتهم للعرب المسلمين ، فكانوا يسمونهم « الموالى » وهى تسمية تشـعر بسيادة العنصر العربى ، وكانوا لا يسوون بين العربى وغير العربى فى العطاء ولا فى وظائف الدولة وينظرون الى غير العرب نظرة احتقار وازدراء ممزوجة بالبغض والكراهية .

فكانت العصبية العربية فى حيـــاة الدولة الأموية عـاملا من عوامل الضعف ، وسوسا ظل ينخر فى بنائها ويهد كيانها .

أما العصبية القبلية فهى عصبية أضيق نطاقا من العصبية العربيـــة

مستقلة • وهى تقتضى من أفراد القبيلة أن يتعاونوا على الباطل ، ومعنى ذلك أنها تجعل بأس العرب بينهم شديدا • وبلغ من خطـورة العصبية القبلية وآثارها المدمرة أنه ترتب عليها قتل خليفة من الخلفاء الأمويين وهو الوليد بن يزيد •

كما أحيا الأمويون عصبية أخـرى أضيق من العصبية القبلية وهى عصبية الأسرة ، ويوضح لنا ذلك ما فعله معاوية بن أبى سفيان من حملة الناس على الاعتراف بولده يزيد خليفة من بعده وولى عهد له ، ولقد سلك معاوية لتحقيق ذلك سبيل الوعد والوعيد والترغيب والترهيب حتى تمت البيعة ليزيد بينما يوجد غيره ممن يتميزون عنه كالحسين بن على وعبد الله ابن الزبير وغيرهمـا من أفذاذ العرب ، فأوغر هـذا النظام نفوس الجمهرة الغالبة من المسلمين •

ولئن كانت ولاية العهد للأخوة والأبناء من عوامل الشر وأسباب البلاء فان جعل ولاية العهد لاثنين كان أكثر شرا واشـد بلاء ، اذ كان عـاملا من عوامل الهدم يتسلط على الأمويين أنفسهم •

وفضلا عن العوامل السابقة التى عجلت بهـدم الدولة الأموية فقـد اتجه بعض الخلفاء الأمويين الى حياة البذخ والترف وهاموا بها فشغلهم ذلك عن تدبير الأمور الداخلية والخارجية بما فيها الفتوحات ، وصرفهم الى حـد كبير عن ميادين الجد والعمل فكان يزيد بن معاوية كمـا يقول المسعودى : « صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهـود ومنادمة على الشراب •• وغلب على أصحابه وعماله ما كان يفعله من الفسوق ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهى وأظهر الناس شرب الشراب • وكان يزيد ابن عبد الملك بن مروان رجل لهو ولعب » •

والأسباب السابقة كانت الوقود الذى سعر الفتنة وأشعلها فى أرجاء الدولة الاسلامية ، وكانت الأحزاب المعارضة هى الريح التى زادتها تسعرا واشتعالا ، فلما قامت الدعوة لآل البيت فى خراسـان •• كانت الدولة الأموية قد أطيح بها من كل مكان فقاومت بعض الوقت ولـكن لم تكن تلك المقاومة الا صحوة الموت •

وقد سبقت الاشارة الى توحد صفوف الشيعة بعد مقتل الحسين بن

المعروف بابن الحنفية ، ثم دعى من بعده لابنه أبى هاشم . وأخذ أبو هاشم يرتب الدعوى مستعينا بحوارييه من الشيعيين فى حيطة وحذر . ولكن تسربت أسرار هذه الدعوة الى الخليفه الأموى سليمان بن عبد الملك فاستدعى اليه أبا هاشم وتظاهر باكرامه ، ويقول بعض المؤرخين أنه دس له السم وهو فى طريقه الى الحميمة حيث كان يقيم معه منفيا محمد بن على بن عبد الله ابن عباس فلما شعر أبو هاشم بدنو أجله أفضى الى محمد بن على هذا بأسرار الدعوة وأمده بأسماء الدعاة فى الكوفة . ويقال أنه تنازل له عن حقه فى الخلافة وبذلك انتقلت الدعوة الى بنى العباس .

ولقد ابتدأت هذه الدعوة فى أول القرن الثانى الهجرى ، ورأى محمد ابن على بن عبد الله بن عباس أن نقل السلطان من بيت الى بيت لابد ان يسبق باعداد أفكار الأمة الى هذا النقل وأن كل محاولة فجائيه لابد أن تكون عاقبتها الفشل فرأى أن يسير فى المسألة بالروية والحزم فعهد الى شيعته أن يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس الى ولاية أهل البيت دون أن يسموا أحدا . خوفا من بنى أمية أن يعملوا على القضاء عليه اذا عرفوه .

ومن حسن سياسة الدعاة العباسيين أنهم حاولوا جلب الشيعةالعلويين الى صفوفهم ، فأظهروا أن غايتهم هى قلب الحكومة القائمة والقضاء على دوله الأمويين . ولم يكن يظهر منهم ما يشعر بأنهم يطلبون الخلافة لأنفسهم . فلم تكن تؤخذ البيعة باسم العباسيين ، بل كانت تؤخذ لشخص غير معين من آل البيت رمزوا اليه بالرضا من آل محمد كما سبقت الاشارة تفصيلا .

وبزغت هذه الدعوة فى الكوفة ثم انتقلت الى اقليم خراسان وهو المركز الرئيسى للخلافة وكانت تتجلى فيها روح السخط والعداء للدولة الأموية وذلك لغلبة العنصر الأعجمى فيها على العنصر العربى .

ففيها من أسلم رغبة فى الاسلام وهؤلاء كانوا يحقدون على الأمويين لتجافيهم عن مبادىء الاسلام فى بعض الأحيان .

وفيها من أسلم طمعا فى الامتيازات التى نادى بها الاسلام وأهمها المساواة .

وفيها من حافظ على دينه الأصلى وهؤلاء كانوا ينتهزون الفرصة

ولعل مما يوضح لنا صلاحية خراسان لتلك الدعوة الجديدة تلك الكلمة المنسوبة لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس والتي يروون أنه قالها لدعاته حينما وجههم الى خراسان قائلا :

« ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر • وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغل • وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب - يشير الى شجاعتهم - وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة • وبعد فاني أتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » .

وقد مرت الدعوة العباسية في طريقها بدورين متباينين :

الدور الأول : الذى استمر من مطلع القرن الثانى الهجرى حتى سنة ١٢٧ هـ • وقد كان الدعاة فى هذا الدور يجوبون خراسان فى صورة تجار ثم يقومون بنشر الدعوة من بيت الى بيت ومن بلدة الى أخرى فى حيطة وحذر •

أما الدور الثانى فقد بدأ منذ سنة ١٢٧ هـ حينما اتخذت الدعوة طريقا ايجابيا وانتقلت الى دور الكفاح المدجج بالسلاح ، وقد تولى القيادة فى هذا الدور العملى رجل من دعاة السياسة وعباقرة الحروب وأفذاذ التاريخ وهو أبو مسلم الخراسانى •

وكان من يمن الطالع للدعوة العباسية أن يقود أهل خراسان رجل منهم عرف بكفايته واخلاصه ، فأهاب بهم الى الكفاح والعمل وخاطبهم قائلا :

« أشعروا قلوبكم الجرأة فانها من أسباب الظفر ، وأكثروا ذكر الضغائن فانها تبعث على الاقدام ، والزموا الطاعة فانها حصن المحارب » • ثم عقد لقواده الألوية وهو يتلو قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير » • وأخذ يشق طريقه ويتنقل من نجاح الى نجاح •

وتسابق أهل خراسان من السكان الأصليين الى تأييد أبى مسلم ونصرته ولقد بلغ عددهم زهاء مائة ألف رجل •

أبى مسلم وأن هؤلاء بعد انضمامهم الى العرب المناوئين لبنى أمية أصبحوا قوة لا قبل للأمويين بها وكان من الطبيعى حينئذ أن ينهزم نصر بن سيار عامل الأمويين أمام أبى مسلم ، وعلى الأخص بعد أن فرق أبو مسلم كلمة العرب وجعل بأسهم بينهم شديدا ، وقد تراجع نصر بن سيار أمام قوة أبى مسلم حتى مات فقد سقطت المدن الخراسانية فى أيديهم مدينة بعد أخرى . وكان انتفاض خراسان على الدولة الأموية مطلعا رائعا لانتصارات الهاشميين قوى بعده جانبهم وعزت كلمتهم ثم سارت الجيوش والفرق فى خراسان تغزو وتنتصر حتى أخضعت بلاد العراق حيث بويع أبو العباس « السفاح » بالخلافة فى ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ .

وحينما تم الأمر للعباسيين فى الكوفة كانت الدولة الأموية الغاربة تحاول أن تتجمع لتلقى بآخر سهم فى وجه أعدائها الألداء من بنى العباس وقد جمع مروان بن محمد لذلك جيشا بلغت عدته أكثر من مائة ألف بينما كان جيش العباسيين أربعين ألفا فحسب ، ودارت معركة عنيفة على نهر الزاب فى جمادى الآخر سنة ١٣٣ هـ وعلى الرغم من ضخامة الجيش الاموى فانه منى بالهزيمة ، وذلك بأنه قد أنهكته الحروب وهدت قواه وضعفت الروح المعنوية فى نفوس أفراده بسبب الدعاية الضخمة التى قام بها العباسيون وما أحدثه قيام دولتهم من رجة عنيفة ودوى هائل .

وهكذا تم القضاء على القوة العسكرية للأمويين ولم يبق منهم الا أفراد وجماعات يئسوا من الكفاح فألقوا السلاح وأعلنوا الولاء والطاعة ، وكان من الواجب على العباسيين - وهم من آل البيت - أن يقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى العفو والصفح الجميل عمن أساءوا اليهم ولكنهم كانوا مثالا للقسوة التى لا ترحم ، وللعنف الذى لا يعقل ، فارتكبوا من الفظائع ما يندى له الجبين وتقشعر من هوله الأبدان ، وقد أجمعت المصادر وتضافرت الروايات على أن بنى العباس قد تعقبوا الآمنين من بنى أمية وهم مجردون من السلاح ، فأذاقوهم الويل والنكال ، وهو ما رواه تفصيلا أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى .

بدأت عربة العباسيين تزداد سرعة ولم يكن هناك من شىء يمنع الملايين من أهل فارس والعراق من أن يركبوا فوقها ، وقاد أبو مسلم الخراسانى - والى خراسان - جيشه فى مواجهة الأمويين والخوارج وقتل

بويع جعفر بالخلافة واتخذ لنفسه لقب « المنصور » . وواجه أبو مسلم قدره المحتوم ، بالرغم من محاولاته استعادة مكانته لدى سيده الجديد فعندما ادعى عبد الله عم أبى جعفر انه الأحق بالخلافة ، أخرجه أبو مسلم من خراسان وفي طريق عودته الى خراسان دعى الى زيارة بلاط أبى جعفر . فقبل الدعوة فى لهفة ظنا بأنها تبشر بمكافاة له على انجازاته غير انه كان مخدوعا اذ عند وصوله شرع أبو جعفر فى لومه ، ونترك الطبرى يسرد تفصيل ذلك قائلا : ذكروا أن المنصور قال يعاتبه : أخبرنى عن كتابك الى أبى العباس تنهاه عن الموات ، أردت أن تعلمنا الدين ! ··· قال فأخبرنى عن تقدمك اياى فى الطريق ··· فقولك حين أتاك الخبر بموت أبى العباس لمن اشار عليك أن تنصرف الى : فتقدم فترى من رأينا ، ومضيت فلا أنت أخرت حتى ألحقك ولا أنت رجعت الى ··· فجارية عبد الله بن على أردت أن تأخذها ؟ ··· فمراغمتك وخروجك الى خراسان ؟ ··· والمال الذى جمعته بحران ؟(١) .

وعند اشارة معلومة انقض حرس الخليفة على أبى مسلم فقطعوه اربا وألقوا بجثته المتناثرة فى نهر دجلة ، وكانت الظنون انه بالقضاء على الأمويين والخوارج وعلى أبى مسلم فى وقت واحد . فان أبا جعفر سيقضى فترة حكمه الاحدى وعشرين دون خوف من منافس . غير انه يبدو أنه كان لا يزال لا يثق بأن العرب - وهم ذوى قرباه - يمكن أن يخدموه . ومن ثم حرص هو وخلفاؤه المباشرون على احلال المؤثرات الفارسية فى داخل الخلافه محل العربيه ، فنقل مقر الخلافة من الشام الى العراق وأدخل الثقافة والتعليم والعادات الاجتماعية الفارسية ، ولم يعد حرس الخليفة وجماعة الضباط فى الجش من مصادر عربية ولكن من خراسان ثم من قبائل التركمان الواقفين الى الشرق .

ويذكر انونى ناتنج : « ان هذه التغييرات الدورية كان لها تأثير مرير على قطاعات معينة من السكان العرب أصبحوا من حيث الواقع - وان لم يكونوا من الناحية القانونية - مواطنين من الدرجة الثانية فى امبراطوريتهم . ولم تكن هناك مقاومة ، وقبل العرب الوضع الجديد لأنه أعطاهم مجتمعا اسلاميا برغم « أنغامه » الأجنبية ··· » .

أما تأثير هـــذه التغييرات على العـــلاقات السياسية فى عصر الدولة العباسية فى عهدها الأول ، فقـــد كسب الموالى فى فارس والعراق نصرا جديدا ورائعا ووجدوا مكانا تحت الشمس فى القسم الشرقى من الدولة الاسلامية وكان ابو جعفر - على حد تعبير انتونى ناتنج - الرجل الصحيح بمعنى الكلمة ، ... فلم يكن طاغيـــه ... وكان من أول افعاله أن بدا ايعمل فى انشاء حاضرة جديدة حيث اختار موضعا عـلى نهر دجلة يدعى بغداد ، بعيـــدا عن مواقع الشيعة ، وعلى العاصـمة الفارسية القـــديمة - طيسفون - وأصبحت بغداد « مدينة السلام » فى سنوات قليلة ومركزا للتجارة ، وعاصمة سياسية لها مكانه دوليه . ويصفها المؤرخ فيليب حتى قائلا : « ... كما لو كانت ظهرت الى الوجود بفعل عصا ساحر ، فان مدينة المنصور هذه ورثت قوة ومكانة طيسفون وبابل وأور وغيرها من عواصـــم المشرق القديم ، وبلغت درجه من الشهرة والروعة ، ربما لم يكن ينافسها فى العصور الوسطى سوى القسطنطينية » ، ويستطرد فيليب حتى قائلا : « ... وفتح الموقع الجديد الطريق أمام أفكار من الشرق ... رضخ الاسلام للتأثر الفارسى ، وأصبحت الخـــلافة بعثا للاستبداد الايرانى أكثر منهـــا مشيخة عربية . وبالتـــدريج انتصرت الألقاب الفارســـية . والزيجـــات الفارسية ... فضلا عن الآراء والأفكار الفارسية ... ومهدت الطريق الى عصر جديد يتميز بالاهتمام بالعلم والأعمال العلمية .. » .

كان أبو جعفر دبلوماسيا ورجل دولة ممتاز ، أعظم ما وهبه للخلافة سلام دام أكثر من ثلاثين عاما ، واستطاع قمع كل تهديد لســلامة الدولة الاسلامية وأن يوسع حدودها فى الشرق بضم طبرستان - وهى اقليم جبلى جنوبى بحر الخزر - وضم قندهار على حـــدود الهنـــد ، واذا كان أبو جعفر المنصور قد أدى هذه الانجازات الضخمة فان حفيده هارون الرشيد قد حقق مجدا اســـطوريا وعظيما فى تاريخ الدوله العباســـيه ابان عصرها الأول والذهبى والذى لقب بعصر « ألف ليلة وليلة » ، وفيما يتعلق بمجال هذه الدراسة - فان نجم هارون الرشيد كان قد لمع فى سن العشرين خلال حكم والده محمد ، عندما شن العباسيون أول هجوم لهم على جيرانهم الروم أملا فى الاستفادة من السلام والانسجام داخل الدولة العباســـية ليتخلصوا من التهديد البيزنطى فى آسيا الصغرى ، وســـار هارون مصحوبا بخالد بن يزيد على رأس مقدمة جيش الخليفة الذى راح يتوغل حتى بلغ البوسفور ، وهناك أرغم الوصية على العرش وهى الملكة ايرين على توقيع معاهدة ، وأداء

الجزية الى جيوش الخليفة ، وكانت هذه رابع وآخر مرة يقف فيهـــا جيش عربى أمام أسوار القسطنطينية ٠

تبددت أحلام امتداد عصر السلام بعد موت هارون الرشيد ، وواجهت الخلافة صراعا مريرا بين ولديه محمد الامين وعبد الله المـأمون ، وكان المأمون قد عين قبل موت والده سنة ٨٠٩ م واليا على خراسان ، وعنـدما طالبـه الأمين - وهو الخليفة الجديد - بأن يعيد جيوشه الى العراق ، فقد رفض أن يترك بغير دفاع ، وكان يشك فى أن الأمين سوف يسلبه نصيبه فى وصية أبيهما ، فلجأ الى الخراسانيين يطلب نصرتهم له ، وكان أصل أمه الفارسى فى صالحه عندما عزله الأمين من منصبه وأرسل له جيشا للقضاء عليه وعلى أنصاره ولـــكن الجيش أبيد عنـــد الرى القريبة من طهران عـلى يد قوة خراسانية ٠

استمرت الفتنة بين المـأمون والأمين وانعكست على جيش الأمين الذى ازدادت أوضـــاعه تدهورا كمـــا يقول المؤرخ الذائع الصيت أبو الحسن المسعودى حيث حوصر الأمين فى قصره ، وتم قتله أثنـاء عبوره نهر دجله وأرسلت رأسه الى المـأمون ، ويذكر الطبرى[1] ان الأمين قرر أن يرســل نفسه الى المـأمون ، فهاجمه أنصار المـأمون رغم عبوره النهر وقتل ٠

تولى المـأمون الحكم غير انه اختار خراسان بدلا من بغداد قاعدة له ، وثارت بغداد ضد مستشارى المـأمون من الفرس وزيادة المؤثرات الفارسية، وظل العراقيون فى حالة من الفوضى شهورا عدة الى أن أرسل الخليفة أحد أعمامه من خراسان ليعيد السلام هناك ، وجعلت الخلفية الفارسية للمأمون كيف يبدو فى مظهر جديد وحافظ عليه حتى نهاية عهده وكان يحب الفنون والعلوم والثقافة والفلسفة ، وشجع حضـــور رجال العلم بغض النظر عن أجناسهم أو دياناتهم ، فالنصارى والروم واليهود والمجوس - هؤلاء جميعا كانوا موضع رعايته ٠

وفى عهده جرى تعديل نظام التعليم وتحديثه وأنشئت أكاديميـــات التعليم العالى ، وتم تأسيس مدرسة للشريعة والفقـه وجرى التنقيب عن مؤلفات الفلاسفة والرياضيين الاغريق وأنشئت دار للترجمة أشرف عليهـا

عربى نصرانى هو حنين بن اسحق الذى ترجم بنفسه « جمهورية أفلاطون » ونتابى المقولات والطبيعة لارسطو ، وكان هـذا هو العصر الذهبى للدوله العباسيه حيث تم أيضا تطوير تراث مصر وفارس والهند ، ويعلق فيليب حتى قائلا : « ان من المجد الخالد للاسلام فى العصور الوسطى انه نجح فى التنسيق والتوفيق بين الفكر الاسلامى والفلسفة اليـونانية التى هى اعظم ما انجزه العالم الأوروبى القديم ، وبذلك قاد الاسلام أوروبا المسيحية تجاه وجهة النظر الحديثة » ٠

وفيما يتعلق بتقويم خلافة المـأمون على صعيد العلاقات السياسية ، فمن الثابت أن المـأمون حين مات فى سن الثامنة والأربعين كان قد سحق النزعات فى كردستان وأمن حدود الدولة العباسية مع بيزنطة ٠ ويحدثنا الثعالبى أن عصر التفوق العباسى استهله أبو جعفر ، ونضج وأثمر تماماً فى عهد المـأمون الى هذا المزيج الرائع من الدم العربى والفارسى وتحولت بغداد الى مركز للثقافة والعلم فى الوقت الذى لم يكن فيه فى اســـتطاعة حكام أوروبا حتى أن يكتبوا أسماءهم ٠

ومن المؤسف أنه لم يمر على موت المـأمون أقل من سبعين سنة حتى كان تفوق العباسيين السياسى قد انتهى وراحت الخلافة مرة أخرى فى طريق الانحلال والتفكك حيث كان الشيعة ما يزالون ينتظرون أن يحكموا الدولة الاسلامية واعتقدوا أنهم خسروا الكثير من التأييد الشعبى لهم وخاصة فى العراق بوصفه مركز الرخاء والازدهار الفكرى للدولة الاسلامية وتلى ذلك انقسام الشيعة الى مجموعات متباينة على نحو ما سبقت الاشارة اليه تفصيلا وذلك بالاضافة الى الطوائف والفرق الأخرى وانعكس ذلك سوءا على صعيد العلاقات السياسية من خلال سلسلة المعارك التى اشتبك فيهـــا القرامطة لتأييد ثورة الزنج فيما بين عامى ٨٦٨ - ٨٨٣ م - على سبيل المثال - وما حققوه من نصر على الجيوش الاسلامية فى البصرة فى عام ٩٠٠ م ثم زحفهم على الشام واستيلائهم على جزئها الشمالى سنوات عـدة قبـل هزيمتهم من الأتراك وفرارهم الى العراق وسيطرتهم على جنوبه من البصرة الى الـكوفة ولمـا مات قرمط أقام مبعوثه سعيد الحسن الجنابى دولة قرمطية مستقلة فى البحرين ، وخلال السنوات المـائة التالية واصل القرامطة هجماتهم عـلى الخلافة وأغرقوا الشام والعراق فى الدماء ، وانقضت حوالى مائة عام أخرى من الحركات الاستقلالية والانفصالية عن الخلافة وكان على العالم الاسلامى أن يواجه غزوتين شرستين تمثلتا فى الغزو المسيحى والغزو الوثنى ، وكتب

كل من السلطان صلاح الدين الأيوبي والسلطان المملوكي بيبرس فصولهما الباهرة في تاريخ العلاقات السياسية في الاسلام فى هذه الفترة ، وكانت مصر هذه المرة - وليست بغداد - هي القوة التى ألقت بالصليبيين خارجا ، وأوقفت غزو الوثنيين المغـــول الذين جاءوا فى أعقابهم - قبل اعتنـــاقهم الاسلام - ولم تعد بغداد صانعة للأحداث بل مجرد متفرج عليها فيما تبقى من الامبراطورية الفارسية •

وفي تقويم دولة صلاح الدين على صعيد ما يتعلق بمجال هذه الدراسة يمكن القول انه سواء تعلق الأمر بأخلاقه أو سلوكه فقد كان قائدا اسلاميا بمعنى الكلمة ، ولم يكن يتسم بالقسوة الا اذا تعلق الأمر بالخيانة والغدر . ومن المعروف أن هاتين الصفتين هما سمتا هذا العصر من خـــلال احتكاك المسلمين بالصليبيين ، وبخـلاف ذلك كان من أشـــد المحاربين عزوفا عن الحرب أو استخداما لأية قوة لا لزوم لها ضد الصليبيين ، وكان عزوفا دائما عن اللجوء للحرب اذا كان التفاوض يخدم غايته بنفس الدرجة ، وعـــلى خلاف الصليبيين فنه لم ينكث أبدا بعهد قطعه لأى أناس آخرين ، ومع ذلك لم تتح له الفرصة ليكسب تفوقا ثقافيا على نحو ما فعله المـأمون ولـــكن الأهم من ذلك فان صلاح الدين قد جمع ، ووحد العالم الاسلامى والعربى من النيل الى الفرات فقويت الشعوب الاسلامية التى كانت مهددة فى وجودها ودينها ، ووجه صلاح الدين الى الغزاة الأوروبيين ضربة قاصمة وجعـل من الاسلام قوة يعمل لها حساب فى الشرق والغرب على السواء ، وكان مثالا يحتذى به فى الشهامة والروح الانسانية ندر ان كان له مثيل ولم يتفوق عليه مثال آخر فى هذه الفترة •

المصَادِرُ والمَراجِعُ

أولا ـ المصادر والمراجع العربية :

- القرآن الكريم

- ابراهيم العدوى (دكتور) ، الأمويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- ابراهيم بيضون (دكتور) ، تكون الاتجاهات السياسية فى الاسلام الأول ، دار اقرأ ، بيروت ١٩٨٥ .

- أبو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢ هـ) ، الخراج ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٩٦ هـ .

- أحمد أمين ، ـ فجر الاسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ .
ـ ظهر الإسلام ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٦٩ .

- أحمد بن بيليك المحسنى (ت ٧٥٣ هـ) ، الجوهر الثمين فى سيرة الأمين ، معهد المخطوطات ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- أحمد قاعور (دكتور) ، شحادة الناطور (دكتور) ، تاريخ الدونة العربية حتى نهاية الغزو المغولى ، مطبعة الاتحاد ، عمان ، ١٩٨٢ .

- آدم‌ميتز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، أو عصر النهضة فى الاسلام ، ترجمة دكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ـ جزآن ـ القاهرة ١٩٥٧ .

- ادوارد جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، بدون مكان وتاريخ اصدار .

- ابن العماد الحنبلى أبو الفلاح عبد الحى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، تحقيق دار احياء التراث العربى ـ ثمانية أجزاء فى أربعة مجلدات ، بيروت ، بدون تاريخ اصدار .

ـ ابن الفرات ، ناصر الدين محمد ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق أسـد رسم وقسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، المطبعة الامريكية ، بيروت ١٩٤٢ ٠

ـ ابن أبى الحديد ، نهج البلاغة ، بدون مكان وتاريخ اصدار ٠

ـ ابن حزم ، أبو محمد على بن سعيد الأندلسى ، (ت ٤٥٦ هـ) ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف، القاهرة ١٤٩١ هـ/١٩٧١ م ٠

ـ ابن حوقل ، أبو القاسم محمـد بن عـلى بن حـوقل البغـدادى ، (ت ٣٦٧ هـ) ، المسالك والممالك ، ليدن ١٨٠٠ م ٠

ـ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى أخبـار ملوك مصر والقـاهرة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار ٠

ـ ابن اسحق ، أبو عبد الله محمد بن يسار المطلبى (ت ١٥١ هـ) ، سيرة النبى ، هذبها ابن هشام بن أيوب الحميرى ، تحقيق محمـد محيى الدين عبد الحميد ـ جزآن ـ دار الاتحاد العربى للطباعة ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار ٠

ـ ابن خلدون ، عبد الرحمن ، العبر وديوان المبتـدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر ومن تبعهم من ذوى السـلطان الأكبر ، ـ ٧ أجزاء ـ القاهرة ١٩٦٢ ٠

ـ ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمـد بن خلـكان الشافعى (ت ٦٨١ هـ) ، وفيات الأعيان وأنباء أبنـاء الزمان ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميـد ، مكتبة النهضـة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار ٠

ـ ابن الجوزى ، أبو الفرج عبد الرحمن بن على (ت ٥٩٧ هـ) ، المنتظم فى فى تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيـدر آباد ، الهند ١٣٥٨ هـ ٠

بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى (ت ٣٢٨ هـ) ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سيد العريان ، المكتبة التجاريه الكبرى ، القاهرة ١٩٥٣ .

- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدنيورى ، (ت ٢٧٦ هـ) ، الامامة والسياسة ، المكتبة التجاريه الكبرى ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- ابن النديم ، محمد بن اسحق أبو الفرج (ت ٢٣٥ هـ) ، الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٨ .

- أبو اسحاق بن محمد الفارسى الاصطخرى ، كتاب الأقاليم ، بدون مكان اصدار ١٨٣٩ م .

- أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسى ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٦ .

- اسماعيل بن على بن عماد الدين أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ) ، المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة ١٣٥١ هـ/١٩٣٤ م .

- انتونى ناتنج ، العرب انتصاراتهم وأمجاد الاسلام ، ترجمة دكتور راشد البراوى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٤ .

- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسين على بن أبى الكرم الشيبانى ، (ت ٦٣٠ هـ) ، الكامل فى التاريخ ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٣٨١ هـ/١٩٦٧ م .

- أبو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢ هـ) ، المختصر فى أخبار البشر ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٥٦ .

- البغدادى ، عبد القادر بن طاهر بن محمد التميمى (ت ٤٢٩ هـ) ، الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ اصدار .

- البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى (ت ٢٧٩ هـ) ، فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان ، بدون مكان وتاريخ اصدار .

- برنارد لويس ، أصول الاسماعيلية ، ترجمة خليل أحمد جاد ، وجاسم محمد الرجبى ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- تيلر ، فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٦٦ .

- الجاحظ ، عمر بن بكر ، (ت ٢٥٥ هـ) ، البيان والتبيان ، دار الفكر للجميع ، بيروت ١٩٥٤ .

- الجهنيارى ، محمد بن عبيدوس الكوفى (ت ٣٣١ هـ) ، الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبدالحفيظ السبكى ، مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٣٨ .

- حسن على ابراهيم (دكتور) ، الاسلام السياسى ، القاهرة ١٩٧٣ .

- حسن حبشى (دكتور) ، نور الدين . دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٩ .

- الخطيب البغدادى ، أبو بكر أحمد بن على (ت ٤٦٣ هـ) ، تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة بمصر ، القاهرة ١٩٣١ .

- الدنيورى ، أبو حنيفة أحمد بن داود الدنيورى ، (ت ٣٨٢ هـ) . الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، وزارة الثقافة والارشاد القومى ، القاهرة ١٩٦٠ .

- راشد البراوى (دكتور) ، التفسير القرآنى للتاريخ ، دار النهضة

- رفيق التميمى ، الحروب الصليبية ، مطبعة اللواء ، القدس ١٩٤٥ ٠

- سعيد عاشــور (دكتور) ، أوروبا فى العصــور الوسطى ، النظم والحضارة ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار ٠

- سعيد عاشور (دكتور) ٠ الحركة الصليبية ، الأنجلو المصريه ٠ القاهرة ١٩٦٣ ٠

- السيوطى ، جــلال الدين عبــد الرحمن بن أبو بـكر السـيوطى ، (ت ٩١١ هـ) ، تاريخ الخلفـاء أمراء المؤمنين القــائمين بأمر الطاعة ، القاهرة ١٣٥١ هـ ٠

- شكرى فيصل ، حركة الفتح الاســلامى فى القرن الأول ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٢ ٠

- الشهرستانى ، محمــد بن عبد الكريم بن أبى بكر (ت ٥٨٤ هـ) ، الملل والنحل ، تحقيق محمد رشـيد الـكيلانى ٠ دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٥ ٠

- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ٠ دول الاسلام ٠ القاهرة ١٣٦٨ هـ ٠

- شهاب الدين أبو عبــد الله ياقوت الحمـوى الرومى ٠ معجم البلدان ، ١٣٢٥ هـ/١٩٠٨ م ٠

- الصولى ، أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ) ٠ أخبار الراضى بالله والمتقى بالله ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٩ ٠

- الصفدى ٠ صلاح الدين خليل ايبك (ت ٧٦٤ هـ) ، الوافى بالوفيات ٠ وزارة المعارف ، القاهرة ١٩٤٩ ٠

- الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٢٢٤ - ٣١٠ هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضــل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار ٠

— عباس محمود العقاد ، المجموعة الكاملة ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٤ .

— عبد العزيز الدروى (دكتور) . دراسات عن العصور العباسية المتأخرة، بغداد . بدون تاريخ اصدار .

— عبد العزيز جاويش ، الاسلام دين الفطرة . بدون مكان وتاريخ اصدار .

— عبد الله بشر الطرازى (دكتور) ، موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية لبلاد السند والبنجاب (باكستان الحالية) ، الجزء الأول ، عالم المعرفة ، جدة ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م .

— عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، (ت ٨٠٨ هـ) ، تاريخ ابن خلدون ، القاهرة ١٢٨٤ هـ .

— عبد الفتاح السرنجاوى ، الخــلافة العباسية ، اضمحلالها وسقوطها ، مكتبة عطايا بمصر ، القاهرة ١٩٥٥ .

— عبد المنعم ماجد (دكتور) ، التاريخ السياسى للدول العربية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ .

— على حسنى الخربوطلى (دكتور) ، الدولة العربية الاسلامية ، البــابى الحلبى ، القاهرة ١٩٦٠ .

— على سامى النشار (دكتور) ، مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

— العماد الأصفهانى ، محمد بن محمد ، الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعــة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

— عماد الدين الأصفهانى ، تاريخ دولة سلجوق ، القاهرة ١٢٢٨ هـ .

— العينى ، أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد الحنفى (ت ٨٥٥ هـ) ، عقد الجمان فى تاريخ أهل زمان ، أو تاريخ العينى (مخطوطة)،

- فتحى عثمان ، أضواء على التاريخ الاسلامى ، دار العروبة ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

فتحية النبراوى (دكتورة) ، دراسة فى عصر الخلفاء الراشدين ، الادارة العامة لكليات البنات ، الرياض ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م .

- فتحية النبراوى (دكتورة) ، محمد نصر مهنا (دكتور) ، تطور الفكر السياسى فى الاسلام ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٨٣ .

- فيليب حتى ، تاريخ العرب (مطول) ، مطبعة الكشاف ، بيروت ١٩٦١ .

- فيليب حتى ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال اليازجى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩ .

- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٥ .

- القرمانى ، أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقى (ت ٦٨٥ هـ) ، اخبار الدول وآثار الأول ، مكتبة المتنبى ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- القلقشندى ، نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار .

- القلقشندى ، أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ) ، صبح الأعشى فى صياغة الانشا ، بدون مكان وتاريخ اصدار .

- الماردينى ، عبد السلام بن عمر بن محمد ، (ت ١٢٥٩ هـ) ، تاريخ ماردين (مخطوطة) ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

- محمد أسعد طلس (دكتور) ، تاريخ العرب ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، بدون تاريخ اصدار .

الاسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٦٦ ٠

— محمد رشاد خليل (دكتور) ، المنهج الاسلامى لدراسة التاريخ وتفسيره ، بدون مكان اصدار ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٣ م ٠

— محمد ضياء الدين الريس (دكتور) ، عبد الملك بن مروان والدولة الأموية ، القاهرة ١٩٦٩

— محمد الطيب النجار (دكتور) ، الدولة الأموية فى الشرق ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار ٠

— محمد ماهر حمادة (دكتور) ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الاسلامى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م ٠

— محمود شاكر ، التاريخ الاسلامى ، الجزء الثالث ، (الخلفاء الراشدون)، المكتب الاسلامى ، بيروت ١٩٨٥ ٠

— الشيخ محمد عبده ، رسالة التوحيد ، بدون مكان وتاريخ اصدار ٠

— الشيخ محمد الخضرى ، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٧٠ ٠

— محمد كرد على ، الاسلام والحضارة العربية ، جزآن — الطبعة الثالثة ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ ٠

— المسعودى ، أبو الحسين على بن الحسين بن الحسين بن على (ت ٣٤٦ هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م ٠

— المقريزى ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن على ، الخطط المقريزية ،

- محمد نصر مهنا (دكتور) ، علوم السياسة ، دراسة في الأصول والنظريات ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨٨ ٠

- محمد بن أحمد ، كتاب العبر في خبر من خبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ، ١٩٦٠ ٠

- هنري لادوست ، نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع ، ترجمة محمد عبد العظيم علي ، تقديم ومراجعة دكتور مصطفى حلمي ، دار الأنصار ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار ٠

- الهيتمي ، الامام أحمد بن محمد المعروف بابن حجر ، (ت ٩٧٤ هـ) ، كتاب اخوان الصفا بنبذ أخبار الخلفاء (مخطوطة) ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ٠

- الأزدي ، محمد بن عبد الله الأزدي البصري ، (ت ١٦٥ هـ) ٠ تاريخ فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ، بدون تاريخ اصدار ٠

- الاصطخري ، أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري ، مسالك الممالك ، ليدن ١٨٧٠ م ٠

- ناجي معروف (دكتور) ، عروبة العلماء المنسوبين الى البلدان الأعجمية في خراسان ، منشورات وزارة الاعلام ، الجمهورية العراقية ، سلسلة كتب التراث (٤٦) ، بغداد ١٩٧٦ ٠

- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت ١٩٢ هـ) ، تاريخ اليعقوبي ، مطبوعات المكتبة الحيدرية ، النجف ، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م ٠

ثانيا – المراجع الأجنبية :

— Abbott. J. : «Sind : A Reinterpretation of Un happy Valley, Oxford University Press, 1924.

— De Goge, Memoire Sur Les Carmathes de Bahrain, Leiden 1882.

— Eeonard Binder, Religion and Politics in Pakistan, University of California Press 1961.

— Ivanov, The Rise of the Fatimide, Calcutta, 1942.

— Ivanov, A Gide to Ismaili Cullerative, London 1933.

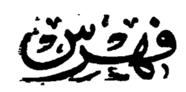
— Lambrick, H.T. : Sind : "A General Introduction" Hyder, Abad, Sind, Sindhi Adabi Board, 1964.

— Lewis, Bernard, The Origine of Ismailism, Cambridge 1940.

— Toynbee, A Study of History, London 1945.

— Raverty : "The Mahran of Sind,» in : Journal of the Royal Asiatic Society, Bengal 1892.

— Syikes, (Sir Percy), History of Persia, London 1951.



الموضـــــوع	الصفحه

اهـــــــداء	٥
تمهيـــــد	٧
البـاب الاول	
عصر النبوة والخلافة الراشدة	١٧
الفصل الاول : عصر النبوة	١٩
ـ من العهد المكى الى العهد النبوى	٢٠
ـ اسس الدولة الاسلامية	٢٤
ـ الرده وحروبها	٢٨
الفصل الثانى : عصر ابى بكر الصديق :	
١ ـ ١٣ هـ/٦٣٢ ـ ٦٣٤ م	٣٣
ـ فتح العراق وفارس	٣٤
ـ الدروس المستفادة	٣٨
ـ فتوح الشام	٤٢
ـ ابو بكر فى الشام	٤٣
الفصل الثالث : عصر عمر بن الخطاب	
١٣ ـ ٢٣ هـ/٦٣٤ ـ ٦٤٤ م	٤٧
ـ رسائل عمر الى قادة الجيوش الاسلامية	٤٨
ـ من فتوح العراق الى فتوح ايران	٥٣
ـ فتوح السند والبنجاب :	٥٥
السند والبنجاب ، بعض الملاحظات الجيوبوليتيكية	٥٥
ـ تقويم	٦٠
الفصل الرابع : عصر عثمان بن عفان	
٢٣ ـ ٣٥ هـ/٦٤٤ ـ ٦٥٦ م	٦٣
ـ توغل جيوش المسلمين فى بلاد الترك	٦٤
ـ أسماء لامعة فى الفتوحات الاسلامية	٦٧

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة
الفصل الخامس : عصر على بن أبى طالب	
٣٥ — ٤٠ هـ/٦٥٦ — ٦٦١ م	٧١
— خضوع الاقاليم المفتوحة فى آسيا	٧٣
الباب الثانى الفتوحات الاسلامية فى عصر الدولة الأموية	٧٩
الفصل الأول : من معاوية بن أبى سفيان	
٤٠ — ٦٠ هـ/٦٦٠ — ٦٨٠ م الى يزيد بن معاوية	
٦٠ — ٦٤ هـ/٦٨٠ — ٦٨٤ م	٨١
— توطيد أركان الدولة الاسلامية	٨٢
— من السند والبنجاب الى قمم لبنان	٨٧
— عهد يزيد ٦٠ — ٦٤/٦٨٠ — ٦٨٤ م والفترة اللاحقه	٨٩
من معاوية الثانى الى مروان بن الحكم وعبـد الله بن الزبير والحجاج بن يوسف الثقفى	٩٢
الفصل الثانى : من عبد الملك بن مروان ٦٥ — ٦٦ هـ الى الوليـــد	
٨٦ — ٩٦ هـ وسليمان بن عبد الملك ٨٦ — ٩٦ هـ	٩٥
— الفتن الداخلية وانعكاساتها الآسيوية	٩٦
الفصل الثالث : من عمر بن عبـــد العزيز ٩٩ — ١٠١ هـ/٧٠٧ —	
٧٣٠ م الى ما قبل سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ	٩٩
— دور البصرة فى فتح خراسان	١٠٠
— دخول أعداد هائلة من سكان آسيا فى الدين الاسلامى	١٠٣
— حركة الفتوح الأموية عقب وفاة عمر بن عبد العزيز	١٠٥
الفصل الرابع : محمد بن القاسم الثقفى وفتح السند	١٠٩
— ما قبل حملة محمد بن القاسم الثقفى	١١٠

الموضـــــوع	الصفحة

- الحملة العربية بقيادة محمد بن القاسم الثقفى (٩٢ - ٩٦ هـ) ١١٤

الفصل الخامس : بلاد السند بعد محمد بن القاسم ١٢١

- اضطراب الأحوال السياسية ١٢٢

البـاب الثالث
الدولة العباسية ومسلمو آسيا حتى الغزو الصليبى

الفصل الأول : أسس الدولة الجديدة وفتوحاتها ١٣١

- الدولة الجديدة والعلاقات السياسية الاسلامية ١٣٢
- الفتوحات الاسلامية ١٣٧
- الخلفاء العباسيون والعلاقات الخارجية ١٤١
  ١ - أبو العباس السفاح ١٣٢ - ١٣٦ هـ ١٤١
  ٢ - أبو جعفر المنصور ١٣٦ - ١٥٨ هـ ١٤٢
- الجيش ودوره الاسلامى ١٤٥
  ٣ - المهدى بن المنصور (١٥٨ - ١٦٨ هـ) (٧٧٥ - ٧٨٥ م) ١٤٩
  ٤ - من الهادى بن المهدى (١٦٩ - ١٧٠ هـ) (٧٧٥ - ٧٧٦ م) الى الرشيد بن المهدى (هارون الرشيد) (١٧٠ - ١٩٣ هـ) (٧٨٦ - ٨٠٨ م) ١٥٣
- شئون بلاد السند ١٥٧

الفصل الثانى : الفتن الداخلية وانعكاساتها الخارجية ١٥٩

- من الأمين بن الرشيد (١٩٣ - ١٩٨ هـ) (٨٠٨ - ٨١٣ م) الى المـأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) ، والمعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) (٨٣٣ - ٨٤٢ م) ١٦٠
- الفتن وأحداث التمرد والعصيان فى عهد المـأمون ١٦٢

الموضـــوع	الصفحة
– المعتصم بن الرشيد (٢١٨ – ٢٢٧ هـ) (٨٣٣ – ٨٤٢ م)	١٦٨
– العلاقات الخارجية فى عهد المعتصم	١٧٠
– شئون بلاد السند حتى سنة ٢٤٠ هـ	١٧٢
الفصل الثالث : من عصر الانحلال الأول الى بروز الولايات الاسلاميه الانفصالية فى آسيا	١٧٧
– خلفاء عصر الانحلال الاول	١٧٦
– شئون الخلافه	١٨٢
عصر بروز الولايات الاسلاميه الانفصاليه الاستقلاليه	١٨٤
٢ – الدوله الصفاريه (٢٤٧ – ٢٨٩ هـ)	١٨٤
١ – الدولة الطاهرية (٢٠٥ – ٢٥٩ هـ) (٨٢٠ – ٨٧٢ هـ)	١٨٦
٣ – الدوله السامانيه (٢١٨ – ٣٨٩ هـ) (٨٧٤ – ٩٩٩ م) والدولة الغزنوية (٣٥١ – ٥٨٢ هـ) (٨٦٢ – ١١٨٦ م)	١٨٨
٤ – دولة آل بوية (٣٣٤ – ٤٤٧ هـ) (٩٤٥ – ١٠٥٥ م)	١٩٣
٥ – الحمدانيون (٢٩٣ – ٤٠٢ هـ)	١٩٦
٦ – من الدولة الزيادية (٢٠٣ – ٢٥٣ هـ) الى الدوله الزيدية (٢٥٠ – ٣٥٥ هـ) والدولة الساجية (٢٦٦ – ٣١٨ هـ)	١٩٨
٧ – الدولة الهبارية (٢٤٠ – ٤١٦ هـ)	٢٠١
٨ – الدولة الملتانية (١٥١ – ٤٠١ هـ)	٢٠٤
الفصل الرابع : عصر الانحلال الثانى ودور الفرق الاسلامية	٢٠٧
– الخلفـاء	٢٠٨
– الفرق الاسلامية وتأثيراتها	٢١١
١ – الخوارج	٢١٤

الموضـــوع	الصفحه

٣ ـ الشيعه	٢٢٠
٤ ـ المرجئة	٢٢٦
٥ ـ القدرية والجبرية	٢٢٩
٦ ـ المعتزلة	٢٣١
٧ ـ الاسماعيلية	٢٣٤
٨ ـ القرامطة	٢٤٢
ـ الفرق الاسلامية فى بلاد السند والبنجاب	٢٤٦
الفصل الخامس : سقوط الدولة وظهور دويلات جديدة	٢٥١
ـ ما قبل السقوط	٢٥٢
ـ شئون الخلافة والحركات الباطنية	٢٥٤
ـ ظهور دويلات جديدة	٢٦٠
١ ـ السلاجقة	٢٦٠
٢ ـ الأتابكة	١٦٢
٣ ـ الخوارزم	٢٦٥
الفصل السادس : الغزو الصليبى	٢٦٧
ـ جذور الحقد الصليبى تجاه المسلمين	٢٦٨
ـ الحملة الصليبية الأولى	٢٧١
ـ الحملة الصليبية الثانية	٢٧٤
ـ الحملة الصليبية الثالثة	٢٧٦
ـ من الحملة الرابعة الى الحملة السابعة (١٢٠٣ ـ ١٢٤٩ م)	٢٧٩
ـ نتائج الحملات الصليبية	٢٨٤
فصل ختامى : فى الفتوحات الاسـلامية وتأثيرها على العـلاقات السياسية فى آسيا	٢٨٧
المصادر والمراجع	٣٠٧

رقم الايداع ١٩٩٠/٢٦١٥
الترقيم الدولى ٥ ـ ٥٤٩ ـ ١٠٣ ـ ٩٧٧

مطبعـة أطلس
١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية